رواية

أسير المتمهدي

تاريخية غرامية

تتضمن الحوادث المصرية الأخيرة

بين عرابي والمتمهدي

و [illegible] ق

تأليف

جرجي زيدان

« طبعت بمطبعة [illegible] بشارع [illegible] بمصر سنة ١٨٩٢ »

رواية
أسير المتمهدي

تاريخية غرامية

تتضمن حوادث مصرية تاريخية

﴿ عرابي والمتمهدي ﴾

جرجي زيدان

« طبعت بمطبعة التأليف بشارع [illegible] بمصر سنة ١٨٩٢ »

المقدمة

بسم الله الحي الازليّ

لم يخطر لي يوم كتبت رواية المملوك الشارد انها ستصادف ما صادفتهُ من استحسان الادباء لها واقبالهم على مطالعتها واعتنائهم بانتقادها او تقريظها فان كتبهم ورسائلهم قد انهالت عليَّ انهيال الغيث وهم فيها بين منشط ومستحسن ومقترح ومنتقد ومقرظ · وقد تكرم بعضهم بدرج ذلك في بعض الصحف اليومية وعنت مجلة المقتطف العلمية بانتقاد تلك الرواية انتقادًا دقيقاً · فعلمت من خلال ذلك ان الرواية على حقارتها قد استحثت الاذهان للنظر في الروايات التاريخية وانتقادها مما يدلك على حاجة لبلاد اليها ويوجب ثنائي لحضرات القراء وشكري لفضلهم لانهم جرأوني على كتابة رواية اخرى هي هذه اخترت لها موضوعاً اقرب الى حالتنا الحاضرة من موضوع تلك فجعلتها تتضمن الحوادث الاخيرة في مصر والشام واخصها الحوادث العرابية والسودانية وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق وما تخلل ذلك من الاحوال والاعمال مما لا يفي التاريخ بتفصيله حتى يتمثل للذهن تمثلاً واضحاً

وقد افضتُ بنوع خاص في وصف البلاد السودانية وعوائد اهلها واحوال المتمهدي الداخلية مما لم يرد في كتب التاريخ وانما عرفتهُ باختباري

الشخصي مذ وطئت تلك الاقطار سنة ١٨٨٤ واختلطت باهلها وحضرت مجتمعاتهم ومواقع قتالهم وتمرنت في لغتهم واستطلعت سائر احوالهم . وإما نقلاً عمَّن فرُّوا مؤَخرًا من حوزة الدراويش بعد ان قضوا في اسرهم السنين الطوال وقد عرفوا عوائدهم واخلاقهم وسائر احوالهم . فكل ما سأذكره عنهم حقيقي يركن اليهِ ويعتمد عليهِ اعتمادًا لا يَقلُّ عن اعتماد كتب التاريخ بشيء

على اني لم اختر هذا الموضوع الاَّ اجابة لاقتراح بعض الاصدقاء فلبيت الدعوة راجياً ان تقع خدمتي لديهم موقع الاستحسان . ولا التمس اغضاءهم عما يلاقونهُ فيها من الزلل بل اتقدم اليهم ان يوازروني بما عودوني من النصائح والملاحظات . ولا حاجة الى تكرار اقراري بالعجز ولا سيما في فن الروايات التاريخية لوعرة مسالكها وكثرة عقباتها وتطفلي على خوض عبابها فقد طالما اقررت بذلك فيما كتبتهُ قبل الآن ولكني اكرر الرجاء لحضرات الادباء وذوي الفضل من المطالعين أن يمدوني بآرائهم ويتحفوني بارشادهم توصلاً الى كتابة ما تروق لديهم مطالعته لاني انما اكتب لهم ولا غرض لي الا ارتياحهم لما ارجو ان يقوم لديهم مقام بعض الواجب عليَّ نحوهم مما تلذ لهم مطالعته ساعات الفراغ . آملاً ان تكون هذه الرواية اقلَّ نقصاً واقرب الى رضائهم من تلك فاذا تحقق لديَّ ذلك نشطت الى مواصلة الكتابة في هذا الفن وبذلت الجهد حتى تكون الرواية الثالثة اقلَّ خطاء من الاثنتين والله الموفق الى الصواب وهو حسبي ونعم الوكيل

الفصل الاول

﴿ القاهرة ﴾

القاهرة عاصمة الديار المصرية بناها الخلفاء الفاطميون في منتصف القرن الرابع للهجرة في مكان أناخوا فيهِ جمالهم يوم جاؤا لافتتاح الفسطاط عاصمة القطر اذ ذاك · وفي ذلك المكان الآن حي الجمالية والجامع الازهر وما جاورهما من الجوامع القديمة · وما زالت القاهرة منذ بنيت تتسع عمارتها ولا سيما منذ حكمت العائلة المحمدية لعلوية وعلى نوع خاص في عهد الخديوي اسمعيل باشا لانهُ كان مغرماً بفتح الشوارع وتنظيم المدينة وتزيينها فكثرت الشوارع الحديثة وأُنشئت المنازل والقصور خارج المدينة الاصلية فكن لنا بذلك احياء الاسمعيلية والفجالة وشوارع الدواوين والعباسية وشبرا وغيرها · وجميع هذه الشوارع متسعة والاشجار محدقة بها من الجانبين وقد انار الخديوي المشار اليهِ المدينة بالغاز فاصبح ليلها كنهارها وازدادت بهجة ورونقاً واستأنس الناس بالانوار واتساع الشوارع وزخرفة الحدائق والمنازل والقصور فاحبوا الطواف في المدينة في ليالي الصيف فكثرت بسبب ذلك الاماكن العمومية ولا سيما حول حديقة الازبكية التي أصبحت الآن في منتصف المدينة بعد ان كانت خارجها لتكاثر العمارة هناك · وقد بنى الخديوي اسماعيل باشا حول الحديقة سورًا محاطاً بشبك الحديد تحدق بهِ هالةٌ من الانوار الغازية ورتب لها الموسيقى العسكرية تعزف كل مساء بالقرب من بحيرتها المستديرة

فاذا دخلت الحديقة في المساء واتيت الدكة المستديرة المزينة بالانوار الغازيَّة حيث تعزف الموسيقى ترى الناس محدقين بها افواجاً على اختلاف اجناسهم ونزعاتهم ومراتبهم ولغاتهم والوانهم من القوقاسي الابيض الناصع الى الزنجي الاسود الحالك وترى في اختلاف لباسهم من العمامة العربية والطربوش العثماني والقاووق الفارسي والبرنيطة الافرنجية والخمار المغربي والحبرة المصريَّة والازار والبنطلون والقفطان والسراويل وغير ذلك· وقس عليهِ سائر ما يخطر كل من امتزاج الانواع والاشكال مما لا يتفق وجودهُ في غير مصر من الامصار

اما المدينة الاصلية فبعكس كل ذلك اذ لا يزال معظم اسواقها على النمط القديم من الضيق وعدم الانتظام واما حاراتها فلم تنجع فيها وسائل التنظيف مع ما ارادهُ الخديوي من الترتيب وما تحداهُ من التنظيم فهي لا تزال ضيقة الطرق معوجَّة الدروب وكأَن الاقدمين ارادوا بتضييق الطرق استجلاب البرودة بحجب اشعة الشمس عنها واما الخديوي فعوَّض عن ذلك في الشوارع الحديثة بغرس الاشجار التي تظال الطرق وترطب الهواء بما يتصاعد عنها وعن الطرق المرشوشة بالماء من البخار

الفصل الثاني

﴿ شفيق ﴾

ففي سنة ١٨٧٨ كان في شارع العباسية في القاهرة منزل مبني على النمط الحديث كسائر المنازل الحديثة هناك ومن اقلها بهجةً وكبرًا تحدق

بهِ حديقةٌ صغيرة بسيطة والمنزل مشرف على الشارع العمومي المظلل بأشجار اللبخ المغروسة على جانبيه كسائر الشوارع الحديثة

والبيت مؤلف من غرف قليلة مفروشة بالاثاث البسيط غير الثمين ولكنهُ في غاية النظافة والترتيب وفي جملة هذه الغرف غرفة اثمن ما فيها خزانتان ملآنتان كتباً في لغاتٍ مختلفة وفي احد اركانها طاولة عليها بعض الكتب وبجانبها رجل بين الاربعين والخمسين من العمر عليهِ لباس افرنجي وليس على رأسهِ شيءٌ على انهُ لم يكن افرنجي النزعة وكان جالساً على كرسي ساندًا يدهُ الواحدة الى الطاولة وفي يدهِ الاخرى كتاب يطالع فيهِ وليس في الغرفة غيرهُ والباب مغلق عليهِ

اما الرجل فكان قمحي اللون اسود الشعر واسع الجبهة حليق اللحية في شعرهِ شيب وفي وجههِ تجعد وفي عينيهِ ذكاءٌ وفي اسرتهِ عبوس كانهُ ناقمٌ على الدهر الذي قضى عليهِ بالاكتفاء من الدنيا بولدٍ ذكر قد انفق كل حياتهِ في تربيتهِ وتثقيفهِ فضلاً عن انهُ ما انفك منذ سنين كاسف البال مرتبك الافكار منقبض النفس كأَنهُ اصيب بنكبة من نكبات الزمان ولم يكن احدٌ يعلم سبب ذلك الارتباك حتى ولا امرأتهُ مع انها حاولت استطلاع ذلك مرارًا وكان ينكر عليها تارةً ويعدها اخرى

فمر عليها منذ تزوَّجها نحو العشرين سنة وهي حائرةٌ في امرهِ لا يهدأُ لها بال الاَّ بمعرفة سبب ذلك الانقباض

ومما زاد اضطرابها واوجب اندهاشها صندوق صغير مرَّ عليهِ منذ عرفت زوجها من الزمن مُقفلاً وقد تقدمت الى رجلها مرارًا ان يطلعها

على ما فيهِ عبثاً وانما كان يقول لها سيأتي يومٌ تعرفين فيهِ سرَّ جميع هذه الغرائب وتعذرينني على كتمانها عنك ولم يكن هذا الكلام الَّا ليزيد تشوُّقها الى الاطلاع

ولكثرة ما ألحت عليهِ وعدها انهُ يطلعها على ما في الصندوق بشرط ان يكون ذلك مكتوماً عن كل فرد سواهما وانهُ لا يطلعها على شيءٍ فوق ذلك قط ولا يفوه بكلمة واحدة فقبلت ولم تعلم ان اطلاعها على ما في الصندوق بغير ان تعلم اسبابهُ وتفاصيلهُ لما يزيد قلقها واضطرابها

وكان ذلك اليوم يوم الموعد على ان يكون فتح الصندوق في منتصف الليل بعد ان ينام اهل البيت جميعاً وكان ذلك الرجل في تلك الساعة جالساً يفكر في حكاية الصندوق وقلبهُ يرتجف كلما تصوَّر انهُ فتحهُ فاخذ يتلاهى بمطالعة بعض الكتب والجرائد التي كانت امامهُ على الطاولة

فلما كان الغروب انتبه الرجل بغتةً كمن هب من رقاد فنظر الى الساعة فاذا الوقت قد ازف فغمز جرساً امامهُ فحضر خادم اسمر اللون عليه الجلابيَّة والعمامة فقال لهُ الرجل « الم يحضر شفيق بعد» قال كلا يا سيدي لم ارهُ هذا المساء فاضطرب الرجل وسكت هنيهة ثم قال للخادم اذهب يا احمد ادع لي الست قال حاضر فمضى وبعد يسير جاءت الست (امرأتهُ) وكانت اصغر منهُ سناً اما وجهها فكان اكثر طلاقةً ولباسها على الزي التركي وفي يدها مجلة المقتطف العلمية كانت تطالع فيها في غرفتها تلهي بها نفسها عن التشوُّق في انتظار فتح الصندوق

فلما دعيت الى زوجها جاءت مسرعةً والمجلة بيدها فقابلها قائلاً

الم يأْت شفيق بعد يا سعدى فاجابتهُ بلهفة «ألعلهُ ليس عندك فاني لم اره هذا المساء ولكني كنت اظنهُ جاء ودخل حجرتك يطالع الجرائد او يقرأْ شيئاً آخر يا ويلاه اين ذهب الغلام الليلة فانهُ لم يسبق لهُ تأْخير مثل هذا قط كم هي الساعة الآن ٠٠٠ وأخذت تدق يداً بيدٍ فقال هي الساعة السابعة بعد الظهر قالت وميعاد حضورهِ الساعة الخامسة ونصف اي بعد اقفال المدرسة التجهيزيَّة بساعة واحدة فما سبب هذا التأْخير

فلما عاين زوجها اضطرابها ندم على ما اظهرهُ من القلق لديها فاراد تطييب قلبها فقال لا بأْس عليهِ من التأْخير فان المدينة في امان والناس يسيرون ليلهم كنهارهم والشوارع اهلة الى مابعد نصف الليل لا يتعدى احدٌ على احد فلعل شفيقاً كان في رفقةٍ من التلامذة فمروا بحديقة الازبكية ليسمعوا انغام الموسيقى العسكرية او انهم دعوا الى منزل احدهم فلا يضطرب بالك قال ذلك وقلبهُ قلق على الغلام وانما اراد تسكين رعب الوالدة فقالت سعدى لا تعتمد على الظنون يا ابرهيم فان الغلام قد تأَخر ولا يخفى عليك شدة تعلقنا بهِ لانهُ وحيدنا وكل الأمال معلقة بهِ اذ قد قدَّر الله ان لا يكون لنا غلام سواه افيليق بنا ان نهمل امره

فأَجابها بصوت منخفض قائلاً لا خوف على الغلام باذن الله واوكد لك بانك سترينهُ امامك بعد برهة وها اني قد احضرت لهُ عدة جرائد افرنجية ومقالات علمية ليطالعها لان درس المدرسة يدوخ الدماغ

فقالت سعدى وانا ايضاً قد عولت ان اطلعهُ على مقالةٍ في هذهِ المجلة شاقني معناها لانها تبحث عن مآثر العرب في الاندلس ولكني اصبحت قلقة

لتاخرهِ . فقال لها لا تجزعي انهُ في حراسة الله

فسكنت سعدى مراعاة لقول زوجها واحتراماً لرأيهِ وعادت الى حجرتها واسندت نفسها الى نافذة مشرفة على الشارع ولبثت تنتظر مجيء ولدها وهي على مثل الجمر وقد نسيت اشتياقها الى استطلاع ما في الصندوق . اما الرجل فلم يعد يستطيع صبرًا فأخذ يقلب كتاباً امامهُ ليشغل نفسهُ بهِ ريثما يأتي ابنهُ وقد اظلمت الدنيا في عينيهِ لان شفيقاً لم يتأخر عمرهُ الى مثل تلك الساعة فدقت الساعة ثماني دقات فازدادت دقات قلبهِ وامر بالخادم فحضر فقال لهُ اتعرف بيت عزيز افندي صديق شفيق قال نعم يا سيدي هو ذلك البناء الكبير في شارع عابدين فقال لهُ سر حالاً وابحث عن شفيق هناك فاذا وجدتهُ قل لهُ ان والديك ينتظرانك للعشاء وأت بهِ معك قال « حاضر » ومضى . ولم يكد يخرج حتى عادت سعدى الى غرفة زوجها تسألهُ عن شفيق فأخبرها بما فعل ثم عادت الى غرفتها ولبث الاثنان ينتظران عود الخادم حتى عاد وليس معهُ احد

فبادرهُ ابرهيم بالسؤال عن شفيق فقال قد ذهبت الى بيت عزيز افندي فاذا بهِ لم يجئ البيت حتى الآن الّا انهم ليسوا قلقين لذلك لانها ليست اول ليلة باتها خارجاً . فقال ابرهيم هل انت متحقق ذلك قال نعم يا سيدي وانا اعلم ان سيدي شفيقاً لا يألف الجلوس في القهاوي ولذلك لم افتش عنهُ هناك . فبهت ابرهيم وهو في غاية الاضطراب ولكنهُ كظم ما بهِ خوفاً على امرأتهِ من سلطان العواطف لانها كانت شديدة التعلق بولدها هذا لانهُ وحيدها ولم يكن ابوهُ اقلّ تعلقاً بهِ منها الّا ان الرجال

اقوى على احتمال الاهوال من النساء ولذلك كان ابرهيم واجساً على امرأته

وفيما هو واقف يخاطب الخادم جاءت امرأتهُ مسرعة ولما لم ترَ شفيقاً صاحت اين شفيق يا احمد قال يا سيدتي لم اجدهُ في بيت عزيز افندي وقد سألت الخدم عنهُ فقالوا انهُ لم يجئ ثم بادرها زوجها قائلاً لا يلبث ان يأتي لا يضطرب قلبك يا سعدى وسنصبر قليلاً فان لم يجئ اذهب انا للتفتيش عنهُ

فضربت سعدى كفاً بكفّ ووقفت صامتة وقد ملأت الدموع عينيها واحبت التجلد فلم تستطع فنظرت الى زوجها فاذا هو غارق في بحار الهواجس ثم التفت فاذا هي تنظر اليهِ فتبسمّ محاولاً اخفاء عواطفهُ وقال سامح الله شفيقاً اظنهُ في النزهة لا يبالي بقلب الوالدين ولقد صدق من قال قلبي على ولدي وقلب ولدي على الحجر ومتى جاء لا بد لي من ان اعنفهُ لكيلا يعود ثانية الى مثل هذا

الفصل الثالث

﴿ التفتيش عن شفيق ﴾

اما سعدى فلم تعد تستطيع الجلوس فذهبت الى النافذة ووقفت مستطلة تنظر الى الشارع المضيء بالغاز وعلى جانبيهِ الاشجار وما زالا كذلك حتى دقت الساعة التاسعة فهب الرجل ولبس طربوشهُ ثم قال لامرأتهِ ها اني ذاهب للتفتيش عن شفيق ولا اغيب عنك

اكثر من ساعة وارجع بهِ ان شاءَ الله ثم اخذ عصاهُ بيدهِ وغادر امرأتهُ على مثل جمر الغضا٠اما هي فبقيت مستطلة من النافذة لا تحوّل نظرها عن الشارع لحظة حتى دقت الساعة العاشرة ولمَّا لم يرجع احد زاد خفقان قلبها واخذت ركبتاها ترتجفان وهي الى تلك الساعة لم تذق طعاماً وكانت تفكر تارةً بولدها وطورًا بزوجها وطورًا بذلك الصندوق حتى دقت الساعة الحادية عشرة فاظلمت الدنيا في عينيها فجلست الى طاولة مستلقية رأسها بيدها على تلك الطاولة واخذت تندب سوءَ حظها

وفيما هي في ذلك سمعت طارقاً يطرق باب الحجرة طرقاً خفيفاً فهمت الى الباب بعد ان مسحت دموعها فاذا بالخادم فسألتهُ عن امرهِ فقال يا سيدتي اذا اذنتِ لي اسير وأتيك بسيدي شفيق فاجفلت قائلة وهل تعلم مكانهُ قال نعم لاني اذكر قولاً قالهُ مرةً لعزيز افندي فترجح لدي معرفة مكانهِ الآن ٠ فقالت بلهفة واين تظن مكانهُ قال اظنهُ ذهب مع صديقهِ عزيز ٠٠٠ (وحرق اسنانه) الى احتفال فتح الخليج لاني سمعت عزيزًا منذ بضعة ايام يحبب اليهِ الذهاب الى هناك لمشاهدة الانوار واستماع الانغام ورأيت سيدي يتمنع قائلاً انهُ لا يعتد بهذه المناظر وان المطالعة لأشهى لديهِ من كل الاحتفالات وحضرتك تعرفين دهاء هذا الشاب وسلامة نية سيدي شفيق واخلاصهُ لاصدقائهِ

فقالت سعدى وقد لاحت على وجهها امارات البشر وما الذي خافهُ من ذهابهِ الى ذلك الاحتفال فكيف انهُ لم يخبرنا ولا اظن والدهُ كان يمنعهُ من ذلك ٠ فقال احمد لا يا سيدتي بل كان يمنعهُ لان هذا الاحتفال

وامثالهُ ليست هنا لمجرّد الاحتفال المقصود وانما يحدث احياناً امور مغايرة للآداب لا يرضاها سيدي الكبير ولذلك قلت انهُ كان يمنعهُ من الذهاب

قالت سعدى كيف كان الحال فان المراد ان تأتي بشفيق ثم تنهدت وقالت لهُ سر وفق الله مسعاك

وكان احمد هذا في الاصل من انفار الجهادية وقد تقلب مع الدهر وعرف دخائل الناس وكان يظن في عزيز صديق شفيق سوءًا ولا يحب صداقتهُ لسيدهِ ولكنهُ لم يكن لهُ ان يشور عليهِ في ذلك فكان رصدًا وعيناً عليهما لانهُ كان يحب سيدهُ وابن سيدهِ محبة عظيمة وكان هماماً غيورًا فلما اذنت لهُ سيدتهُ بالذهاب خرج قاصدًا فم الخليج ومكثت سعدى في البيت وهي بين وجل وريب حتى كاد يغمى عليها فنادت جارتها للاستئناس بها واخبرتها بغياب شفيق فشاركتها باللهف وانتها ببعض المنعشات ولبثت سعدى تنتظر باب الله والفتح

الفصل الرابع

﴿ شفيق وعزيز ﴾

اما شفيق فكان شاباً في التاسعة عشرة من العمر طويل القامة معتدلها قمحي اللون ذا عينين سوداوين تحت حاجبين متصلين صغير الفم واسع الجبهة اسود الشعر خفيف العارضين وكان قد ربي في بيت ابيهِ تربية حسنة جدًا فشبَّ كريم العنصر طيب السريرة لا يعرف ابواب المكر

ولا اساليب الناس في الخداع وكان مع ذلك ذكياً نبيهاً حاذقاً فادخله والده المدرسة التجهيزية الاميرية ليتم دروسه على نفقة الحكومة لانه لم يكن في سعة كبيرة من العيش على نية ان يعلمه مهنة الطب او المحاماة لما رأى فيه من الذكاء

وكان لباسه في غاية البساطة وعلى الزيّ المعتاد من السترة والبنطلون والطربوش العزيزي وكان في وجهه على صغر سنه مهابة كبار الرجال فلما يتجرأ اصدقاؤه على ممازحته ولو كانوا اكبر منه سناً فكان لذلك كثير الهيبة لدى كل معارفه وكان على صغر سنه يخاطب كلاً حسب مقامه وعلى مقتضى المقام وقلما كنت تراه في مجلس اولاد او معرض لهو ولذلك كان اساتذة المدرسة وتلامذتها يحبونه ويعتبرونه كثيراً وكان لفرط ذكائه لا يعاني تعباً في الدرس ولم يكن ابناء صفه يطالعون دروسهم الا اذا جاء شفيق فيشرح لهم الدرس كأنهم تلامذة وهو استاذهم

ولم يكن احد منهم يحسده لكثرة ما كانوا يحبونه الا عزيزاً فانه كان رفيقاً له في الدروس وكان كلاهما في السنة الاخيرة من سني المدرسة

اما عزيز فكان مضاداً لشفيق في اخلاقه ويحسده لما رأى من منزلته الرفيعة لدى كل من يعرفه وكان على جانب عظيم من الثروة التي آلت اليه بالارث من والده وكان قصير القامة كبير الانف شديد سمرة البشرة محباً للتفرنج فلا يخرج الى الشوارع الا بالنظارات المسترسل خيطها من جانب عينيه على صدره على غير قصر في نظره وكان يلبس طربوشه مائلاً فوق حاجبيه تيهاً وعجباً وحول عنقه قبة

(ياقه) تزاحم احناكهُ حتى لم يكن يستطيع ادارة رأسهِ ذات اليمين او ذات اليسار الاَّ بصعوبة واذا وقف يقف منتصباً وان شئت قل متطاولاً في يده اليمنى عصا غليظة معكوفة الرأس وفي اليسرى سلسلة ساعتهِ الذهبية الغليظة يلاعب اصابعهُ بها وفي فمهِ السيكارة الافرنجية الضخمة · ومن شر اخلاقه الادعاء والحسد والرياء وحب الرفعة عن غير استحقاق

ولم يكن شفيق يود مرافقتهُ لانهُ يكره كلما تقدم من اخلاقه وانما جمعتهُ بهِ جامعة المدرسة وكان عزيز يعرف حقيقة اطوار صديقهِ فكان يتظاهر امامهُ بما يرضيهِ استبقاءً لصداقتهِ لانهُ كان يحتاج اليهِ باشياء كثيرة اخصها مراجعة الدروس معاً ولا يخفى ايضاً ان الغنى والترف يكسبان المرءَ مظهرًا يقربهُ من رضاء الجمهور

وكان من عادة الخديوي اسمعيل باشا ان يختار أَنجب تلامذة هذه المدرسة فيبعثهم الى اوروبا لدرس الطب والحقوق او ما شاكل وكان جميع التلامذة تلك السنة يتوقعون ذلك الفخر لشفيق لامتيازهِ عنهم في كل شيءٍ كما تقدم · اما عزيز فكان كلما تصوَّر ذلك يكاد يتميز غيظاً ليس رغبة في العلم وانما حباً للفخر فصعب عليهِ ان يكون غنياً ويكون شفيق اكثر اعتبارًا منهُ في عيون الناس وكان لا ينفك باحثاً عن وسيلة تمكنهُ من حط شفيق في عيون الاساتذة ادباً وعلماً وما زال حتى كانت اواخر السنة المدرسية والتلامذة يهتمون بمراجعة الدروس فلاح لهُ ان يسعى الى الهاء شفيق عن دروسهِ وايقاعهِ بما يعاب بهِ واتفق احتفال فتح الخليج في ذلك الاثناء فاخذ قبل يوم الاحتفال ببضعة ايام يحسّن

لهُ حضوره وربما كان لهُ بذلك غرض آخر . ولعلمهِ انهُ يريد استئذان ابيهِ في الامر قال لهُ دع هذا اليَّ فاني ابعث لجناب والدك خبرًا مع المجري يوم عزمنا على المسير . وكان في نيتهِ ان يهيج غضب والدهِ عليهِ ايضاً فعند انقضاء وقت المدرسة في ذلك اليوم ألحَّ عزيز على شفيق ان يسير معهُ للتنزه في الجزيرة حتى يمسي المساء فيأتيا الى مكان الاحتفال عند فم الخليج فاعتذر بانهُ لا بد لهُ من استئذان والدهِ فأكد لهُ انهُ سيبعث خادمهُ ليخبر والدهُ ووالدتهُ لئلاَّ يقلقا لغيابهِ وكانت عربة عزيز تنتظرهما عند باب المدرسة وامامها المجري بلباسهِ القصبي فركبا وسارا

الفصل الخامس

فدوى

فقضيا ساعة الغروب وما بعدها في الجزيرة بين ذهاب واياب واحاديث مختلفة حتى كادت الجزيرة تخلو من المارة والساقة

وفيما كانت العربة سائرة بهما في شارع الجزيرة المستدير المظلل باشجار اللبخ المنعقد فوق الشارع مثل عقد البناء وصلت الى الجبلاية فلاحت منها التفاتة فرأيا عند مدخل ذلك التل الاصطناعي عربة مقفلة من عربات حريم اصحاب المناصب من الاتراك امامها فرسان من الخيل الكبيرة الروسية الاصل وكان الظلام قد سدل نقابه والعربة لم يضيء قنديلها . وكان السكوت مستولياً على ذلك التل لا يسمع فيهِ

الاّ حفيف شجر السرو المحدق بهِ وقرع الارض باقدام الجوادين المرة بعد الاخرى ولم يشاهدا احدًا في العربة ولا بالقرب منها وباب الجبلاية يستطرق الى دهاليز اصطناعية في ذلك التل٠ فقال شفيق لرفيقهِ ما رأيك بهذه المركبة فتبسم عزيز وهز رأسهُ ولم يبدِ جواباً فعاودهُ شفيق السؤال بلهفة فقال لهُ ان لهذه العربة حكاية سأقصها عليك عند ما نبعد من هذا المكان فاشتاق شفيق الى استطلاع الخبر فلما بعدا يسيرًا سألهُ عن القصة فقال انها عربة احد كبار الاغراب واصلهُ من جهات الموره وقد جاء والدهُ هذه الديار برفقة ابرهيم باشا عند عودهِ من محاربة تلك الجزيرة فاقام في مصر وتزوَّج فيها فولد لهُ ابنهُ هذا وعاش تحت كنف الحكومة وترقى الى رتبة باشا واكتسب مالاً طائلاً ولهُ ابنة وحيدة بارعة في الجمال تركب هذه العربة للنزهة غالب الاحيان٠ فاحبها احد شبان العاصمة وهو صديق لي ولما طلبها من والدها لم يجب طلبهُ بناءً على ان الابنة لم تحب اخلاقه فاضمر لها السوء٠ وقد اخبرني في صباح هذا اليوم انهُ تواطأَ مع سائق العربة ان يأْتي بها متأَخرًا الى هذا المكان للانتقام منها٠ ولا اخفي عليك انها اخطأَت في رفضهِ لانهُ شاب جميل كريم راتبهُ ثلاثون جنيهاً ينفقها كلها على اصدقائهِ فاذا حضرهم في قهوة او معمل جعة (بيرا) لا يدع احدًا منهم يدفع بارةً وهو لطيف المعشر للغاية يضحك الثكلى للطف حديثهِ ومجونه

فاشتعل شفيق غيظاً لتلك القصة والتفت الى صديقهِ قائلاً هل هو الآن في ذلك المكان يريد بالفتاة سوءًا يا للدناءة ثم امر السائق ان

يحوّل الاعنة نحو الجبلاية فاراد عزيز منعهُ بقولهِ ما لنا وللتداخل في اعمال الناس فلم يصغَ اليهِ فاقتربا من الجبلاية باسرع من لمح البصر فسمعا صوتاً لطيفاً مرتجفاً يتخلل حفيف الاشجار يقول «خف من الله يا رجل أليس عندك شرف» فنزل شفيق من العربة حالاً وطلب جهة الصوت داخل ذلك التل والمكان مظلم فانار عوداً كان في جيبهِ فتراآى لهُ في احد الدهاليز المظلمة المعوجة شبحان احدهما امرأة والآخر رجل ماثم اما الفتاة فلما رأت النور نادت باعلى صوتها «انقذني من هذا الخائن بحرمة الشرف والشهامة» فلم تكن لحظة حتى كان شفيق بينهما وفي يدهِ عصا ضرب بها الرجل ضربة اخطأتهُ لانهُ طلب الفرار مسرعاً فناداهُ بقلب لا يهاب الموت «الى اين تفر ايها النذل الذميم» فلم يسمع لهُ صوتاً ولا رآهُ لشدة الظلام في تلك المغارة ثم سمع وقع جواد فعلم انهُ طلب الفرار . أما تلك الفتاة فنادت بتأثر عميق لا عدمت الشهامة رجالها من ارسلك ايها الرجل السماوي . أين انت . وكان شفيق قد رجع ليأتي بمصباح من العربة لان الظلام كان مدلهماً هناك فلم يفهم مقالها فلما عاد بالمصباح رأى فتاة ترتعد خوفاً وهي في زي نساء الاتراك وعلى رأسها اللثام (اليشمك) تحتهُ وجه كانهُ البدر بهاءً وعينان سوداوان براقتان قد ملأتهما دموع الخجل والوجل ووجنتان قد كللهما الاصفرار فامسكت يدهُ بيدٍ كادت تذوب لطفاً قائلةً لقد انقذتني من الموت والعار جزاك الله عني خيراً اما شفيق فقد خفق قلبهُ خفوقاً لم يكن يعرفهُ قبلاً وغلب عليهِ الحياء حتى تلعثم لسانهُ عن الكلام ولكنهُ تجلد وقال لها لا بأس عليك ايتها السيدة

المصونة ولا عاش من اراد بك سوءا هلمّ الى عربتك لنسير بك آمنةً الى منزلك

اما هي فلم تنفك ممسكةً يدهُ ضاغطةً عليها معاً كانت فيهِ من الرعدة والارتجاف مطرقةً خجلاً لا تستطيع رفع نظرها اليهِ فلما وصلا العربة لم يجدا سائقها لانهُ كان قد خاف تبعة ما جنته يداهُ واركن الى الفرار فادخلها الى العربة ونادى سائق عربة عزيز واجبرهُ ان ينير مصابيح تلك المركبة ويسوقها الى حيث تأمرهُ الفتاة ثم استطل من النافذة وسألها اذا كانت في خير او تحتاج الى شيء فاشارت بعينيها وملامح وجهها انها في غاية الراحة فعاد الى عربة عزيز فاذا بصديقهِ لا يزال في مكانهِ كأنهُ قطعة من خشب ولكنهُ حالما رآهُ اظهر اهتماماً ونزل من العربة ويدهُ الواحدة على نظارتهِ لئلا تسقط وفي الاخرى سيكارتهُ المعهودة وقال بلهفة هل بك من بأس يا عزيزي شفيق فقد اشغلت بالي ما ذا فعلت والى اين ذهبت فقد كان في عزمي ان انزل لمساعدتك لكني اعلم انك شهم باسل لا تحتاج الى مثلي فبقيت بانتظارك هنا فأين ذلك الخائن. فنظر شفيق اليهِ نظرة الاحتقار ولم يبدِ جواباً فقال لهُ اين سائق عربتنا فقال قد ذهب لسوق العربة الثانية وانا اسوق هذه فضحك عزيز ضحكة الخجل وقال هل لك معرفة بسوق العربات يا شفيق فاجاب متبسماً نعم يا عزيزي اما قيل « ألبس لكل حالة لبوسها » ولم يزد. فسارت عربة الفتاة اولاً ثم تبعتها الاخرى وما زالوا سائرين وقد استولى عليهم السكوت حتى تجاوزوا جسر قصر النيل (الكبري) فوقفت العربة

الامامية بغتةً فاضطرب شفيق لذلك ونزل يبحث عن الداعي لوقوفها وكان ذلك في شارع مضيء بالانوار الغازية التي مزَّقت بقوَّة نورها حجاب الظلام عن تلك الاماكن فاسرع شفيق حتى اقترب من العربة واستطل من نافذتها يبحث بنظرهِ ليدرك السبب فوجد الفتاة جالسة وقد هدأ روعها من الاضطراب الذي اعتراها في الجبلاية وابرقت اسرتها واشرق وجهها فلما رأتهُ امسكت بيدهِ ضاغطة عليها وقالت لهُ « والخجل يحول بينها وبين التأمل في وجههِ » « اعلم يا سيدي ان حياتي وشرفي هذه الليلة كنت خسرتهما لولا شهامتك وشرف مباديك فانا مديونة لك بهما » فخجل شفيق ولم يجب وقد توردت وجنتاهُ واندى جبينهُ فقالت لهُ هل لك ان تخبرني عن اسمك لاذكر امام والدي ما ابديت نحوي من الشهامة والفضل

فاجاب شفيق بصوت رقيق تتخللهُ شعائر الغرام ونغمة الحب والله اعلم بما كان لهُ من التأثير الخفي على قلب تلك العذراء . « اني ايتها السيدة المصونة لم افعل الاَّ ما اوجبتهُ عليَّ الانسانية فلست انتظر مكافأةً سوى ان لا تذكري هذا الامر امام احدٍ من العالم صيانةً لشرفك حتى ولا امام والدك لئلا يوقع فيك شبهة او مظنَّة»

فبادرتهُ . معاذ الله ان اقصد بكلامي مكافأتك لانهُ امرٌ لو اردتهُ ما استطعت القيام بهِ ولكن ذكر الجميل فرض على الانسان واي فضل اعظم من الانقاذ من العار والموت . فقال . وقد غلب عليهِ الخجل حتى كاد يمتنع عليهِ الكلام « اني لم افعل ما يستحق هذا الثناء وانما عواطفي

قادتني بامر من الله لأنقذ ملاكاً جسمانياً من التلطخ بحمأة العار وما ذلك الاّ لحسن حظي

قالت وهل من عبارة تفي باداء الشكر لتلك العواطف الشريفة واما حسن الحظ فهو لي لاني ربحت بك حياتي او بالاحرى شرفي الذي هو اعزّ من حياتي

وفيما هما باثناء الحديث سمعا عزيزًا ينادي « ما بالك ياشفيق لقد اطلت بنا الوقوف وقد حان ميقات العشاء فهياً بنا »

فقالت الفتاة ومن ذا الذي يتكلم

اجابها شفيق صديق لي رافقته للنزهة على ان نسير معاً الى احتفال فتح الخليج هذه الليلة

قالت احسُّ اني ازعجتكما فانقدم اليك ان تجيبني على سؤالين ثم تعود الى صديقك

قال مري ما بدا لك

قالت اولاً ارغب اليك ان تخبرني عن اسمك ان لم يكن لاعلام والدي فلأحفظه عندي ذكرًا لشهامتك ومروءتك اللتين يعزُّ وجودهما في شبان هذه الايام . ثانياً ان تخبرني عن اسم ذلك الخائن اذا كنت قد عرفته من تحت اللثام

قال اما سؤالك الاول فقد يكفيني فخرًا حفظ اسمي عندك ونعمّ ما طلبتِ على اني اود ان لا تطلعي احدًا على الحكاية واسمي « شفيق » . اما الثاني فأتقدّم اليك ان تسدلي عليهِ سترًا اذ لا يليق بشريف مباديك

وسامي ادبك ان تتنقمي من اللئام فاحسبيها هفوة من هفوات الشباب على اني لا اتقاعد عند الاقتضاء عن استطلاع اسم الرجل وافادتك فأذني لي قبل ان اودعك ان اتطفل بسؤال اطلب اليك الافادة عنهُ ولكني اخشى ان يثقل عليك

قالت مر اني رهينة امرك

قال هل لك ان تقولي لي ما الاسم الكريم

قالت اسم الداعية فدوى

قال عاشت الاسماء وفدتك روحي ايها الملاك البشري ثم ضغط على يدها مودعاً فاجابتهُ بالمثل فبارحها عائدًا الى عربته وهو غارق في تيار الغرام وقلبهُ يخفق وركبتاهُ ترتجفان ولسان حالهِ يقول

ودعتهُ وبودّي لو يودعني صفو الحياة واني لا اودعهُ

فلما وصل كان رفيقهُ قد ملَّ الانتظار وكاد يتميز غيظًا وقد اضطرم فؤادهُ حسدًا لكنهُ اخفى مافي سرّهِ وابدى الابتسام وكان عزيز يعرف فدوى منذ اشهر وقد مال اليها لكنهُ لم يجسر على طلبها خوفاً من الفشل لانهُ رأى ما ألمَّ بسواهُ لعلمهِ انها لا تنظر الى الغنى ولاحسن الزيّ وتحتقر كل غرٍّ متكبر ولو ملك ملك قارون . وكان عزيز لسفالة طباعهِ يعدّ كرم طباع تلك العذراء وانفتها كبرًا وتيهاً فسرَّهُ اذلالها بواسطة احد السفلة لعلهُ يستطيع بعد ذلك نيلها فلما حبطت مساعيه ورأى ما صنعهُ شفيق نحوها ايقن انها احبتهُ فخاف ان يسرع في السعي الى نيلها فتكون البلية عليهِ اعظم فلاح لهُ ان يوطد امل شفيق ويجعل الامر في يدهِ هو

لعلهُ يقوى على تفريقهما فينال مرغوبهُ

فبعد ان جرت العربتان قال عزيز انك يا شفيق لقد صنعت مع هذه الفتاة صنيعاً يجب عليها ان تكون مديونة لك بهِ مدى الدهر· اما شفيق فكان غارقاً في بحار تأملهِ ولم يفقه لخطاب رفيقهِ· فأدرك عزيز منهُ ذلك فازداد حسدًا ثم التفت اليهِ متاطفاً وقال لهُ وهو يظهر نحوه المحبة ان مثل هذه الفتاة الطاهرة لا تليق الاَّ بك· فخفق قلب شفيق ولم يستطع بعد ذلك السكوت لكنهُ هدَّأَ روعهُ قدر طاقتهِ وخفض من انفعاله وقال اين انا من هذه البغية فان بيني وبينها ابعادًا لان اباها لا يتنازل الى اجابة مثلي وفضلاً عن ذلك فاني لست في حال تؤهلني من الاقتران

فقال عزيز اما ابوها فعليَّ ارضاؤهُ لاننا في عصر عزَّت فيهِ الشبان وهانت فيهِ البنات واني واثق بانك لو طلبت ايَّا كانت من بنات الاغنياء تنالها وتنال معها مالاً طائلاً ولم يعد احد من المتمدنين يتزوَّج بابنة قبل معرفة مقدار ثروتها وهذه عادة افرنجية حديثة النشأة في بلادنا اما من حيث اهليتك فالذين بعمرك لا يمنعهم مانع عن الزواج

فاذا شئت فاني اسير الى ابيها واكاشفهُ بما ابديتهُ نحو ابنتهِ من الشهامة ولا اشك بانهُ يرغب في مصاهرتك فقاطعهُ شفيق قائلاً ارجو ان تكتم كلما عرفتهُ عن هذه الفتاة صيانةً لها وحفظاً لشرفها وشرفي فأكون لك شاكرًا واما من حيث الاهلية فأنت اليق مني لثرائك وسموّ حسبك ونسبك

وفيما هما في الحديث وقفت عربة الفتاة أمام باب حديقة تعطر تلك الانحاء بشذا رياحينها وعلى جدار الحديقة الى جهة الشارع يعرش الورد والنسرين والاقحوان وكان منظر الحديقة من الخارج بغاية الجمال وفي وسطها قصرٌ بديع الهندسة مرتفع البنيان يظهر للرائي اقتدار صاحبه وكثرة غناه

فعلم شفيق انهُ منزلها فنادى سائق العربة ان يأتي الى عربتهِ بعد دخول الفتاة الى بيتها فانزلها وعاد فساق العربة بهما الى جهة حديقة الازبكية حيثما ترجلا وذهبا الى حانوتٍ تناولا فيهِ العشاء ثم دخلا الى الحديقة واخذا يتمشيان حول بركتها كل ذلك وشفيق غارق في بحارٍ من الهواجس وعزيز يراقب حركاتهِ وسكناته وهو يكاد يتمزق غيظاً وحسدًا وقد نسي حسدهُ لهُ على دروسهِ ومنزلتهِ بين الأقران

فأخذ يفكر في شرك يوقع فيهِ شفيقاً ويجعل لنفسهِ الحق في الصنع الجميل الذي حماتهُ الفتاة لعلهُ يستطيع بهِ التوصل اليها

وما زالا يخطران حتى مرَّا بقهوة فيها القينات (العوالم) يغنين بالحان الخلاعة فوقف عزيز وأوقف شفيقاً وهو لا يدري انهُ فعل لتشتت افكاره وهذه اول مرَّة طرق الحب قلبه فوجده خالياً فتمكن

فامسك عزيز بيدهِ ودخل بهِ تلك القهوة وجلسا امام مائدة ثم امر صاحب القهوة فاتاها باقداح من الكنياك وشفيق لم يفطن الى شيءٍ وقد تملك فؤادهُ الغرام فكان حاضرًا بصورة الغائب لان مجموع حواسه تائهة في جمال فدوى وكمالها واذ هو على تلك الحال أخذ عزيز قدحاً

وأعطاه ليشرب فانتبه بغتة كأنهُ هبَّ من رقادٍ عميق والتفت الى ما حولهُ فاذا بالناس جماعات ووحداناً يشربون ويطربون ويقهقهون. يترنح بعضهم طرباً لصوت الغناء وآخر ينادي بأعلى صوتهِ «آه. طيب. كان يا ستي» وآخرون يصافحون الاقداح ويشربون بعضهم نخب بعض فتملأُ ضوضاؤهم كل تلك الحديقة

فنظر شفيق الى صديقهِ مندهشاً وقال لهُ أين نحن يا عزيز. قال نحن في محل طرب وانبساط خذ هذه الكاس واشربها. فأجفل شفيق عند لمس الكاس اجفاله من العقرب ونهض معتذرًا انهُ لا يرتاح الى مثل هذا الاجتماع

فتبسم عزيز ونظر اليهِ نظر الاحتقار قائلاً ألعلك لا تزال صبياً كأولاد المكاتب تخاف كاس المدام خذ اشربها يا صاح فان فيها شفاءٌ للناس

فقال شفيق اعذرني لاني لم اعتد شربها واخشى ضرَّها لئلا تدور في رأسي وكلا الامرين صعب فهيَّا بنا من هذا المكان

فضحك عزيز حتى كاد يستلقي ثم نادى مخاطباً احدى القينات من وراء الحجاب «اسمعي يا ست فايقة قال هو خائف من هذه الكاس» فاغتاظ شفيق وغلبت عليه مباديه فنهض وارتدَّ عائدًا من حيث أتى فتبعهُ عزيز يريد اقناعه في مجاراته فلم يفعل فلما رأى منهُ الاصرار على عدم الرجوع تحول عن عزمهِ ورافقهُ حتى خرجا من الحديقة وشرع يخاطبه بما يقوم مقام العذر لديهِ

الفصل السادس

﴿ التفرنج الحديث ﴾

فخرجا من باب الحديقة القبلي فاقبلا على الملهى (الاوبرا) فوقف عزيز ونظر الى ساعته وقال ان الساعة لم تتجاوز التاسعة واحتفال فتح الخليج لا يكون على أتقنه الاّ نحو الحادية عشرة فلنقض هاتين الساعتين في هذا الملهى فانهُ من اجمل الملاهي والتشخيص فيهِ الليلة باللغة الفرنسوية

وكان شفيق لم يشاهد زمانه تشخيص الروايات لا في هذا الملهى ولا في غيره فقال لصاحبهِ اني أُحسن فهم اللغة الفرنسوية ولكني لا ارتاح الى حديثها كالعربية فضحك منهُ حتى فحص الارض برجليه ثم قال وهو يعدل وضع نظاراته يا للعجب منك يا صاح فاني لم أعرف لك مراساً أَراك من جهة شاباً ذكياً عاقلاً ومن جهة اخرى (اسمح لي ان اقول لك) مغفلاً . ايليق بك ونحن في عصر التمدن ان تقول مثل هذا القول واعجب لقولك انك لا ترتاح الى التكلم في اللغة الفرنساوية وجميع اصدقائنا المتمدنين لا يتكلمون الاّ بها حتى انهم اهملوا اللغة العربية لخشونتها وصعوبة التلفظ بها فلا يتكلم بها الآن الاّ البسطاء الذين لم يلجوا المدارس

فبهت شفيق لخطابهِ ونظر اليهِ نظرة مملوءة من الرزانة والكمال متبسماً تبسماً خفيفاً وقال (مسنداً يده الى قائمة القنديل الغازي أمام باب

الملهى) اني لاعجب من رسوخ ذلك في اعتقادك فكأني بك تحسب التمسك بالاخلاق الشرقية حطة لمقامك حتى انكرت اللغة التي ربيت فيها وصرت تفضل الرطانة عليها زاعماً أنهـا لغة عامة الناس واسافل السوقة فما معنى مخاطبتك رجلاً عربياً بلغة اعجمية الا التفنن بمبتدعاتك الفرنجية المؤدية الى سوء المصير · ارني واحداً ممن تتقلدهم من الفرنجة ولو مهما اتقن العربية يخاطب ابن لغته بها فكيف تسير على خطواتهم الا فيما يوافق مصلحة بلادك منها

فأنت مقرٌّ بصنيعك هذا ان احط الناس في عينيك انما هم والداك وسائر اعمامك واخوالك وغيرهم من ذوي قرباك واصدقائك لانهم لا يعرفون الرطانة ولا يهملون لغتهم

فضحك عزيز ضحكة يمازجها الخجل وقال ان قولك لأشبهُ بما نسمعهُ من عجائز بلادنا لانهم لم يخالطوا الفرنجة ولا تعلموا التمدن ولكن ما لنا ولهذا الجدال هل تريد ان تدخل بنا الملهى ام لا

فقال شفيق اما اذا كان لمشاهدة التمثيل فاني لا اتمناهُ الَّا مراعاةً لارادتك · فقال عزيز اذا كنت لا ترتاح الى التمثيل فانك تسرُّ بمشاهدة معدات هذا الملهى فهيَّا بنا

الفصل السابع

﴿ الاوبرا الخديوية ﴾

فابتاعا رقعة من مبيع الرقع خارج الملهى ولما دخلا اندهش شفيق لازدحام الاقدام ولما هنالك من الاتقان والترتيب لانهُ رأى السلالم مكسوّةً بالمخمل الحريري والجدران بالمرايا المذهبة الجوانب الكبيرة الحجم. فلما دخل ايوان المرسح شاهد في سقفه ثريّاً (نجفة) بمئات من الشموع المنيرة بالغاز فضلاً عن الانوار الغازية في كل من الخلوات (اللوجات) ومن تلك الخلوات خلوة خاصة بالخديوي مفروشة باحسن ما يكون من الاثاث على ان الخلوات بوجه عام مكسوّةٌ جدرانها بالمرايا الجميلة المذهبة. فانبهر شفيق لتلك المشاهد غير انها لم تكن لتشغلهُ الاّ يسيرًا لانهُ كان كلما شاهد فتاةً في لباسٍ تركي يختلج قلبهُ ويعلو وجههُ الاحمرار وكان يحاول اخفاء ذلك جهدهِ فلم يقدر

اما عزيز فما انفك مفكرًا في امر فدوى والاقتران بها والايقاع بشفيق وكان يراقب شفيقاً وحركاتهِ ليستطلع عواطفهُ

فلما رآهُ مفكرًا بادرهُ قائلاً بماذا تفكر يا عزيزي. قال (وهو يخفي ما في ضميره) اني افكر في هذا الملهى البديع وما اقتضى لبنائهِ وفرشهِ من الزمن والمال فقال (وقد ادرك ما يحاول اخفاءهُ) ألا تعجب اذا اخبرتك ان افندينا اسمعيل باشا بناهُ وفرشهُ في خمسة اشهر

فتعجب شفيق وقال انهُ بالحقيقة لامر غريب ولكن ما الذي حملهُ

على هذه السرعة . قال حمله على ذلك قدوم ملوك اوروبا لحضور الاحتفال الذي اعدّهُ سموُّهُ لفتح قنال السويس فبنى هذا الملهى اتماماً لدواعي الاحتفاء بهم وقد دخل فيهِ بسبب ذلك نفقات طائلة . ثم رُفع ستار المرسح فسكتنا لمشاهدة الالعاب اما عزيز فجعل ديدنهُ استراق النظر الى خلوات السيدات بالمنظار لعلهُ يلمح معصم احداهنَّ او وجهها من وراء الحجاب

اما شفيق فكان يود انشغال رفيقهِ باي شيء كان ليعود هو الى التأمل بما وقع فيهِ من الحب ولم يكن عمرهُ يعلم معنى الوجد فلحظ اخيرًا من صديقهِ النظر بمنظارهِ الى احدى الخلوات والتبسم تبسمًا يدلُّ على ان وراءهُ شيئاً مع ما يخامر تبسمهِ من ظواهر الخلاعة فخشي شفيق ان يهزأ الحضور برفيقهِ لما يبديهِ من ضروب الخلاعة فكاد يتميز غيظاً وقد علت وجههُ حمرة الخجل فنظر اليهِ نظرة اللطف والوداعة قائلاً « علامَ تضحك يا عزيزي » قال وامارات النزق والخفة تبدو على وجههِ اني اشاهد من وراء هذا الحجاب معصمًا صيغ من بلور وكأني بهِ لو لم يمسك بالاساور لسال من الاكمام سيل الجداول وأرى تلك اليد اشارت اليَّ (قال ذلك وهو يكاد يطير فرحاً) فالتفت اليهِ شفيق شذرًا وقال « ما الذي اوجب وضع هذا الحجاب على نوافذ خلوات المخدرات » قال هو منع الناس من النظر اليهنَّ قال شفيق ولما ذا قال « مراعاةً لحرمة الدين وجاري العادة »

فاحدق شفيق ببصرهِ اليهِ قائلاً « وكيف اذًا يليق بنا ان نسترق النظر الى من يقيم بيننا وبينهُ حجاباً أفلا نكون قدخرقنا حرمة الشرع والدين »

فضحك عزيز ضحكة يستر بها خجلهُ وسكت وبعد يسير عاد الى منظارهِ فنظر بهِ الى جهة من المرسح وقال لشفيق اعذرني قليلاً فاني ذاهب في حاجة واعود حالاً

فعجب شفيق لتلك الوقاحة ولكنهُ لم يسعهُ الا الاجابة فبعد خروجهِ مكث بانتظاره حتى طال غيابه فلاح لهُ ان هذا التأخير لا يخلو من بأس على رفيقه فلم يستطع البقاء فخرج يبحث عنهُ في سائر الخلوات وفي حجر المنعشات خارجاً فلم يقف لهُ على خبر فبقي في هذا الاضطراب ساعة زمانية فلما دقت الساعة الحادية عشرة لم يرَ بدًّا من الخروج ظنًّا منهُ ان عزيزًا ربما خرج من الملهى فرارًا من امرٍ

الفصل الثامن

مناشدة الغرام من وراء اللثام

وفيما هو في حيرة أُنزل ستار المرسح لانقضاء الفصل وابتدأ وقت الاستراحة لبينما يبتدئ الفصل التالي فهمَّ بالخروج من خلوتهِ واذا بعبد طواشيّ قد انتصب امامهُ وهو طويل القامة دقيق العضل ممتلئ الجسم لا نبات في عارضيهِ عليهِ لباس افرنجي اسود وعلى رأسهِ طربوش احمر فلما رآهُ شفيق هابهُ لغريب منظرهِ فبادرهُ الطواشي بألطف اشارة محيياً ثم قال لهُ ايريد سيدي ان يتكرَّم عليَّ بذكر اسمهِ الكريم قال اسمي شفيق

فقال لهُ ان احد اصدقائك يودُّ مقابلتك الساعه ١١ ونصف بجانب باب حديقة الازبكية القبلي فتعجب شفيق من ذلك وقال لهُ من هم هؤلاء الاصدقاء قال قلت بعض الاصدقاء واريد صديقاً واحدًا قال من هو قال هو (وهمس في اذنهِ) السيدة فدوى فخفق قلب شفيق خفوقاً سريعاً واصطكت ركبتاهُ واخذتهُ القشعريرة ولكنهُ تجلد جهد طاقتهِ ونظر الى العبد نظرًا مملوءًا من الوداعة يظهر لهُ امتنانهُ وقال اني سأُتم ما امرت بهِ ولكني الآن افتش عن صديق لي تاهَ مني في هذا الملعب ولا اعلم اين مقرُّهُ ولا ارى مفارقة هذا المكان قبل ان اقف على اثرهِ او اتحقق اين ذهب . ثم خرج الى خارج الملهى فاذا بعربة عزيز لا تزال في انتظارهِ فعلم انهُ لم يخرج فوقف يفكر في امر فدوى واستدعائها اياه في ذلك الوقت وكيف تكون مقابلته اياها وكلما تصوَّر ذلك يخفق قلبهُ ثم يعود فيذكر ضياع رفيقهِ فتحدثهُ نفسهُ ان يجيب داعي الوجد فيسير الى فدوى فتناديهِ المروءَة كيف تذهب قبل ان تجد رفيقك

وما زال مترددًا والخصي ينتظرهُ خارجاً حتى كانت الساعة الحادية عشرة ونصف فوقع في حيرة بين ان يلبي طالب سالبة لبهِ او ان يفتش عن صديقهِ فدفعهُ دافع الوجد ان يسير الى فدوى ثم يعود بعد ذلك للتفتيش عن عزيز فاصطحب الخصي الى الحديقة فوصلا الرصيف بازاء عمود مصباح غازي وقد لحظ مركبة فدوى فاضطرب وامتقع لونهُ نتعثر في سيرهِ حتى كاد لا يقوى على المسير فلما اقبل على المركبة شاهد فدوى مستطلة من النافذة وهي في ابدع ما يكون من الجمال وقد زايلها

ما تصفينني بهِ فقد قلت اني لم اقصد بانقــاذك استجلاب المكافأة اذ لم يحملني عليهِ الا الواجبات الانسانية فلا اطمع بغير رضاك ان كنت استحقهُ

فقالت وقد رمقتهُ مستعطفة أهذا غاية ما تتمناه يا شفيق

فاجابها وهو مطرق ان ذلك غاية ما استحق يا سيدتي

قالت انما اسأَلك عما تتمنى

قال ولكن « لا كلَّ ما يتمنى المرء يدركهُ » وكلل جبينهُ العرق خجلاً اما هي فادركت ما وراء ذلك وغلب عليها الحياء فاطرقت خجلاً وانزوت حياء

فعاودها الخطاب قائلاً اذا كنت لم اذكر لك ما اتمناهُ وقد نفرتِ فكيف لو ذكرتهُ

فدنت من النافذة بلطف وقد خفضت من اضطرابها ومدت يدها اليهِ فتصافحا بالايدي واوضحا بالاشارة ما يقصر دونهُ الخطاب

ثم عاودت الحديث قائلة اظنك تعجب لمعرفتي مقرّك وارسالي اليك فاخبرك اني جئت الليلة مع والدي الى الملعب لمشاهدة التمثيل فرأَيتك في احدى الخلوات وانا في احداها وكنت لا تحوّل بنظرك الى خلوات السيدات خلافاً لرفيقك الذي اضحى هزءًا وسخرية عند من لاحظوا حركاتهِ . ونظرًا لما اشعر بهِ من المنة نحوك احببت مخاطبتك بما يظهر مظهر الشكر لديك فاستأْذنت والدي بالخروج من الملعب لترويح النفس وبعثت اليك بخادمي الامين بخيت الذي اثق بهِ كثيرًا لما هو

فيهِ من الامانة والبسالة وكرم النفس وصدق الطوية وقد اطلعته على ما ابديتهُ نحوي من الشهامة بانقاذك نفسي من العار والموت حتى صار يحبك محبتهُ لي ويعجب ببسالتك وكرم اخلاقك· وحيث ان والدي بانتظاري في الملهي فلا يحسن بي التأخير

قال «وانا ايضاً سأعود للتفتيش عن عزيز» ونظر اليها ليرى ما يبدو على وجهها فاذا هي مطرقة تريد التكلم ويمنعها الحياء

فقال اني اقرأُ في وجهك كلاماً ترومين اظهارهُ ويمنعك الحياء وعلى ما ارى انهُ يتعلق بصديقي عزيز فعلامَ تحجبينهُ عني

قالت ليس في الامر ما يوجب التستر ولا يمكنني الافصاح بالاجابة اكثر من «ان عزيزًا ليس من امثالك»

قال شفيق وهل عرفتهِ قبل الآن قالت لم اشاهدهُ الّا لمحة ساعة الغروب في حال الاضطراب والآن في الملهى ساعة خرج ولم يعد وانت لحسن طويتك لا تزال في انتظارهِ فنعم الشهامة شهامتك ولكن ليس مع من ······ وامسكها الحياء ثم قالت اذا شئت تحقق الخبر اسأل بخيتاً · والآن استأذنك بالذهاب لان والدي لا يزال في انتظاري وانما لا بد لي من موعد اراك فيه

فبهت شفيق وقد تذكر ما مرَّ عليهِ هذهِ الليلة من الاهوال وخاف ان تلحظ منهُ ما خامرهُ من الارتباك فقال اني رهين اشارتك بما تأمرين ونظرًا لفوات الوقت الآن يلزم ان لا نتأخري اكثر من ذلك ثم امرت السائق فساق العربة الى الملعب

الفصل التاسع

دليلة الدلالة

اما شفيق فبقي واقفاً مكانهُ وقد فقد حواسهُ بذهاب فدوى حتى زاحمهُ المارَّة فانتبهَ الى نفسهِ وتوجه توًّا الى الملعب فشاهد بخيتاً ينتظرهُ خارجاً فلما اقترب منهُ اخذهُ جانباً وشرع يستطلع منهُ ما اشارت اليهِ فدوى مما لم تقدر ان تفوهَ بهِ هي فقال بخيت اني لا استحيي ان اقول لك يا سيدي ان عزيزًا لا يستحق ان يكون صديقاً لك

قال شفيق لماذا

لأنهُ رجل ذميم

وكيف ذلك

لانهُ غادرك على مثل الجمر وسار الى من هي على شاكلتهِ

فقاطعهُ شفيق . ماذا تقول

اقول الواقع يا سيدي وكيفية الامر اني كنت في الخلوة مع سيدتي نراقب حركاتكما لانها اعجبت بك وبشريف مباديك فلاحت مني التفاتة الى بعض الخلوات فاذا بواحدة قد اومأَت اليهِ من وراء الحجاب ولما خرج هو من عندك خرجت هي من خلوتها ولا اعلم الى اين وانما اوكد لك انهما لم يخرجا من الملعب فاذا بقيت هنا الى انقضاء التمثيل لا بدَّ من ان تراهُ خارجاً

فقال شفيق وقد اشتدَّ بهِ الغضب يا للغرابة كيف يمكن ان يكون ذلك

قال بخيت ان سموّ ادبك ياسيدي يجعلك ان لا تظن بهِ سوءًا فتعال بنا ندخل الملعب وانا ابحث عنهُ فاذا ظفرت بمكانه اتيت بك اليهِ واريتك اياهُ رأي العين ثم دخلا وسار شفيق الى خلوتهِ وذهب بخيت ليفتش عن عزيز وبعد يسير عاد مهرولاً وعلى وجههِ امارات الدهشة فسأَلهُ شفيق عن الخبر فقال لقيت صاحبك وسيدي الباشا في خلوة يتسارّان وسأَرجع اليك بما يدور بينهما فانذهل شفيق ولبث مبهوتاً يفكر في امر صديقهِ وعاد بخيت لاستطلاع الخبر

اما ما كان من امر عزيز فانهُ غادر شفيقاً في خلوتهِ وخرج لمحادثة عجوز دهياء كانها حية رقطاء بجفن احمر وخد اصفر ووجه اغبش وكانت هذهِ العجوز في الخلوة التي اشار اليها بخيت وهي دلالة تبيع الاقمشة والمصاغ على السيدات في بيوت الاعيان وارباب المناصب تتكلم التركية والفرنساوية جيدًا وقد عاشت زمناً طويلاً حتى صيرها الدهر عظمًا على جلدٍ فلما رأَت عزيزًا رحبت بهِ طمعاً في غنائهِ وقالت لهُ ما وراءَك

قال بل انت ما وراءك

قالت ليس لديَّ الاَّ الخير

فضحك عزيز مُظهرًا لها الوقار والاعتبار وقال ادامك الله لنا يا خالتي دليلة انك والله ملجأُنا وهدانا

قالت بارك الله فيك يا ولدي

فقال اعندك للسرّ مكان

قالت بئر عميقة وهل تجهل ذلك

قال كلاَّ وانا لديَّ امرذو بال احتاج في قضائهِ الى همتك وغيرتك

قالت قل ما بدا لك اني رهينة امرك

فمدَّ يدهُ الى جيبهِ واخرج نقودًا في منديل وقال لها (جاعلاً تلك الصرَّة في يدها باشارة لطيفة) مرادي ان اكلفك قضاء امر ارجو ان لا يكون صعباً لديك

قالت وقد وضعت الدراهم في جيبها ثق يا حبيبي انك بعزّة ولدي وما يهمك يهمني وقد عتبت عليك لدفعك لي دراهم ولم اقبلها الاَّ مرضاةً لك

فقال عزيز ليس لنا بركة الاَّ فيك يا خالتي واما ما اطلب اليك قضاءهُ فهو . هل تعرفين فلان باشا

فقهقهت دليلة قائلةً اليس الباشا المورالي الذي كان ابوهُ في جند ابرهيم باشا عند عودهِ من حرب المورا فاني اعرفهُ جيدًا واعرف امرأتهُ وهي تعرفني وكل يوم تقريباً اراها وذلك من يوم اتى بها من بر الشام لانهُ تزوَّج بها هناك

قال وهل تعرفين ابنتهُ فدوى ذات الحسن والجمال والبهاء والكمال

قالت كيف لا اعرفها وهي عندي بمنزلة ابنتي وقد عرفتها منذ نعومة اظفارها

قال عزيز لقد قضي الامر فاذا كانت هي كما تقولين بمثابة ابنتك اظنك لا تكرهين ان اكون عندك بمثابة صهرك فسكتت هنيهة ثم قالت ذلك امر سهل ولا يكون الا ما تريد فأنت شاب غنيٌ وهي لا تطمع بمن هو اكثر منك مالاً واعظم نوالاً . لكنني علمت منذ بضعة اسابيع انها معقود عليها لاحد شبان العاصمة

فقاطعها عزيز قائلاً لم يعقد لهُ عليها وانما طلبها من ابيها ولم ترض هي وقد ترتب على ذلك ميلهُ الى الانتقام منها فامدديني برأيك لعلي اكسب رضاء تلك العذراء لاني احبها حبا زائداً

قالت عليك بمرضاة ابيها وعليَّ مرضاة امها اما هي فلا اظنها تخالف والديها

قال وما الذي يرضي اباها والامَ تتوق نفسه

قالت انهُ بخيل يحب المال ويستسهل الصعب في سبيل نواله ومثله الاطراء والمدح

قال ماذا يتعاطى من الاعمال

لا يتعاطى عملاً لانهُ ذو عقارات كثيرة يعيش من دخلها ويقضي معظم ايام السنة في ابعدية لهُ في مديرية الشرقية

قال عزيز عليك اذاً استطلاع رأي والدتها وها اني ماضٍ الى والدها لعلي استفيد منهُ شيئاً ثم ودعها وخرج

الفصل العاشر

سلاح الضعيف الحيلة

فسار الى خلوة الباشا ودخل عليهِ مسلماً باحناء رأسهِ كتحية الافرنج فلما رآه الباشا اعتبرهُ لما يظهر على لباسهِ من مظاهر الرفعة والمجد فرحب بهِ واجلسهُ بجانبهِ ثم سألهُ عن بلادهِ والى من ينتسب قال وهو يمضغ الكلام في فمهِ ويقطعهُ شأن اغراب اللغة الذين لا يحسنون التكلم بالعربية جيدًا اني من اهل هذهِ المدينة يا سعادة الباشا

قال الباشا ولكني ارى في لغتك لهجة افرنجية

قال ذلك لاني اسافر الى باريس كل سنة لقضاء فصل الصيف فيها

والعائلة الكريمة من اي العائلات

اني يا سعادة الباشا من عائلة جندب واسم عبدكم عزيز

فنظر اليهِ مندهشاً وقال من عائلة جندب وما هي القربى بينك وبين السيد جندب المغربي المتوفي منذ سنتين

قال هو والدي يا سيدي

هو والدك اذًا . فهذا رجل غنيّ ولم يكن لهُ الاَّ ولد واحد وقد ترك لهُ مالاً وافرًا

نم يا سعادة الباشا هو والدي وانا ابنهُ الوحيد

ماذا تتعاطى من الاعمال

اني لا ازال في المدرسة وفي النية متى خرجت منها ان انشئ

جريدة سياسية ليس بقصد الربح ولكن لاجل المقام وخدمة ذوي المناصب والاعيان مثل سعادتكم

قال الباشا وقد استبشر حسناً تفعل لان افندينا اسماعيل باشا يحب المشروعات الادبية وينشطها كثيرًا ويحب رجال العلم فاذا جاءه احدٌ بقصيدة يجيزهُ عليها بمبالغ طائلة وقد يمنحهُ الرتب والنياشين وكثيرًا ما رأيناهُ ينشط الجرائد بان يعين منها نسخاً عديدة لدوائر الحكومة فاذا عزمت عل انشاء جريدة فعوّل

فقال عزيز صدقت يا سعادة الباشا ولكني اظن ان ذلك قد كان دأب سموّ الخديوي قبل تشكيل لجنة المراقبة التي تعينت لمراقبة حسابات مالية البلاد برأي الدول فان المراقبين قد باشرا مراجعة الحسابات واغلاّ يدي الخديوي عن النفقات غير الضرورية افلا تظن ذلك يحول دون نجاح مشروعنا

قال الباشا نعم ان المراقبين قد اوقفا النفقات غير الضرورية غير ان انشاء جريدة وتنشيطها لا تدخل في اعمال المراقبة وفضلاً عن ذلك فان المراقبة قلما قيدت اعمال الخديوي حتى ان الوزارة الولسينية التي ادخل الدول فيها وزيرين اجنبيين (فرنساوي وانكليزي) قلما اثرت في بسط كفهِ

قال عزيز وما قولك في الحكومة الشوروية الا تظنها تقيد اعمال الخديوي بعد ان كان الحاكم المطلق يمنح ويحسن دون معارض واما الآن فان لمجلس النظار دخلاً في كل الاجراآت جزئية كانت او كلية

فقال الباشا لا يعيقنك ولا يثنِ عزمك شيء فاذا عزمت فعوّل

وما انت في احتياج الى الكسب

قال عزيز حسناً ولكن لديَّ مسألة اخرى مهمة اريد عرضها على سعادتكم قال تفضل . قال قد توفي المرحوم والدي وترك لي مالاً طائلاً وليس لديَّ احدٌ من ذوي قرباي يتولى ادارة هذه الاموال واكون على ثقة منهُ ونظرًا لما هو مشهور عن حسن امانتكم اتيت استشيركم في ماذا افعل

فاشتم الباشا من كلامهِ رائحة الربح الكثير ولا سيما اذا قدّر لهُ ان يكون هو الوصي فقرّب كرسيه من عزيز وقال لهُ . يصعب عليَّ ايها الحبيب ان لا اساعدك بهذا الامر لان الامناء قليلون ولا سيما في هذه الايام واذا شئت فاني ابحث لك عمن يقوم لك بذلك فاذا لم يتأتَّ لنا ايجاد رجل امين فاني اتعهد ان اقوم لك بهذه الخدمة لان والدك رحمه الله كان من اصدقائي

فقاطعهُ عزيز متاهفاً وقال لهُ انها منّة من سعادتكم اذا كنتم تتعطفون ولكني أخشى ان يكون في ذلك ثقلة عليكم اما اذا تمَّ لي الحظ وتوليتم وصايتي فاكون من السعداء لاني اعلم حينئذٍ اني سلمت زمامي لمن هو بمنزلة والدي واعاهد سعادتكم اني حالما يقسم لي الله الاقتران ارفع عنكم هذا الثقل اذ اكون قد وطنت نفسي

فكاد الباشا ان يطير فرحاً لعلمهِ بالغنى الوافر الذي ورثهُ عزيز عن ابيهِ وانهُ سيحصل على التصرف بهِ اذا تولى الوصاية عليهِ ولاح لهُ ايضاً انهُ سيسعى الى تحبيبهِ بابنتهِ وتزويجهِ اياها فيصير كل المال اليهِ وكان اذا تصوّر ذلك يختلج قلبهُ سرورًا ويزيد اعتبارهُ لعزيز ويتوق الى

حديثهِ فتقدم اليهِ بسيكارة فتناولها عزيز شاكرًا وجلس يدخن وهو يتنقل بنظرهِ من جهة الى اخرى تارةً الى المرسح واخرى الى التمثيل ثم يرفع النظارات ويمسحها بطرف منديلهِ وهو يفكر بوسيلة يُعرقل بها مساعي شفيق اذا اراد فدوى لما لاحظ من حبهما المتبادل

وفيما هما بذلك جاء بخيت يقول يا سعادة الباشا ان سيدتي فدوى قد عادت الى خلوتها فقال حسناً ثم عاد بخيت

اما عزيز فعلم ان خروج فدوى لم يكن الاَّ لمقابلة شفيق خارج الملعب فازداد حسدًا فأَجهد الفكرة لبلوغ مرامهِ فاهتدى الى حيلة فقال للباشا

أَليس الذي خاطب سعادتكم خصياً

قال نعم هو خصي خرج بابنتي في آخر الفصل الاول لترويح نفسها خارج الملعب واتى الآن ليخبرني برجوعها

وهل السيدة فدوى ابنة سعادتكم

فتعجب الباشا من ذلك وقال نعم هي ابنتي ومن اين عرفتها

قال عزيز قد عرفت ذلك بطريق الاتفاق فاشتغل قلب الباشا كثيرًا وتقدم الى عزيز ليفصح عن كيفية معرفتهِ بها

فامتنع عن الاجابة اولاً بدعوى ان ليس في الامر ما يوجب الاهتمام ثم قال ولكن يجب عليَّ حباً بمصلحة سعادتكم وصيانة لشرف السيدة كريمتكم ان اوجه التفاتكم الى امر مهمّ وهو ان الاجدر بكم ان لا تهملوا امر مراقبة الخاتون ابنتكم لانها جوهرةٌ ثمينة فلا تعهدوا امرها الى الخصيانِ

لآن الامين بينهم قليل

قال الباشا الحق في جانبك يا عزيزي لكنني قد عهدت امرها الى افضل من عرفت بين هؤلاء فان بخيتاً الذي رايتهُ الآن خادم امين صادق يحب الفتاة حباً عظيماً ويحافظ على شرفها وقد اظهر امانتهُ في احوال مختلفة

قال عزيز ان قولي هذا لم يكن الاّ على سبيل التعميم وقد كفى ما اشرت اليهِ الآن وعسى اننا نلتقي مرة اخرى للمفاوضة فيما دار بيننا

قال الباشا اذا أتيت منزلي غداً نتفاوض ملياً ثم نهض عزيز مودعاً وقد اظهر ما استطاع اظهارهُ من اللطف والرقة والثقة والغيرة حتى حبب الباشا بهِ

الفصل الحادي عشر

﴿ شر الاخلاق المراء ﴾

اي شيءٍ يكون أقبح مرءاً   من صديقٍ يكون ذا وجهين
من ورائي يكون مثل عدوّي   وهو اذ يراني يقبل عيني

فخرج عزيز وترك الباشا يفكر فيما سمعهُ عن ابنتهِ وقد وجهَ انتباههُ من ذلك الحين الى مراقبتها وهو لا يزال واثقاً بتعقلها وعفافها فلم يمنعها شيئاً مما اعتادت عليهِ من ضروب المعيشة والذهاب والاياب ولكنهُ صار يلاحظ اميالها عند ما تسنح لهُ الفرص . على ان اهتمامهُ الاعظم كان

منصرفاً الى ما أملهُ من الكسب اذا تولى الوصاية على اموال عزيز

وحينما كان عزيز عند الباشا يكلمهُ بشأن ابنته كان بخيت واقفاً عند الباب فسمع كل ما دار بينهما فبادر قبل خروج عزيز واختلى بشفيق يقص عليهِ حكاية صديقهِ بسرعة خوفاً من ان يدركهما عزيز وعند نهاية الخبر قال لا بدَّ لنا من تأجيل اجتماعك بسيدتي ريثما تذهب الشبهة عنها

فبهت شفيق لما سمع من كلام بخيت ولكنهُ لم يقطع بان عزيزاً اجتمع مع الباشا قصد السعاية اوالتفريق بينهما لما كان وعده بهِ من المساعدة عند عودها من الجزيرة فصبر نفسهُ ريثما يتحقق الخبر

اما عزيز فخرج من خلوة الباشا توًّا الى خلوة شفيق فلم يرهُ فيها فبحث عنهُ حتى لمحهُ منفرداً ببخيت فتغاضى عنهما حتى افترقا ثم سار الى شفيق وهو يظهر الخجل . ولعلمهِ ان بخيتاً اطلعهُ على كل ما دار بينهُ وبين الباشا بادرهُ قائلاً اعذرني يا عزيزي فقد اطلت الغياب عليك اما اذا اطلعتك على ما فعلتهُ فانك تعذرني واراد بذلك ان يرفع الشبهة عنهُ ثم قال وما هو الوقت الآن فقال نحن في منتصف الليل وقد انقضى التمثيل وارفضَّ الجمهور فهيَّا بنا

فقال عزيز هيَّا بنا نتم سرورنا بمشاهدة احتفال فتح الخليج وخرجا من الملعب واستدعيا العربة

فقال شفيق قد كفانا ما نقيناهُ الليلة ولا شك ان والديّ في قلق عظيم على تأخري وقد انهكني السهر لاني لم اعتد عليه

قال عزيز هازئاً من ينام الليلة وهي ليلة فتح الخليج اما والداك فلا اظنهما يتقاعدان عن الذهاب الى هذا الاحتفال لان اهل القاهرة عموماً صغاراً وكباراً يذهبون هذهِ الليلة الى هناك وما زال يحاول اقناعهُ حتى اتت العربة فامسك بيدهِ واجلسهُ فيها وركبا يريدان فم الخليج وكلاهما تائهٌ في عالم هواجسه هذا يصعد بافكارهِ الى العفاف والحب الطاهر وذاك يهبط بها الى الدناءة والخيانة · والامر العجيب ان افكارهما مع تناقضها تنتهي بهما الى نقطة واحدة هي فدوى

اما شفيق فهذهِ اول مرة خامر ضميرهُ الريب في صداقة عزيز على اثر ما سمعهُ عنهُ فاراد مكاشفتهُ لئلاَّ يكون فيما بلغهُ عنهُ تحامل عليه

وفيما هما باثناء الطريق قال شفيق ان الصداقة التي بيننا تقضي عليَّ بمكاشفتك في امر سمعتهُ عنك وقد ساءني حصولهُ فارجو ان لا يكون صحيحاً

قال ماذا بلغك · قال بلغني انك تركتني وذهبت لمسامرة احدى النساء وقد افضى بك الامر الى الحديث مع بعض الناس بما لا يوافق مصلحتي

قال عزيز نازعاً سيكارتهُ الثخينة من فيهِ وهو يتميز غيظاً كأنهُ سمع مايحط من قدرهِ وقد ادرك ان شفيقاً علم كلما دار بينهُ وبين والد الفتاة فقال اني مسرور من مكاشفتك اياي بما في ضميرك ايها العزيز اذ ربما ترفع عني بذلك وقيعتك بي فتبرئني مما خامرك من الشك في صداقتي وبناء عليهِ سأطلعك على حقيقة الخبر ليتحقق لديك

صدق طويتي لك فاني لم افعل ما فعلته الاَّ سعياً الى مصلحتك قياماً بوعدي لاني توسمت من ميلك الى فدوى على اثر انقاذك اياها من مخالب الموت ما حملني على السعي سرًّا الى ما يسهل اقترانك بها ولا بدَّ لنا في ذلك من الحكمة والتعقل

اما الامرأة التي اشرت اليها فهي التي سيكون عليها معتمدنا في مرغوبنا لانها عجوز محنكة ولها المام تام بدخائل بيت الباشا وقد علمت منها ان الوسيلة الفضلى لنوال بغيتنا انما هي استجلاب خاطر والدها فجالسته في خلوتهِ مدّة وبعد الافاضة معهُ بالحديث استطردت الى الخوض في قضيتنا فجئته من حيث رجوت التطرق الى الغرض فنبهت افكارهُ الى وجوب الاحتراس على ابنته وعدم الاباحة لها في الخروج وحدها راجياً بذلك ان يسأَلني عن الخطر الذي يترتب على ذلك فآتي على ذكرك وما كان من امر انقاذك اياها من خطر العار والموت وأَستطرد الى ذكر صفاتك ثم أُلمح الى مناسبة اقترانك بها ولكنني لم استطع الوصول الليلة الى هذا الحد لاني رأَيت منهُ اعراضاً عن الموضوع فاقتصرت على قصد ان اعود الى ذلك في فرصة اخرى

وكان عزيز يتكلم بمظهر السذاجة ايهاماً لشفيق فاخذهُ شفيق مأْخذ الاخلاص وقال لهُ اني يا عزيز غير طامع في نيل الفتاة لبعد الحالة بيني وبينها ولا اقول اني لا اريدها انما اقول اني لا اطمع فيها

فالتفت عزيز اليهِ بغتةً حتى وقعت النظارات عن عينيهِ وكادت تنكسر فمد يدهُ اليها ورفعها وهو يمسحها بطرف منديلهِ ويمسح اماق عينيهِ

قائلاً واذا اعتبرت الحقيقة نأَنت جدير بها وباعظم منها لا اقول ذلك تحقيرًا لها في عينيك لانها فتاة غنية وقد زينها الله بكمل الذات والصفات ولكنك انت ايضاً شاب نادر المثال بآداب نفسك وذكاء عقلك فلو طلبت اي ابنة اردتها لنلتها ونلت معها مالاً وافرًا لان هذا العصر عصر الشبان وهم الذين ينالون المهر وذلك امر مشهور

فاجابهُ شفيق هازئاً . ان التعقل والرزانة والتأَدب جواهر لا تباع ولا تشرى على ان « الدوتا » ليست من عادتنا نحن الشرقيين ولو ادركت لطف هذه العذراء وادبها لعلمت انها ليست ممن يدفعن المهور

فقال عزيز متبسمًا وهو يتقد غيرة وحسدًا وقد عمد الى تحقيرها في عينيهِ مشيرًا بيدهِ الطويلة على قامتهِ القصيرة اني لا انكر عليك شيئاً من ذلك ولكن لديَّ ملاحظة فاسمح لي بابدائها

قال شفيق قل ما بدا لك . فقال ان مثلها ولا اخفي عنك لم يكن يحسن بها ان تبقى في الجزيرة وحدها في مثل هذا الليل الدامس حتى عرَّضت بنفسها الى الخطر الذي عرفتهُ

فاستعرت نار الغيرة في قلب شفيق وأَحسَّ كأَن تلك الاهانة قد لحقتهُ هو ولم يرَ بدًّا من دفعها عن مالكة لبهِ فقال وقد بدت علائم الخجل على وجههِ . كلانا يعلم يا عزيز انها لم تذهب الى الجزيرة لتبقى هناك الى الليل وأَنت نفسك أَخبرتني ان سائق المركبة اعاقها بتواطىءٍ مع ذاك الرجل الذميم فهل يحط ذلك من قدر ادبها وتعقلها

فلما رأَى عزيز ما يتخلل كلام شفيق من الغيرة الشديدة على

صحة ادب فدوى تلوَّى تلوّي الحية وقد اشتعل فؤاده حسدًا اذ لم يرَ من الايقاع بها لاَّ اثارة عواطف شفيق للدفاع عنها فكظم غيظه وخاف اذا اختلق عليها اكذوبة اخرى ان يقع في شر اعماله فينكشف امره وتحبط مساعيه فصمت وهو يتلاهى بعصا عقفاء كانت بيده يضعها بين شفتيه ثم يعود فيلعّب بها اصابعه حتى حوّل اليه بصره قال لا . لا اقول لك يا عزيزي انها بقيت في الجزيرة الى ذلك الحين باختيارها وانما قلت ان ذلك التأخير ربما اضرَّ باسمها ولا اجهل ان ما حصل لها هو عن غير ارادتها ولو تنبأت بحصوله ما خرجت من بيتها قط

قال ذلك اخفاء لما كاد يظهر من حسده وغيرته ولكنَّ قلبه ما برح يزداد بغضاً وحسدًا لشفيق حتى حدثته نفسه ان يفتك به في المركبة ظنًّا منه انه يستطيع بذلك الظهور امام والدها بظهرًا آخر فيدعي انه هو الذي انقذها من مخالب الموت وانه استخدم شفيقاً آلة له ولكنه لم يجسر على ذلك لعلمه ان شفيقاً اشدُّ منه بطشاً فعمد الى الحيلة شأن الضعيف الساقط

الفصل الثاني عشر

لقاء الضائع وشكوى الغرام

وبينما هما في الحديث وصلت العربة الى ساحة فم الخليج والاحتفال قد انقضى ولم يبق في الساحة الاَّ نفر قليل فسرَّ شفيق لذلك لانه كان

قلقاً لطول غيابهِ عن والديهِ معظم ذلك الليل الذي لاقى فيهِ الاهوال

فقال لعزيز هيَّا بنا الى منازلنا فقد انقضى معظم الليل وانا واجس من قلق والديَّ عليَّ

قال عزيز اني اضن بفراقك يا عزيزي لاني لا اسرُّ الاَّ بمشاهدتك وقد كانت هذه الليلة لديَّ من اسعد الليالي اما اذا كان لا بدَّ لك من العود الآن فاني أُشيعك لئلا تصيب وحشة في الطريق قال ذلك وامر السائق فحوَّل الاعنة الى شارع العباسية · فعادا وكلاهما هاجس فيما لاقاه تلك الليلة من غرائب الاتفاق حتى وقفت العربة امام باب بيت شفيق وقد سمعا صوتاً من احدى النوافذ ينادي «شفيق·· شفيق··» فعرف شفيق انهُ صوت والدتهِ فاجابها لبيك يا اماه

فقالت ما هذا التأخر يا ولدي ألا تدري ان والديك على مثل الجمر لطول غيابك · ما عهدتك على مثل هذا يا شفيق وهرولت لملاقاتهِ فاسرع اليها عزيزوهمَّ بتقبيل يديها احتراماً فمنعتهُ من ذلك وردت عليهِ التحية لكنها لم تكن مسرورة من مرافقتهِ لابنها

ثم التفتت الى شفيق وقالت لهُ أَيليق بك يا ولدي ان تطيل علينا الغياب بدون ان تعلمنا

فاجابها متعجباً أَلم يصلكما الخبر بذهابي مع صديقي عزيز الى احتفال فتح الخليج قالت لا · فاطرق عزيز وقد دفع الارض برجلهِ متظاهرًا بالكدر وقال يبان لي ان الخادم قد نسي او توانى في ابلاغكم الخبر بذهابي مع عزيزي شفيق فلا بدَّ لي من عقابهِ وطردهِ ثم ودعها وخرج

فقالت سعدى لشفيق · اين والدك يا بنيَّ · قال لا اعلم أَلعلهُ خرج في اثري قالت نعم فقال والله يا أَماه اني آسف لما حملتكما من المشقة هذهِ الليلة ولكن ثقي باني لم اتأَخر الاَّ لوثوقي باطلاعكما على خبر ذهابي · فأَخذتهُ بيدهِ حتى دخلت بهِ المنزل فسأَلتهُ هل تناولتَ العشاءَ يا ولدي قال نعم · فقالت اتدري اننا لم نذق طعاماً ولم نرقد رقادًا حتى الآن فقال سامحيني يا اماهُ لاني لم افعل ذلك عمدًا

ثم دخلا حجرة المائدة وقد اعدَّ الخادم ما حضر فدعت ابنها ليواكلها فاجابها وجلسا يتناولان الطعام وهما قلقان على غياب ابراهيم فاعاد شفيق السؤَال عن ابيهِ فقالت لا خوف عليهِ لأَنهُ خبر الدهر فعرف خلَّه من خمرهِ ولعلَّ تأَخرهُ في شاغل مهم ولا يلبث ان يعود ثم استطردت الى السؤَال عن سبب تغيبهِ كل تلك الليلة

فقال كنت في احتفال فتح الخليج كما اسلفت لك فقالت لم اعهد بك التلبس بغير الواقع ذانك لم تكن في ذلك الاحتفال

فتعجب شفيق لمعرفتها ذلك فقال من اين لك اني لم اكن هناك فقالت أَلست مصيبة

قال نعم يا اماه وانما اسأَلك العذر وسأَقص عليك الخبر على ان تبقيهِ في سرّك ولا تطلعي عليهِ احدًا حتى ولا والدي · ثم جاس يقصُّ عليها الحكاية من أَولها الى آخرها وهي مقبلة عليهِ بسماعها وقد استغربت ما صادفهُ تلك الليلة من الغرائب حتى اذا اتى الى حديث الفتاة احمرَّ وجههُ واندى جبينهُ وكاد يمتنع عليهِ الكلام فاندهشت والدتهُ

وخافت عليهِ من سلطان الغرام وهو لا يزال يافعاً غضّ الشباب فقالت لهُ وكيف احببتها لاول نظرةٍ وانت لا تعرف عنها شيئاً

قال اعترف لك اني اجهل السبب ولكني اعلم اني شعرت نحوها بما لم اشعر بهِ نحو احد في هذا العالم بعد ولا اخفي عليك أيضا اني شاهدت من محبتها لي ما لا يقلّ عن ذلك ولكن آه يا أُمّاه (وكاد يشرق بالطعام) فبادرتهُ قائلة لا بأس عليك يا ولداه · ممَّا تشكو

فترقرقت عيناهُ بالدموع وقال · اعذريني · اعذريني يا امَّاه · لاني لا املك حواسي

مالك يا حبيبي خفّض من انسطرابك ولا تخفِ عني مابك

قال أُحبها يا امَّاه نعم احبها حبّاً مفرطاً ولم يتمالك عن البكاء فخافت عليهِ امهُ من شدّة الانفعال فترامت عليهِ وضمتهُ الى صدرها وقبلتهُ قائلة لا تخجل يا ولداه ان المحبة اذا قرنت بالشرف والشهامة لا حياء بها ولا خجل فسكّن روعك واشرح لي كيفية حبك لها وهل تحسّ نحوها بحب قلبيّ

احبها يا امَّاه حبّاً لا افهم كيفيتهُ ولا مقدارهُ ولكني احسّ ان لهُ تأثيرًا في كل جوارحي كأَنهُ جرى مجرى دمي في مفاصلي فقالت كأَني بك تميل الى الاقتران بها

فأَطرق حياء وخجلاً وقد مال اليها مجهشاً كأَنهُ يريد التكلم ويرى دون طلبهُ عقبات حتى قال أَميل يا اماَّه ولكن ماذا ينفع الميل وبيني وبينها بون عظيم وانا في اصعب الاحوال لا اعلم حقيقة مستقبلي

فرقَّ قلبها لهُ وغلب عليها الحنوّ فقالت اني اعرف الفتاة يا ولدي وقد سمعت عن تهذيبها ولطفها وذكائها من فلانة جارتنا فلا الومك على حبك لها لكن لا يخفى عليك صعوبة مركزك وما يحول بينك وبين الافتكار بهذا الامر فضلاً عن ان الفتاة من عائلة عريقةٍ في الحسب والنسب وذات ثروة عظيمة فاجتهد ان تكون رجلاً عظيماً فتستحقها ولا يأخذ منك اليأس مأخذهُ فطالما كنت ذكياً مهذباً صادق اللهجة صحيح المبادىء مقداماً لا يمنعك مانع من الارتقاء ودوس كلما يعترضك من المصاعب . ومما يساعدك على نيل مطلوبك كون حبكما متبادلاً فلا تخف ميلها الى سواك واطلعها على حقيقة حالك فان كانت اهلاً لحبك والحب متبادلاً رضخت لسلطان الهوى وساعدتك في مرادك الى ان يقضي الله امرًا كان مفعولاً والاَّ فهي ليست اهلاً لك فالتحجب بك اولى ونسيانها منك احرى

ان كلامك الحيّ ايتها الوالدة الحنونة قد نبَّهَ فيَّ اشرف المبادىء ورقَّى افكاري الى درجة لا ارضى معها التزلُّف والمذلة ولكن آه يا اماه

سهمٌ اصاب وراميهِ بذي سلمٍ من في العراق لقد ابعدت مرماك

فأين انا الآن مما تقولين وكم هو الزمن الذي يؤكد لي حقيقة مستقبلٍ أستحق بهِ فدوى حتى اذا فرضنا المستحيل وتاكدنا ذلك النجاح الموهوم فهل تبقى فدوى الى ذلك الوقت كما هي الآن لقد ابعدت يا اماه مرماك

فقالت لهُ الحب يعمي البصيرة يا ولدي كن حازماً ولا تطع

هواك فأين انت الآن من نيل تلك الفتاة ولا تزال تلميذ مدرسة لا مهنة لك ولا منصب يقوم باحتياجاتك فضلاً عن ان اباها لا يزوّجها الاّ لمن يماثلها ثروة او لمن هو مشهور بين رجال الاعمال ولا اظنك اذا نلتها ترضى ان تعيش من مال ابيها

فقال كلاّ واظنها اذا عرفت باني لست شيئاً مذكورًا يفتر حبها فلا بدّ لي من السعي الى العلاء ارضاءً لها ولو كلفني ذلك شق الانفس على انها لو رضيت هي فانا لا ارضى

قالت ارى من الرأي بعد انقضاء الامتحان النهائي في المدرسة التجهيزية ان تتلقى فنّ المحاماة او الطب

فقال شفيق اما الاول فلا بدّ لي في درسهِ من المسير الى اوروبا واما الثاني فيقتضي لدرسه ست سنوات واذا قلّت فخمس

قالت كيف يمكننا الاصطبار على بعدك سنتين وقد رأيت قلقنا عليك الليلة اما الطب فربما استطعنا بوسيلة مّا ان نجعل مدة الدرس فيهِ اربع سنوات فقال ننظر في ذلك غير مرة. وانا الآن في قلق على والدي ثم نظر الى الساعة فاذا هي الثالثة بعد نصف الليل وفيما هما في ذلك دخل الخادم يقول في الباب جاويش وفي يدهِ كتاب لك يا سيدتي فقالت هاتهِ فجاءها بهِ فتناولتهُ وسألت من اين هذا قال من المعيَّة السنيَّة يا سيدتي فاضطرب قلبها وارتعدت فرائصها حتى لم تقو على فضهِ فرمت بهِ الى المائدة وقد اغرورقت عيناها بالدموع . فقال شفيق ما الداعي لهذا ونحن لم نطلع على مضمونه . أتأذني لي بفضهِ فاذنت لهُ ففضهُ فاذا

فيهِ « لا ينشغل بالك على غيابي الليلة لاني دعيت وأنا خارج من البيت الى المعية السنية وسأبقى الى الغد فاكتبي لي عن مجيء شفيق مع ناقل هذا » فلما قرأ الكتاب زال اضطرابها وقلقها فكتبت اليهِ تخبرهُ عن عود شفيق فعاد الجاويش وابث شفيق ووالدتهُ برهة تائهين في عالم من الهواجس حتى اقترب شفيق من والدتهِ يسألها « ما معنى هذه الدعوة في هذا الليل وما هي علاقة والدي مع المعية فما هو من مستخدمي الحكومة المصرية ولا من اصحاب الاملاك »

فقالت لا يخفى عليك ياولدي ان والدك من مستخدمي قنصلاتو انكلترا وانت تعلم ما تسعى اليهِ هذه الدولة مع فرنسا بشأن مصر حتى اصبح مركز الخديوي في خطر وبما ان والدك من محبي الحكومة المصرية بعثت اليهِ المعية للسؤال عن بعض تلك الشؤون وقد فعلت مثل ذلك قبل الآن ثم قالت لا خوف عليهِ باذن الله ولكنني خشيت بادىء بدء ان تكون الدعوة من افندينا رأساً لما نخشاهُ من عواقب مثل هذه الدعوة ثم سار كلٌّ الى فراشهِ ولم يبق من الليل الاّ القليل

الفصل الثالث عشر

﴿ فتح الصندوق ﴾

اما شفيق فقضى ما بقي من الليل في هاجس من الافتكار في فدوى ورضاها عنهُ وما دار من الحديث بينهُ وبين والدتهِ بشأنها

اما والدته فما لما طاب قلبها على ولدها وزوجها عادت الى الافتكار بامر الصندوق وقد ساءها ما حدث تلك الليلة مما اخر فتحه . ولكنها صممت على السعي الى فتحه حين مجيء زوجها قياماً بوعده لها

وفي الصباح التالي لم يستيقظا الاّ على طرق الباب واذا بابرهيم قد عاد بخير . فسأل شفيقاً عن سبب تأخره بالامس . فقال انه كان باحتفال فتح الخليج ولم يخبره شيئاً عن امر فدوى فعنفه على ذهابه بدون اعلام فاعتذر وساعدته والدته في القاء التبعة على خادم عزيز لانه لم يأتِ لاعلامها فاكتفى بذلك ثم سار شفيق الى المدرسة لجاري العادة

واتت سعدى الى زوجها تسأله ان يفتح لها الصندوق حسب وعده

فبهت برهة ثم قال أنصح لك يا سعدى ان تتغاضي عن هذا الامر لاني لا ارى في فتحه الاما يزيد قلقك

فقالت كلما زدتَ تمنعاً ازددتُ بفتحه رغبة فانجز بوعدك فالحرُّ اذا انجز

فقال انجز بالوعد لكني أنصحك ان تكفي عن طلبك . فلم تقبل حتى اخرج من جيبه مفتاحاً صغيرًا والتفت يمنة ويسرة حتى تحقق خلوّ المكان من الناس فتناول الصندوق واولج فيه المفتاح ويده ترتعش وسعدى تحوم ببصرها نحوه حتى رفع الغطاء عنه فانتشرت منه رائحة كريهة ورأت شيئاً اسود فتأملته فاذا به خصلة من الشعر قد اغبرَّ لونها على طول المكث في ذلك الصندوق فهمت الى لمسها فمنعها ابراهيم قائلاً امعني بنظرك ولا تمدي يدك فأحدقت بنظرها فاذا بشعر كثٍ

متكاثف يتخلله اثر دماء قد اكمد لونهُ على بعد الزمن فلما عاينت ذلك اخذتها الرجفة فامتقع لونها ومالت الى استطلاع الحكاية فلم تجسر على مفاتحة زوجها بها لما اشترطهُ عليها فاخذتها الدهشة لشدَّة التأثر حتى لم ترفع نظرها من الصندوق الى ان اقفلهُ ابراهيم واعادهُ الى مكانهِ ثم نظر الى سعدى وقال لها ارأيت كيف ازددت قلقاً بعد فتحهِ منك قبلهُ فأجابت وقد زاد اضطرابها اني لفي قلق عظيم ان لم تطلعني على الحكاية والاَّ فاني الجانية على نفسي بهذا القلق فهل لك ان تقصها عليَّ فقد عدمت الصبر

فأحدق بها وقد ظهرت على وجههِ امارات الحزن والكآبة كأنهُ تذكر مصائب قديمة كانت قد تنوسيت على طول المدى وقال اني اخلصتُ لك النصيحة فلم تقبلي فانا بريءٌ من تبعة ما تقاسينهُ من القلق لاني لا استطيع الاَّ المحافظة على ما اشترطتهُ عليك ولو المحت لك عن الحكاية ما ازددت الا قلقاً وما اكتفيت الا بالتصريح ولكن لا بدَّ من مجيء وقت اطلعك فيهِ على تفصيل الخبر فاقصري ناشدتكِ الله اذ لا فائدة من الالحاح وليس الامر في يدي

قال ذلك ونهض الى ثيابهِ فتبدل وخرج الى شغلهِ اما سعدى فبقيت مشتغلة الخاطر منقبضة النفس وقد تحوَّلت طلاقة وجهها الى العبوسة لا يهدأُ روعها الاَّ باطلاعها على هذا السرّ

اما ابراهيم فكان اكثر منها انقباضاً وقد زاد قلقهُ لتذكرهِ احزاناً كادت تزول من ذاكرتهِ

الفصل الرابع عشر

﴾ الامتحان السنوي ﴿

مضت عدة اسابيع بعد تلك الحوادث وعزيز يتردَّد على الباشا ويؤملهُ بما دار بينهما من الحديث حتى كان وقت الامتحان العمومي في المدرسة التجهيزية باحتفال شائق في سرايے درب الجماميز حضرهُ الخديوي وسائر الوزراء والاعيان كجاري العادة فتقدم التلامذة للامتحان الجهاري وكان الخديوي يراقب مقدرة كل فرد الى ان كان دور شفيق فأجاد في اجوبتهِ حتى استدعى انتباهَ العموم لهُ فاعجب الخديوي بذكائهِ وفطنتهِ وما يزينهما من الرزانة والكمال فاستدعاهُ اليهِ على مشهد من الحضور فلما مثل بين يديهِ وقف متأدباً

فقال لهُ ما اسمك

قال عبد سموّكم شفيق ابرهيم

فالتفت الخديوي الى سرّ ياورانهِ يسألهُ اذا كان يعرف والدهُ ٠ فقال انهُ من مستخدمي قنصلاتو انكلترا فاظهر انهُ يعرفهُ ثم التفت الى شفيق قائلاً « عفاريم اوغلم عفاريم » يعني « احسنت يا بنيَّ احسنت » وصرفهُ فعاد الى مكانهِ فرحاً لما لاقاهُ من استحسان وليّ النعم والناس تصفق لهُ تهنئةً بما نال فلما ارفضَ الجمهور تقدم ناظر المدرسة الى والد شفيق وكان من جملة الحضور فبلغهُ ان الجناب الخديوي قد امر بارسال شفيق الى اوروبا لاتقان العلوم فيها على نفقة الحكومة فاثنى على انعام

الجناب العالي وعلى وجههِ علامات المسرَّة لما حازهُ ابنهُ من التفات وليّ الامر ثم اتى شفيق الى والدهِ فهنأهُ بنجاحهِ وخرجا والناس ينظرون الى شفيق ويعجبون من رصانتهِ وذكائهِ لانهُ مع هذا الفوز لم تأخذهُ هزّة الطرب او تبدُ على وجههِ علامات الاعجاب والخفة

اما عزيز فكاد يقضي عليهِ حسدهُ من شفيق ولكنهُ كظم غيظهُ وجاءهُ مهنئاً بما نالهُ من الانعام ثم سار شفيق ووالدهُ

فلما وصلا البيت وعلمت والدتهُ بما نالهُ من الالتفات فرحت لنجاحه وكدَّرها امر فراقهِ فاخذ يخفف عنها ويهوّن عليها وقال تسلية لها وتطييباً لخاطرها انني اذا تغيبت عنك ثلاث سنين او اربعاً لدرس فنّ المحاماة فاني اتقنهُ ويسهل علي الدخول الى احد المناصب المهمة كالقضاء مثلاً فانه منصب جليل يتمناهُ كثيرون ولا ينالونهُ . فقالت وقد اعجبت بكلام ولدها وأخفت كدرها متى يكون ميقات السفر فقال لا اظن ذلك يتم قبل بضعة اسابيع فقالت الامر لله يفعل ما يشاء

وكان ممن حضر الامتحان والد فدوى فاعجب بما نالهُ شفيق من التفات الخديوي وقد احبهُ لما عاين من ذكائهِ ولطفهِ فلما عاد الى بيتهِ وجلس الى المائدة مع عائلتهِ وصل بهِ الحديث الى حكاية الامتحان فاطنب بشفيق وصفاتهِ فلما سمعت فدوى اسم مالك لبها اختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار واخذت اطرافها بالارتجاف ولكنها تشاغلت بتقطيع فاكهة كانت امامها ولم ترفع بنظرها الى والدها اخفاء لما كاد يظهر على وجهها من ظواهر الوجد ولكنها كانت تودُّ تحقيق الخبر

لتعلم اذا كان شفيق الحكاية هو شفيقها فابثت تنتظر ما يجيئها بهِ الحديث فلم تستزد علماً فأملت نفسها ان في الغد تأتيها جريدة الاهرام بتفصيل الخبر فابثت تستعدُّ الدقائق وترقب الساعات وهي في هاجس عظيم حتى كان الغد واتى عدد من الاهرام الى والدها فتلقتهُ وفضتهُ واول ما حوّلت نظرها الى رسالة العاصمة فاذا فيها « قد انعمت الحضرة الفخيمة الخديوية على جناب الشاب الاديب شفيق افندي ابراهيم بالتوجه الى الديار الاوربية لدرس فنّ المحاماة في اعلى مدارسها على نفقة الحكومة السنية وذلك لما شاهد سموُّهُ من ذكاء هذا الشاب ونشاطهِ » فكانت فدوى تقرأ وقلبها يختلج بين الفرح والوجل اذ قد سرّها تعطف الخديوي عليه لعلمها انهُ اذا صار قاضياً يكون اقرب الى ارضاء والدها ولكنها اشفقت ان يكون في غيابهِ ما يضعف املها بنيلهِ فذهبت الى حجرتها واستدعت بخيتاً لتطلعهُ على ما يطويهِ فؤادها من امر شفيق لانها لا تقدر ان تكاشف احدًا من الناس بما يدور في خلدها من الحب والوجد الاّ هذا العبد الامين فقالت لهُ هل سمعت بما تمَّ لحبيبي شفيق قال نعم قرأت عنهُ في جريدة الاهرام فقالت ان نجاحهُ وفوزهُ مما يفرحني ويزيدهُ اعتبارًا في عينيَّ غير ان سفرهُ الى اوربا لا ينتهي قبل اربع سنوات ومن يدري ما يأتيهِ الزمن من الحسنات والسيئات وقد قيل « الدهر في الناس قلّب » واوربا بلاد تشغل الامّ عن رضيعها (ثم تنهدت ونظرت الى بخيت كأنها تستطلع رأيهُ)

فبادرها قائلاً قد آنست يا سيدتي بهذا الشاب شهامةً ومروءةً

فوق ما سمعت عنهُ واظنهُ اذا عاهدك لا ينكث بعهدهِ فقلب المحب الصادق لا يميل الى السوى وقد فهمت انهُ يحبك مثل حبكِ لهُ او اكثر فاذا رأَيتِ ان اذهب اليهِ فأَسأَلهُ موعدًا تجتمعان بهِ فتتفاوضان فعلت لعلك تثنينهُ عن السفر او تبرمين معهُ عهدًا فأَطرقت برهةً ثم رفعت بصرها اليهِ وقالت لهُ حسناً تفعل يا بخيت غير انك لا تدع مظنَّةً لوالدي بتخلفك عني وذهابك من البيت بامري فترقب فرصة يكلفك بها والدي الذهاب لقضاء امر فتتوجه الى شفيق لئلا يظن بي والدي سوءًا لاني أَراهُ يراقب ذهابي وايابي على اثر ما سمعهُ من ذلك الشاب المتفرنج كما اخبرتني

فقال بخيت ان احتفال المولد افضل موفّقٍ لاجتماعكما الاَّ اذا ذهب سيدي والدك اليهِ نعود بصفقة المغبون فأَرى ان نعين يوماً تذهبين فيهِ الى النزهة في احد المتنزهات فلنختر اليوم العاشر من هذا اليوم فتذهبين بمركبتك الى قصر النزهة في شارع شبرا فنتخذ وسيلة نقوى بها على الدخول الى الحديقة وندخلهُ معنا وحينئذٍ يخلو لكما الجوُّ

فقالت نعم الرأْي فقال حيث استحسنتهِ فهاانى ساعٍ الى قضائهِ

الفصل الخامس عشر

﴿ عاقبة الخيانة الفشل ﴾

وفي مساء ذلك اليوم خرج شفيق من بيته قصدًا العباسية لترويح النفس وكان مطرقاً في الارض كمن يفكر بامر ذي بال لا يحوّل بصرهُ

الى شيءٍ من البنايات المزخرفة والحدائق الغناء التي على جانبي الشارع فكأَنهُ منشغل بتصوُّراتهِ الغرامية عن النظر الى تلك المناظر اللطيفة وبينما هو على هذه الحال اعترضهُ بخيت بالسلام فرفع بصرهُ اليهِ ولما عرفهُ خفق قلبهُ شوقاً وهياماً الى ساكنة فؤَادهِ فرد عليهِ التحية وسأَلهُ ما وراءك قال جئتك بامرٍ من سيدتي وكنت ذاهباً الى محلك فاسعدتني الصدف بلقياك هنا

قال شفيق هات ما عندك

قال ان سيدتي قرأَت في جريدة الاهرام عما انعمت بهِ عليك الحضرة الخديوية فسرَّت لفوزك وتكدرت لما علمت من عزمك على السفر الى اوروبا قريباً

قال شفيق للضرورة احكام وقد قيل «تجري الرياح بما لا تشتهي السفن» فما العمل اذا

قال انها تودُّ مواجهتك قبل سفرك فهل لديك مانع

فظهرت علائم الدهشة والاستبشار على وجه شفيق فقال لا مانع لدي فهل عينت المكان والزمان

قال اما الزمان فهو اصيل اليوم العاشر من هذا . واما المكان فهو قصر النزهة بسكة شبرا

فقال شفيق ساكون هناك في الوقت المعين فبلغ السيدة فدوى احترامي . ثم ودعهُ بخيت وذهب فاخبر سيدتهُ بما كان

اما شفيق فعاد الى بيتهِ ولبث ينتظر الميعاد المضروب وهو في هاجس

عظيم الى أن كان اليوم العاشر فركب عربة وأمر السائق فسار الى شارع شبرا والشارع يومئذ من اجمل منتزهات القاهرة يشرف على ارض قليلة السكن تتخللها مروج خضراء وحدائق غناء وعلى جانبي الشارع اشجار باسقة كثيفة ملتفة الاغصان تكاد لا تخرقها اشعة الشمس وكان الخديوي يخرج الى هذا الشارع بموكبهِ ايام الجمعة والناس حواليه جماعات من العظماء والامراء بمركباتهم احتفاءً بهِ وتيمناً بطلعتهِ اما في الايام الاخرى فالذاهبون اليهِ قليلون كما كانت الحال في ذلك اليوم

فلما وصلت العربة بشفيق الى قصر النزهة لم يحاول الدخول اليهِ لعلمهِ بامتناع ذلك الاَّ على بعض الناس فنظر الى الساعة فاذا هي في الثالثة ونصف وميعاد الاجتماع في الرابعة فامر السائق ان يسير بهِ ذهاباً واياباً لقضاء نصف الساعة ريثما تصل حبيبتهُ فلما صارت الرابعة ولم تأْت اضطرب باله فقال للسائق ان يعود بهِ الهوينا لعلهُ يلتقي بعربتها في اثناء الطريق فعاد حتى اقترب من منتصف الشارع فلم يشاهدها فاوجس من تاخرها خيفة وامر السائق فوقف اما هو فبت مفكرًا بسبب تأَخرها وقد اشتدت هواجسهُ حتى نسي موقفهُ الى ان نبههُ صوت المجري فالتفت فاذا بها عربة فدوى فخفق قلبهُ واخذتهُ رجفة الحب وعلا وجههُ احمرار الخجل ثم عقبهُ اصفرار الوجل لهول ذاك الملتقى وهو يفكر كيف يقابلها وقد زاغ بصره لتحديقهِ بعربتها فرأَى فارساً متلثمًا قد اعترض السائق وامرهُ ان يعرج الى سواء السبيل في منعطف هناك فلما رأَى شفيق جسارتهُ ظن انهُ يريد بحبيبتهِ سوءًا فارتعدت فرائصهُ من الغيظ واشتعل قلبهُ

غيرة على فدوى فقال للسائق اسرع الى حيث هذا اللئيم واشار بيدهِ الى ذلك الفارس الملثم فلما وصل او كاد نادى بهِ يا لئيم ما قدرك لتعترض السيدات على قارعة الطرق اخسأ يا اخس الرجال

اما الفارس فحوّل عنان جوادهِ ولم يفه ببنت شفة وعاد شفيق الى عربتهِ بعد ان اومأ الى فدوى ايماء التحية وسارت العربتان توًّا الى القصر فوقفتا ونزل بخيت ينظر في وسيلة للاستئذان بالدخول ولبث كلاهما يتسارقان اللحظ وهما في انتظار عود بخيت على مثل الجمر ليدخلا الحديقة ويتفاوضا بما تتحدث بهِ القلوب . وكان كلاهما خائفاً من عيون الرقباء وقد فعل بهما الحب فظهر تأثيرهُ واخذت بهما رجفتهُ وقوي عليهما الخجل حتى لم يقدرا ان يديما النظر بعضهما الى بعض وفيما هما على تلك الحالة سمعا صوت مسير عربة فحولا بصرهما اليها فعرف شفيق انها عربة عزيز فأوجس خيفة من مجيئهِ وقال هذا عزيز فتشاءمت فدوى منهُ وانزلت ستارة النافذة وهي ترتجف من الغيظ

اما هو فاوقف عربتهُ بازاء عربة شفيق وحياهُ تحية المشتاق فردَّ عليهِ التحية وقد ثقلت عليهِ مقابلتهُ فتجلد وخفَّض من اضطرابهِ وقابلهُ ببشاشة ولطف

فاقترب عزيز منهُ وهمس في اذنهِ قائلاً انني سررت جدًّا لائتلاف قلبيكما فلا احبّ ان اثقل عليكما فاسمح لي بالذهاب وهمّ بوداعهِ فشكرهُ شفيق ثم سألهُ عما جاء بهِ الى هناك

قال خرجت للنزهة فأسعدني الحظ بلقياكما فاسمح لي بالذهاب

وليوطد الله بينكما دعائم المحبة ثم ودعه وعاد الى عربته وامر السائق فعاد اما سبب مجيئه فهو انه ما انفك من ليلة الاوبرا يراقب حركات فدوى بمساعدة دليلته العجوز فعرف انها خرجت للنزهة ذلك النهار فتواطأ هو ورجل استأجره بدراهم على ان يتنكر ويعترض لها في الشارع منفردة فيأتي هو لنصرتها وانقاذها ظناً منه انها تحبه محبتها لشفيق لانه فعل ذلك وهو لا يعلم بتواطئها على هذا الاجتماع فلما اعترض الفارس لعربة فدوى كان عزيز مختبئاً فلما رأى شفيقاً وما ابداه تنحى ولم يره احد ثم رأى المركبتين سائرتين معاً نحو قصر النزهة فاحب استطلاع الحقيقة فاتى على اثرهما حتى اجتمع بهما كما تقدم وعاد وقد علم ان مكيدته انقلبت عليه ومحبة فدوى لشفيق تمكنت عراها فازداد غيرة حتى صوّرت له نفسه ان يفتك بشفيق ولو كلفه ذلك بذل الحياة

الفصل السادس عشر

﴿ الزرّ والدبوس ﴾

اما العربتان فما لبثتا قليلاً حتى عاد بخيت متهللاً فسألته فدوى عن الخبر فقال ليس في القصر احد من الخفراء والخدم يا سيدتي فقالت وكيف ذلك قال انهم خرجوا في جملة من خرج من الجند الى نظارة المالية لطلب المتأخر من رواتبهم وتبعهم من بقي من الخدم لاستطلاع النتيجة

فقالت فدوى ومتى كان هذا وتهيأت للنزول فاخذ بخيت بيدها وانزلها

ونزل شفيق من عربتهِ قائلاً وهما متوجهان الى الحديقة اما سمعت ما جرى اليوم من هذا القبيل

قالت لا

فقال ان الجنود المصريين قد اتحدوا وبعثوا من ينوب عنهم الى سراي المالية يطلبون رواتبهم فامسكوا برئيس النظار وكانت فدوى مقبلة اليهِ بنظرها فقاطعتهُ قائلة كيف آل الامر فقال آل الى تفرقهم حالما شاهدوا افندينا اسماعيل باشا مطلاً من احدى نوافذ السراي وهو لم يكلمهم الا كلمات قليلة فذهب كلٌّ الى مكانهِ

فقالت فدوى اني لم اسمع عمري حدوث مثل هذا في زمن اسماعيل باشا

فقال ان هذا لم يحدث الاّ بعد صيرورة الحكومة المصرية شوروية

وكانا يتحدثان وهما ماشيان الهويناء نحو الحديقة وبخيت يتقدمهما حتى دخلاها فاذا هما في حديقة غناء ملتفة الاشجار زاهية الازهار يانعة الاثمار قد جمعت بين عذوبة التنسيم واعتلال النسيم يتخللها ممارٌ مفروشة بالرمال والحصباء والماء موزع في جنباتها وفيها مرتفع اصطناعي يزيد تلك الحديقة بهجة واتقاناً فسارا اليهِ ولم يدهشهما شيءٌ من تلك المناظر الآخذة بمجامع النفوس لاشتغال فؤاديهما بما هو اسمى من ذلك

فنظر شفيق الى فدوى فاذا هي على اجمل ما يكون وقد زادها

خجل الحب بهاءً فابرقت عيناها ونَدي وجهها ولازمتها رجفة الحب فاطرقت في الارض ولم تقوَ على رفع نظرها اليهِ اما هو فلم يكن اقلّ منها اضطراباً وبقيا على ذلك برهة والحياء يمنع فدوى من النظر الى وجههِ او مفاتحتهِ بالكلام فاخذت تشغل نفسها بتلك المناظر لعلها تسكن شيئاً من هياج عواطفها واضطرابها لانها لم تعتد مجالسة الشبان ولا مخاطبتهم ولا سيما على انفراد اذ قد عاشت عيشة التحجب المتبعة عند عائلات الاتراك مع ان والدها لم يكن منهم ولكنهُ تخلّق باخلاقهم وسار على عوائدهم فشبت فدوى على ذلك · وما زالا على هذا الاضطراب حتى وصلا المرتفع وقد كساهُ الزهر وظللهُ الشجر فجلس كلٌّ منهما على مقعد متقابلين يفصلهما ممرٌّ الحديقة الضيق وكلاهما يتناظران بالحاظٍ ناطقة ولايقوى احدهما على اطالة النظر الى الآخر ولبثا زمناً لا يجسر احدهما على افتتاح الحديث ثم رفعت فدوى بصرها تفاتحهُ بالكلام فأرتج عليها لكنها تجلدت جهدها وقالت لقد سرّنا ماقرأناه في الصحف عن سبقك اقرانك ونيلك انعام الخديوي

فاطرق شفيق خجلاً ولم يجب بكلمة · فقالت ولكن بعض الناس ساءهم الامر لما يترتب على ذلك الانعام من الاسفار في انحاء الممالك الاوربية بضع سنين قالت هذا وخنقتها العبرات ولكنها تجلدت واحبت اتمام الحديث فلم تستطع

اما شفيق فكان ينكت الارض بشيءٍ كان في يدهِ اخفاءً لعواطفهِ حتى سمع منها ذلك ولحظ ما ارادت فقال لها وايم الحق يا حبيبتي اني لم اسرّ بهذا الانعام تمام السرور لابتعادي بهِ عن كل الناس وليس

بعضهم فانت عندي كل الناس · ولكن قد تكرهون شيئاً وهو خير لكم فعسى ان اصيب بسفري هذا ما يجعلني اقرب الى استحقاقك مما انا الآن فاني لا اجهل منزلتي منك

فقاطعتهُ قائلة حاشا لله يا منى فؤادي انك في الحقيقة فوق ما استحق واكثر مما اتمنى فنحن لا نقدّر الناس باموالهم وانما بصفاء جوهرهم وصحة ادبهم وشهامتهم وانت قد زينك الله بصفات شريفة لو تفرقت في جماعة لكفتهم ذلك غنيٌّ غنى لا يستحصل بالقوّة ولا بالحيلة وانما هي مواهب يخص الله بها من يشاء من عباده

فالتفت اليها شفيق وقد كاد يتلعثم لسانهُ وقال انك غنية عن الوصف وقد خصك الله بكمال الذات والصفات فلا يفي الكلام ولا يحيط بوصفك ايحيط بما لا ينفد فصفاء عنصرك يجعلك تصفينني بصفات انتِ الحقيقة بها لسموّ ادبك وتفرد صفاتك

اما هي فظهر اضطرابها جلياً مع محاولتها اخفاءهُ وكانت تسعى الى تخفيفه فتنظر الى جمال الحديقة وتتلاهى بمنظرها اللطيف فلم تقدر ثم اطرقت في الارض اخفاءً لاضطرابها ثم رفعت بصرها الى شفيق وقالت اني ممتنة من عواطفك الشريفة التي لا استحقها واسألك ايها الحبيب ان تقول لي هل انت حقيقة مسافر الى اوربا

قال ان شاء الله

قالت ولأي مملكة من ممالكها قال غالباً الى باريس في فرنسا او لندرا في انكلترا

قالت هل رضيَت والدتك بذلك

قال اذا لم يكن رضاؤها طوعاً فاذعاناً لحكم الضرورة

فتنهدت وهي مطرقة وكانت تنثر وردةً باناملها اللطيفة ثم قالت اني لأعجب كيف يمكنها البقاء لحظة بعيدة عنك ولكن ... وسكتت كأنها تريد كتمان شيء فبادرها شفيق مستفهماً عما ارادت السكوت عنهُ فقالت .. ولكن قد يمكنها الصبر على بعدك لانها والدتك وانت ولدها

فقال مندهشاً ماذا تعنين بذلك يا فدوى

قالت لا اعني شيئاً وانما ... وسكتت

فقال قولي يا حبيبتي ولا تكتمي عني شيئاً

فهمت ان تجيبهُ فخنقتها العبرات وكأنها المقصودة بقول الشاعر

ترنو اليهِ بعين الظبي مجهشةً   وتمسح الطل فوق الخدّ بالعنمِ

فاخذت شفيقاً الدهشة وخنق فؤادهُ فرشقها بنظر مملوء من الحب وطيب خاطرها وخفف عنها حتى سكنت عواطفها قليلاً فمسحت دموعها ورمتهُ بسهم من لحظها كاد يقضي عليهِ فقرب شفيق مقعدهُ منها وخاطبها بألطف عبارة قائلاً اتريدين ياحبيبتي ان تخبريني بما عنيتهِ بقولك

قالت لم اعنِ غير المفهوم من كلامي

فقال لم افهم منهُ ما يوجب هذا التأثر

فاجابتهُ قلت ان والدتك تستطيع الاصطبار على بعدك لانها والدتك

وانت ابنها اي انها لا تخاف ان تتخذ لك والدة سواها او بدلاً منها وكانت تخاطبهُ وهي تكاد تذوب خجلاً حتى لم تقدر ان ترفع نظرها اليهِ

فادرك شفيق مقصودها وقال لقد فهمت فحوى مقالك ولكن ذلك كان يجب ان يكون محل اضطرابي لامكان حصولهِ ان اخذتْ بك مطامع الدنيا اذ قد يتهيأ لك من هو افضل كثيرًا مني واما انا فبخلاف ذلك ولا اقول اني اعظم ثقة فيك مما انتِ فيَّ وانما ذلك شأن الجنس اللطيف

فقالت اذا كان جنسنا ضعيف الثقة بكم فذاك لما علمهنَّ اياهُ الاختبار والآن ما لنا وللجنسين « وظهرت على وجهها امارات البشر والانبساط » فقد قلت لك اننا لا نقدر الناس الاَّ بما فيهم من الصفات الادبية والشهامة فاذا كنت مسافرًا الى اوربا ألا تترك لنا تذكارًا منك

قال اترك لك قلبي اما يكفيك

قالت ذلك اكثر مما استحق وانما اريد منك عهدًا حسياً يبقى لديَّ تذكارًا لك وشاهدًا لما دار بيننا

فقال وقد بلغ منهُ الهيام مبلغاً عظيمًا ماذا اعطيك وقد وهبتك قلبي وكل عواطفي ثم امسك بيدها وقال « اعاهدك يا فدوى بالشرف والمحبة الطاهرة التي بيننا اني احافظ على حبك حتى الموت واقف لك نفسي ولا ارضى بدلاً منك قط » فأجابتهُ ولسانها يتلعثم قائلة وما تذكارك عندي ففتش جيوبهُ فلم يجد ما يليق بالتذكار فقال ليس لديَّ ما يليق بك يا حبيبتي فقالت ما القيمة عندنا للذهب والفضة فاخرج

لها زرَّ ذهبٍ من ازرار زنديهِ منقوشاً عليهِ الحرف الاول من اسمهِ واعطاها اياهُ فتأملتهُ ولما رأت فيهِ ذلك الحرف اعجبها كثيرًا فمدت يدها الى دبوسٍ ذهبيٍ مرصع كان في صدرها ونزعتهُ وقدمتهُ لهُ قائلة خذ هذا الدبوس فكلما نظرت اليهِ تذكرني

فاخذهُ شفيق وتأملهُ فاذا هو على شكل المرساة في غاية ما يكون من الاتقان لطيف الهيئة دقيق الصنعة فتبسم ونظر اليها نظرًا مملوءًا من الحب قائلاً لو علمت قبل الآن طلبك لكنت اولى منك بتقديم مثل هذهِ المرساة لانها رمز عن الامل وأؤكد لك ان املك في محله

دار بينهما كل ذلك الحديث وكلٌّ منهما يحاذر ان يمس ثوب الآخر اجلالاً للطهارة والعفة فما اتما المعاهدة الاَّ وقد ذهب بياض النهار اوكاد فنهضا يتمشيان في الحديقة والشمس ترمقهما مودعة من خلال الاشجار والازهار وهما مشتغلان عنها بتصوراتهما الحبية

الفصل السابع عشر

﴿ مجيء الرقيب ﴾

وفيما هما في ذلك جاءهما بخيت مسرعاً وهو يقول لشفيق ودّع سيدتي واخرج من الباب الآخر للحديقة وقد قلت لسائق عربتك ان يذهب وينتظرك هناك لان سيدي آتٍ فلعلَّ احدًا وشى بكما اليهِ فودعها شفيق وخرج مسرعاً من الباب الآخر صيانة لشرفها وعرج من

هنالك حتى جاء الشارع على مسافة من الحديقة فاذا بالعربة تنتظرهُ فركب وامر السائق بسرعة المسير فعاد

اما فدوى فتكدرت لهذهِ المصادفة ولكنها تجلدت وداومت التبختر في الحديقة كمن يتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة وبخيت الى جانبها ثم سارا يريدان الخروج واذا بوالدها داخل بغتة فهمت اليهِ وقبلت يديهِ فسلم عليها

وسبب مجيئهِ ان عزيزًا لما عاد من عندها اخذ يفتش عن وسيلة للايقاع بشفيق والتقرب من والد فدوى فلاح لهُ ان يذهب الى والدها ويغريهُ بالمجيء الى قصر النزهة فذهب اليهِ وحادثهُ بمواضيع مختلفة الى ان قال لهُ هل تمكث في البيت طول نهارك قال نعم قلَّما اخرج الا لشغل

قال هل لك ان نسير معاً للنزهة في شارع شبرا

قال الباشا هلمَّ بنا فان ابنتي قد ذهبت الى هناك فعسى ان نلتقي بها ونعود معاً

وكان قصد عزيز ان يأتي بوالدها ويراها مع شفيق فيصدق ما كان قد قالهُ لهُ عزيز ويعظم في عينيهِ ولذلك كان حديثهُ كل الطريق بشأن فدوى ووجوب الانتباهِ الى ذهابها واياىها منتظرًا ان يثبت كلامهُ لدى الباشا عند ما يصل ويرى شفيقاً وفدوى

فلما سارت بهما العربة يسيرًا خاف عزيز ان تظهر مكيدتهُ لدى شفيق فتظاهر امام الباشا بنسيانهِ شيئاً خطيرًا واستأذنهُ في ان يتبعهُ بعد قليل الى قصر النزهة فأذن لهُ فنزل وسار

اما الباشا فداوم مسيرهُ حتى اتى القصر فدخل الحديقة فلم يشاهد فيها غير فدوى وبخيت فتعجبت فدوى لمجيء والدها فسألتهُ عن السبب فقصَّ عليها الخبر ولكنهُ لم يذكر اسم عزيز فأدركت انهُ هو بعينهِ وقد فعل ذلك ليوقع بها او بشفيق ولكنها تجاهلت وبعد التمشي والانتظار لم يأت عزيز فركبا عائدين الى البيت

اما شفيق فلما وصل البيت كاشف والدتهُ بما كان من تعاهدهما واوصاها بكتمانهِ وان تجتمع بها اثناء غيابه ما استطاعت وتذكرها بوعدها لهُ لئلا يضعف البعد عهدها

الفصل الثامن عشر

﴿ سفر شفيق ﴾

وبعد بضعة اسابيع وردت الاوامر الى شفيق بالسفر الى إكس لدرس فنّ المحاماة فيها حسب امر الخديوي فتقدم والدهُ الى الجناب العالي ان يسمح بارساله الى انكلترا لانه يعرف الانكليزية جيدًا ولهُ وسائط اخرى للمطالعة هناك فاذن لهُ في ذلك

فلما علم عزيز بسفرهِ وقد اشتد بهِ الحسد حدَّثتهُ نفسهُ ان يفتك بهِ او يسعى الى إهلاكهِ بمكيدة اثناء سفرهِ الى لندرا فلم يرَ افضل من الاسكندرية لهذهِ الغاية لانهُ يكون فيها بعيدًا من اهلهِ واحبائهِ فجاء اليهِ ليلة سفرهِ وقضى عندهُ معظم الليل مظهرًا لهُ عظيم اسفهِ على فراقهِ واخبره

انهُ سيشيعهُ في الغد الى الاسكندرية فشكرهُ شفيق وحسب ذلك لهُ منَّةً كبرى

فلما كان الغد نزل والد شفيق الى المحطة لوداعهِ ونزل عزيز لمرافقتهِ فسافرا على القطار الحديدي قاصدين الاسكندرية وقضيا معظم الطريق في الاحاديث عن مصر وفدوى وعزيز يحاول اظهار رغبتهِ في اقتران شفيق بها ويعدهُ المواعيد المشدّدة بالسعي في ذلك

فوصل بهما القطار الى الاسكندرية ساعة الغروب فركبا عربة الى فندق على شاطئ البحر ولم يسبق لشفيق معرفة بالاسكندرية قبل ذلك اليوم فلما استراحا وغيرا ثيابهما قال عزيز هلمَّ بنا يا شفيق الى المدينة نقضي بعض الليل في مشاهدة اسواقها وبهجتها وزخرفها ترويحاً للنفس من وعثاء السفر فاجابهُ الى ذلك وذهبا حتى اتيا ساحة المنشية فاندهش شفيق لما شاهد من زخرف المدينة وسعة شوارعها واشراقها بالانوار الغازية التي تجعل ليلها نهارًا ومما يزيدها بهجة حوانيتها المضاءة بالانوار والمزينة بانواع السلع تزييناً يأخذ بالعقول ومما يدهش الناظر مبانيها الشاهقة المزخرفة بما على جدرانها من انواع النقوش المحفورة وما في شرفاتها من الرخام المجزع وغير المجزع فعجب شفيق لهذهِ المناظر واخذتهُ الدهشة فبهت الى ان تأبط عزيز زندهُ وذهب بهِ متلطفاً الى رصيف الساحة المرصوف بالرخام . والمنشية مستطيلة الشكل فيها كثير من شجر اللبخ وفي منتصفها تمثال هائل قائم على قاعدة مرتفعة من الرخام الابيض يمثل فارساً مهيباً وشيخاً وقورًا متسع الصدر واسع اللحية متعمماً بعمامة

كبيرة ومتزملاً بالجبة والقفطان وممتطياً جواداً من جياد الخيل ومتقلداً سيفاً منحنياً وقد وضع يده اليمنى على فخذهِ اليمنى كأنهُ ينظر الى جهة المدينة ليتأمل بهاءها ورونقها فازداد شفيق دهشة وسأل عزيزاً عن ذلك التمثال فقال انهُ تمثال المغفور لهُ محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية فمال بكليتهِ الى التأمل في تمثال ذلك الرجل العظيم الذي احيا الديار المصرية وانقذها من وهدة الدمار

اما عزيز فلم يكن همهُ الا تدبير مكيدة يهلك بها شفيقاً فلما رآه منذهلاً بمناظر الاسكندرية اخذ يمتدحها لهُ ويطنب بمحاسنها وهما يتبختران ويسرحان نظرهما بالمارّة افواجاً ومعظمهم في زي الافرنج وعلى وجوههم امارات الانبساط وعلائم الرغد والسعة فلم يستعظم عزيز شيئاً من ذلك لانهُ كان يعرف الاسكندرية معرفة تامة وكان مشتغل البال في امر الفتك بشفيق فلاح لهُ ان يذهب بهِ الى حان ويسقيهُ خمراً حتى يغيب صوابهُ فيفتك بهِ ولكنهُ تذكر ان شفيقاً لا يتعاطى شيئاً من انواع المسكر وانهُ يستنكف من مجالسة كل من يتعاطاها

وفيما هما على رصيف المنشية مرّا بحانوت قد ازدحم بالجلوس وهم يشربون شراب عرق السوس وصاحب الفندق شيخ متعمم بعمامة بيضاء مشدود النطاق لئلا يتعثر باذيالهِ لكثرة حركتهِ واسمهُ محمود وكان عزيز يعرفهُ من قبل ولهُ معهُ احاديث وصدقة فقال لشفيق هلمّ بنا نشرب شيئاً من منقوع عرق السوس فانهُ رطب منعش فاجابهُ شفيق ودخلا ولم يحصلا على ما طلباهُ من المشروب الا بعد الانتظار مدة لكثرة الازدحام

اما شفيق فلحظ بجاوسه في هذا الحانوت رجلاً في ثياب غريبة الزيّ كان يقتفي اثرهما عن بعد فلما جلسا مرَّ من امام الحانوت واسترق النظر اليهما ثم عاد ودخل فجلس على مسافة منهما وطلب من الشيخ محمود كاساً فجيء بها اليه زرقه. كان الجاوس في هذا الحانوت جماعات جماعات يتفاوضون ويتسامرون وفيهم الافرنج والاتراك والوطنيون وغيرهم على اختلاف الاجناس [illegible] يتباحث في (البورصة) والاسعار والارباح وآخرون في السياسة وآخرون في الملاهي وجميعهم فرحون لا تسمع فيهم إلا ضحكاً وقهقهة

اما شفيق فاشتغل بالهُ بامر الرجل المتنكر ولم يَمِل الى مكاشفة عزيز لئلاّ يظن فيهِ جبناً

وما زال عزيز تلك الليلة يترقب فرصة يهلك بها شفيقاً فلم يقدر فأجل ذلك الى الليلة التالية لعلمهِ ان الباخرة بريندزي لا تصل الاسكندرية الاَّ بعد ثلاثة ايام فسارا الى المنزل وذلك الرجل في اثرهما حتى طلعا السلّم فقلق شفيق لكنهُ حمل ذلك على محمل الاتفاق لسلامة نيتهِ فلما وصل غرفتهُ طلب العشاء وقضى بعض الوقت في محادثة عزيز ثم سار كلٌّ الى فراشهِ

اما شفيق فما استلقى على فراشهِ الاَّ تذكر الاهل والمحبوب وكانت هذه هي الليلة الاولى التي باتها بعيدًا عن والديهِ فتواردت عليهِ الافكار وتاه في عالم تصوُّراتهِ فألفهُ السهاد وجفاهُ الكرى حتى لم يطق الاضطجاع فنهض وجلس على كرسي بجانب السرير ثم استخرج من جيبهِ

اوراقاً قديمة ليقتل الوقت بقراءتها لعلها تأتيهِ بالنعاس فلم تكن الاّ لتزيدهُ سهاداً وارقاً فخرج الى غرفة الاستقبال لعلهُ يرى شيئاً من الجرائد فوجد صحيفة الاهرام فاتى بها واقبل على قراءتها حتى انتهى الى تلغرافٍ آتٍ من برينديزي مفاده «ان الباخرة برينديزي تصل الاسكندرية صباح كذا (اي غد ذلك اليوم) على غير المعتاد وتبرح المينا عند الظهيرة» فاهتز شفيق من الفرح لتلك المصادفة تخلصاً من الانتظار على غير جدوى ونهض لوقتهِ وشرع في ترتيب اثوابهِ ولف اوراقهِ فعثر على دبوس فدوى فخفق فؤادهُ وترقرقت عيناهُ بالدموع حتى لم يتمالك عن تقبيلهِ وحفظهِ في مأمن من ضياعهِ فلما اعدَّ كل حاجيات سفرهِ نظر الى الساعة فاذا هي الثانية بعد نصف الليل فاضطجع على فراشهِ وهو ينتظر اكتحال عينيهِ بالكرى فلم ينلهُ منهُ الاّ اليسير في آخر الليل

وفي الصباح جاء عزيز وهو لا يدري شيئاً من ارق صديقهِ وقد قضى ليلهُ في اعداد المكيدة ونصب الاشراك فاذا بشفيق قد تزمل باثواب السفر فسألهُ عزيز عن السبب فاطلعهُ على الجريدة فلما عرف ذلك خاف حبوط مسعاهُ فاخذ يحبب اليهِ الاقامة في الاسكندرية

فقال لهُ شفيق والله لو خيرتُ ما اخترت الاقامة في غير هذه المدينة لاني احببتها كثيرًا ولكنني الآن على اهبة سفر طويل ومشقة عظيمة وخير البرّ عاجلهُ فلعن عزيز في سرهِ الساعة التي وصلت بها تلك الباخرة لانها احبطت كل مساعيه فكظم غيظهُ واخذ يساعدهُ في التأهب فانزلهُ الى القارب حتى وصلا الباخرة وقد ركب معهما في ذلك القارب الرجل

المتنكر فلما لحظهُ شفيق عرفهُ فازمع انهُ اذا كان مسافرًا على تلك الباخرة لا بدَّ لهُ ان يتحرش بهِ ويعرف امرهُ لكنهُ رآهُ قد عاد في القارب الذي عاد فيهِ عزيز فما ادرك السبب

اما عزيز فوعد شفيقاً قبل وداعهِ ببذل جهدهِ في مساعدتهِ وتحبيب والدة فدوى اليهِ ثم عاد بصفقة المغبون وهو يتلوّن تلوُّن الحرباء من الكدر

فبقي شفيق لا انيس لهُ الاّ هواجسهُ فاقلعت الباخرة تمخر عباب البحر وهو لا يحوّل بصرهُ عن وادي النيل حتى حال الافق بينهما فودَّع الربوع والاهل والحبيب وردَّد قول ابي الطيب

بكيت يا ربع حتى كدت أبكيكا وجدت بي وبدمعي في مغانيكا
فعم صباحاً فقد هيجت لي طرباً واردد تحيتنا انا محيوكا

فزاد غرامهُ وخفق قلبهُ فاسند نفسهُ الى سرير كان امامهُ وهو بين الاسف على فراق الحبيب والمنطاع الى طلب العلى فاثرت فيهِ هذه التصوُّرات حتى كاد يغيب عن الوجود فشغل عواطفهُ بحركة السفينة ومنظر البحر واصوات المسافرين ولكنهُ ما لبث حتى عاد الى تأملاتهِ وبقي بين هذه التقلبات بضعة ايام الى ان قابلت السفينة شاطئ مرسيليا فنزل الى البر ومن هناك ركب القطار الحديدي الى باريس ومنها الى فرضة هافر على خليج المانش وركب من ثمَّ سفينة بخارية شقت بهم خليج المانش ثم دخلت نهر التيمس فوصلت مدينة لندرا فدخلها على قطار حديدي فهالهُ عظمها وكثرة الازدحام فيها وكان على المحطة معتمد من المدرسة جاء بامر الرئيس لاستقبالهِ فهنأهُ وذهب بهِ الى

المدرسة فلنتركهُ هناك يدرس المحاماة ونأتِ بالقارىء الى مصر

الفصل التاسع عشر

﴿ انقلاب سياسي ﴾

رجع عزيز الى مصر بخفي حنين وهو يضرس انامل الندامة ويندب سوء بختهِ لانهُ لم يقوَ على عرقلة مساعي شفيق او ان يحط من قدرهِ في عيني فدوى وقد ذهل عقلهُ في حبها واصبح في شرّ بال وسوء حال وهو يردّد

تريدين قتلي لا تريدين غيرهُ ولست ارى قصدًا سواكِ اريدُ

ولما زاد هيامهُ قال والله لأُحبطنَّ مساعيهُ ونهض يسعى الى نصب مكيدة تقربهُ من فدوى

وفي مساء الاربعاء الواقع في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٧٩ كانت الناس في القاهرة تتحدث باضطراب السياسة المصرية لحقد دولتي انكلترا وفرنسا على الخديوي حتى خشي الناس تنازلهُ

فتمنى عزيز حصول ذلك ظنًّا منهُ ان هذا الامر اذا تمَّ عاد على شفيق بالفشل اذ ربما يترتب عليهِ الغاء الامر الصادر بشأْن ارسالهِ الى لندرا فصار كلهُ أذاناً تسمع وأعيناً تبصر استطلاعاً للاخبار الجديدة وسار في ذلك الليل الى الباشا ليرى رأْيهُ في تلك الاشاعات

فلما استقرّ بهِ الجلوس قال عزيز ما رأْي سعادتكم في هذه الاشاعات

اتظن الدولتين تفوزان ويستعفي افندينا اسمعيل باشا

قال الباشا ان ابراهيم باشا المرسل من قبل افندينا الى الاستانة في هذا الشأن قد ارسل الاخبار البرقية ينبيء برضا الباب العالي عنهُ واما القنصلان فانهما ينصحان لهُ ان يستعفي

فقال عزيز وما سبب هذا الحقد عليهِ وما هي العلاقة بينهُ وبين هاتين الدولتين

قال الباشا لا يخفى عليك يا ولدي ان افندينا لكثرة شغفهِ بتحسين حالة البلاد وزخرفها ولا سيما مدينة القاهرة مع ما اجراهُ من فتح الترع وبناء الجسور التي اقتضت انفاق الاموال الطائلة بغير حساب قد اضطرتهُ الى استدانة الاموال الكثيرة من اغنياء ممالك اوربا ولا سيما انكلترا وفرنسا فبلغ مقدار ما على الخزينة المصرية نحوًا من تسعين مليوناً من الجنيهات المصرية فلما رأت الدول ذلك خافت ان لا يكون بين دخل الحكومة المصرية وخرجها نسبة او ان يكون في دفاترها ريب فبعث كلٌّ من انكلترا وفرنسا رقيباً لحساباتها فتألفت لجنة المراقبة ثم ارادوا المداخلة في اعمال الحكومة اكثر من ذلك بدعوى ان لاجراآت الحكومة اثرًا في خزينة البلاد المديونة فسعوا حتى امست حكومة الخديوي شوروية اي تحت مشورة مجلس النظار بعد ان كانت تحت تصرفهِ المطلق ثم ادخلوا في هذا المجلس ناظرين اجنبيين الواحد انكليزي والآخر فرنساوي وفي ايام هؤلاء قرر مجلس النظار رفت بعض الجنود اقتصادًا بالنفقات فثار المرفوتون وجاء نسبا لهم الى نظارة المالية وامسكوا برئيس النظار وناظر

المالية وتهددوها ولولا ظهور افندينا اذ ذاك لما ابقوا عليها فان كلمة واحدة منهُ اوقفتهم عند حدهم

وفي نهاية الامر رأى افندينا ان وجود الناظرين الافرنجيين يضايق عليهِ فعزلها وولى ناظرين وطنيين فتكدَّرت منهُ الدولتان وحقدتا عليهِ فسعتا ضدَّهُ في الاستانة ولا تزالان تسعيان حتى الآن والناس بين واجس وآمل

فلاح لعزيز ان الدولتين لا تنفكان حتى تنالا المأرب فينال هو مأربهُ ظناً منهُ ان تغيير الخديوي يقضي بالغاء الامر بسفر شفيق ودرسه على نفقة الحكومة وقضيا بقية وقت السهر في احاديث مختلفة

وفي الصباح التالي افاق عزيز من اصوات المدافع المؤذنة بتنازل اسماعيل باشا وتولية ولدهُ محمد توفيق باشا مكانهُ فلبث ينتظر ما يكون من التغيير وما يظهر من اعمال الخديوي الجديد فاذا بهِ امير محب لرعيتهِ راغب في مصلحتهم ساع الى ترقية شأن بلادهم فخاب امله وحبط سعيهُ لان ذلك التغيير لم يغير شيئاً من حظ شفيق فانهُ ما زال يدرس المحاماة في انكلترا وكل يوم في نجاح

الفصل العشرون

﴿ احمد عرابي ﴾

مرت الايام على عزيز وهو بين هاجس بالحب وواجس من الفشل حتى كاد يقتلهُ هيامهُ فلاح لهُ ان يكاشف والد فدوى بما في نفسهِ

ثم ظهرت الثورة العرابية وهي انهُ كان في جملة ضباط الجيش المصري ضابط يقال لهُ احمد عرابي وطني النزعة اصلهُ من احدى قرى مديرية الشرقية دخل في خدمة الجيش ايام المغفور لهُ سعيد باشا وما زال يترقى حتى بلغ في عهد الخديوي توفيق باشا رتبة امير الاي

وكان في الجيش المصري عدة من الضباط الشراكسة وكانت الرتب الجهادية العليا تمنح غالباً لهم اما المصريون فقلما يتجاوزون رتبة امير الاي وقد كان المصريون على عهد الخديوي اسماعيل باشا قلما يباح لهم التظاهر بما يخامر قلوبهم من الاسف لتمتع الغرباء باحسن مصالح الجند لما كان من نوع حكومتهِ القاضية بتفضيل الكظم على التظاهر بحرية الضمير . فلما تولى الخديوي توفيق باشا ورأى المصريون حبهُ لهم ولمصلحتهم وانعامهُ عليهم بالرتب والمصالح العالية وتخويلهم حقوقهم من التمتع بخيرات بلادهم شرعوا في مكاشفة اسرارهم واظهار ما كان في قلوبهم ولم يكن الخديوي يستنكف من اعطائهم حقوقهم . ولكن تلك الانعام اثرت في بعض الضباط المصريين تأثير النسيم اللطيف اذا مرَّ على نارٍ بدأ فيها الاشتعال ولم تكن مكشوفة للهواء فلم يكن لها لهيب. فكشفت وجاءها ذلك النسيم فانقدت وأي انقاد حتى اشعلت ما حولها وكادت تقود الى الدمار . ذلك كان تأثير الحرية التي وهبها الخديوي لرعيتهِ

وكان رؤساء الثورة ثلاثة ضباط احمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال فتعاهدوا على السعي الى التفرد بمصالح بلادهم وادارة اعمالها بانفسهم واستئصال الاجانب من خدمة الحكومة وخصوصاً الجهادية بجمعيات

سرية كانوا يعقدونها لذلك ووافقهم على غايتهم سائر الضباط المصريين ونظرًا لرغبة الخديوي في تعزيز جانب المصريين كما تقدم كان يجيب طلباتهم فيما يرى فيه مصلحتهم فبدأوا بعزل ناظر الجهادية وكان شركسياً ثم تطرقوا الى المداخلة فيما وراء ذلك وساعدهم على مرامهم ناظر الجهادية الذي خلف الشركسي وكان وطنياً متحالفاً مع عرابي وجماعته سرًا فاخذوا يعقدون الاجتماعات السرّية في منزل عرابي ويتفاوضون ويتحالفون على جمع الكلمة وبث تلك المبادي في سائر انحاء البلاد

فقرأ عزيز في جريدة الطائف التي هي لسان حال الحزب الوطني انهُ « سيحتفل في ٢١ جماد الاولى سنة ١٢٩٨ (٢٠ افريل سنة ١٨٨١) في سراي قصر النيل احتفالاً كبيرًا لما انعم بهِ الجناب العالي من زيادة رواتب الضباط والعساكر وتعديل القوانين العسكرية » فلاح لهُ ان يحضر ذلك الاحتفال وكان احتفالاً حافلاً اجتمع فيهِ رؤساء الجهادية والنظار ولما تمّ عقد الاجتماع نهض بين الحضور رجل عليهِ لباس العسكرية العليا وخطب يمتدح من انعام الخديوي وكان ذلك الخطيب ناظر الجهادية ثم قام بعدهُ رجل صغير القامة خفيف شعر اللحية سريع الحركة فخطب ايضاً يذكر انعام الخديوي فكان عزيز واقفاً في احد منزويات المكان فسأل عن الرجل فقيل لهُ انهُ رئيس مجلس النظار واخيرًا انتصب رجل في لباس الضباط ربع القامة ضخم العضلات اسمر اللون فلما وقف صفق لهُ الحضور وعلت الضوضاء حتى لم تعد تسمع الاَّ طلب سكوت الجمهور اصغاء لما سيقول الخطيب فبدأ بمقدمة

وانتهى الى شكر الخديوي والنظار وحثّ المصريين على محبة الوطن ورفع شأنهِ وكان كلما قال فقرة يصفق لهُ الجمع فرحين وكلهم آذان تسمع مقالهُ فتعجب عزيز لاستنائهم الغريب بخطيبهم فسأل ضابطاً امامهُ عن الخطيب نضحك من استفهامه مستغرباً قائلاً ألا تعلم من هو هذا البطل قال لا اعرفهُ فانك اظنك غريباً قادماً الى هذهِ البلاد من امد قريب قال كلاّ بل انا مولود فيها ولكن لم يقسم لي الحظ بمعرفتهِ

قال هو احمد بك عرابي رجل الوطن وكان قد سمع عنهُ ولم يره

فلما انتهى الاجتماع وانفض الجمهور خرج عزيز وهو يعجب للنفوذ العسكري وما لرجال الجهادية من المقام فودّ الدخول في تلك الخدمة ليكتسب الرفعة والمجد وطمع في القانون الجديد المانح الوطنيين امتيازات متمايزة وقيل لهُ انهُ بمساعدة درهمه يترقى في مدة قصيرة الى ان يصير ضابطاً من رؤساء الحزب الوطني فينال حظوة في عيني فدوى ووالدها

الفصل الحادي والعشرون

﴿ حادثة عابدين ﴾

اخذ عزيز يسعى في نيل مرغوبه فباشر قراءة القوانين العسكرية وحضور الاستعراضات وملاحظة الحركات الجندية الى ان كانت حادثة عابدين يوم احاط الجند بسراي الجناب العالي بالمدافع والفرسان وكان عزيز في جملة من حضر فرأى الطوبجية بالمدافع والجند محدقين

بالسراي والساحة غاصة بالجماعات من اجانب ووطنيين ونوافذ البيوت المجاورة واسطحتها ملأى بالنساء والاولاد ثم جاءت مركبة الخديوي يتقدمها الياوران فوقفت امام شرفة السراي (السلاملك) والتفت الخديوي مشيرًا الى عرابي ان يقترب فتقدَّم على جوادهِ مشهرًا سيفهُ ومن حوله الضباط للمحافظة عليهِ فأمرهُ باغماد سيفهِ والترجل وابعاد الضباط عنه ففعل ثم خاطبهُ بقوله

الم أكُ سيدك ومولاك

فقال عرابي نعم

فقال الخديوي · الست انا الذي رقيتك الى رتبة اميرالاي

فقال عرابي · نعم ولكن بعد ترقية نحو الاربعمائة

فقال الخديوي وما هو سبب حضورك بالجيش الى هنا

فقال عرابي لنيل طلبات عادلة

فقال الخديوي وما هي هذهِ الطلبات

فقال عرابي · هي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النوّاب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

فقال الخديوي · كل هذهِ الطلبات ليست من خصائص العسكرية

ثم انقلب الخديوي الى داخل السراي وجاء مكانهُ قنصل الانكليز · فقال لعرابي ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النوّاب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية البلاد لا تساعد على ذلك اما التصديق على

القانون فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليهِ اما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسنادهِ الى اسباب

فاجاب عرابي · اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهالي لم اقدم عليها الاّ لانهم انابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم واولادهم فهم القوَّة التي ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة واعلم اننا لا نتنازل عن هذهِ الطلبات ولا نبرح من هذا المكان ما لم تنفذ

القنصل · اذاً تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوَّة الامر الذي يخشى منهُ ضياع بلادكم

عرابي · ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا فاعلم اننا نقاومهُ اشدَّ المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا

القنصل · واين هذهِ القوَّة التي ستقاوم بها

عرابي · في وسعي ان احشد في زمن يسير مليوناً من العساكر طوع ارادتي

القنصل · وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت

عرابي · اقول كلمة ثانية

القنصل · وما هي

عرابي · لا اقولها الاّ عند القنوط

ثمَّ انقطعت المخابرات بين الفريقين نحوًا من ثلاث ساعات تداول القناصل والخديوي والنظار اثناءها داخل السراي وعزيز يفكر فيما سمعهُ من حديث عرابي وما عاين من جراءتهِ فاذا بالامر قد استقرَّ على اجابة

طلبات عرابي وتنفيذها تدريجاً لان بعضها يحتاج الى مخابرة الباب العالي فاصرَّ عرابي على تنزيل الوزارة قبل انصرافه فنزلت واستدعي شريف باشا وبعد اللتيا والتي قبل بان يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد لهُ رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامره وان يقدم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل وتشكلت الوزارة

الفصل الثاني والعشرون

﴿ عزيز افندي ﴾

فلما رأى عزيز ما نالهُ جماعة الجهادية من نفوذ الكلمة ازداد شوقاً للانتظام بتلك الخدمة ولكنهُ رغب في استطلاع خاطر فدوى وميلها للجهادية فاذا كانت تميل اليها يتيسر لهُ التقرُّب منها فذهب الى صديقته الدهياء وأطلعها على مراده فقالت اني استطلع رأيها وأُنبئك بالخبر اليقين فذهبت يوماً ببضاعتها كجاري العادة الى منزل الباشا ودخلت دار الحريم فلما درت نسوة القصر بمجيئها اتين ليشاهدن ما جاءت به من السلع وكن يتهادين في مشيهن وفي وسطهن فدوى بلباس البيت الذي زادتها بساطتهُ جمالاً وحسناً فلما قابلنها ترحابت بهن فسألنها عن بضاعتها فمدت يدها واستخرجت مشطاً مصنوعاً من سن السمك لطيف الشكل وقدمتهُ الى فدوى قائلة هل لك ان تتنازلي، يا سيدتي لقبول هذه الهدية الحقيرة لكي تتشرَّف بمسّ هذا الشعر الجميل وما جرَّأني على تقديمها

الاَّ ما يقال من ان الهدية على مقدار مهديها فاعجبت فدوى من ملاطفتها وقبلتهُ مرضاة لها

ثم مالت بنظرها الى ما جاءت بهِ تلك الدلالة من السلع ثم جلسن جميعهن يقلبن تلك السلع ويتحادثن في احاديث مختلفة حتى قادهن الحديث الى حادثة عابدين

فقالت دليلة ان رجال الجهادية هم زهرة البلاد ويدها اليمنى وبهم تفتخر الامة وعليهم حماية الحصون ودفع الاعداء وهم نصراء الوطن

فقالت فدوى . ان رجال الجند يا خالتي اذا كانوا رجالاً في الحروب كما هم في السلم فهم بالحقيقة كما وصفت اما الجندية بوجه العموم فانها اشرف المصالح

فقالت لها دليلة . اتفضلين يا سيدتي الضابط الحربي على التاجر او العالم وتبسمت

فادركت فدوى انها تريد مباغمتها بما يخجلها فلم تجب

فادركت العجوز ان فدوى تحب رجال الجهادية فلم تزد ثم عدن الى النظر في الامتعة فاشترين ما شئن وعادت العجوز الى منزلها فرأت عزيزًا في انتظارها فقالت لهُ ابشر يا ولدي لقد قضي الامر

قال وكيف ذلك

قالت انها تحب رجال الجهادية فافعل ما بدا لك

فتنهد عن قلب حزين ونطق بلسان خاشع وقال هذه هي كل العقبات يا خالتي وودعها وخرج الى والدها ليستطلع رأيهُ فاذا رأى

من الاثنين ميلاً للجهادية هان الامر عليه

فلما دخل عليهِ وجلس اليهِ رآهُ منقبض النفس مرتبك الافكار فبادأهُ بالحديث قائلاً هل حضرتم سعادتكم يوم عابدين وشاهدتم ما كان من فوز الجهادية فقد حبّب اليّ ذلك خدمة الجيش

فقال الباشا ان الخدمة العسكرية من اشرف الخدمات ولكنها محفوفة بالاخطار

قال عزيز لا خطر فيها الاّ ايام الحرب

قال الباشا ولكنك غني عن هذه الخدمة لما انت فيهِ من الثروة فاذا كانت حربٌ ما ذا تفعل

قال اقوم بما تقترفهُ عليّ مصلحتي « ولا بد دون الشهد من ابر النحل » (اراد التظاهر بالبسالة وقد اضمر في نفسهِ القرار اذا نشبت حربٌ)

فقال الباشا اذا كان لا بد لك من ذلك فاني اعطيك كتاب توصية لعرابي بك لاني اعرفهُ وهو يتوسط لك لدى ناظر الجهادية فيقلدك منصب ضابط ولكن هل لك معرفة بالحركات العسكرية

قال عزيز هذا ليس امرًا صعباً فقد تعلمت بعضها واقدر ان اتمم علمها بسهولة

فكتب لهُ كتاباً الى عرابي يوصيهِ ان يشمل عزيزًا بانظارهِ فاخذ عزيز الكتاب وودعهُ وسار حتى وصل منزل عرابي فاذا فيهِ جماهير الناس والاعيان بين منتظرٍ امرًا ومتظلم من امرٍ يدخلون اليهِ الواحد بعد الآخر يتفاوضون او يستعطفون وهو يقابل كلاًّ حسب مقامهِ ويجتهد

في ارضاء الجميع حتى جاء دور عزيز فدخل عليهِ وقد زرَّ ثوبهُ اعتبارًا فقابلهُ بالبشاشة واللطف وبعد تلاوة الكتاب قال لهُ أَلعلك عزيز افندي جندب ابن المرحوم السيد جندب المشهور . قال نعم . فاجلسهُ الى جانبه وقال ما الذي حملك على الانتظام في الجهادية وانت في غنى عنها

قال رغبة في خدمة الوطن

قال عرابي والله لقد اعجبني حبك للوطن المصري وانت مغربي الاصل على ما اسمع . قال عزيز ان جدي رحمهُ الله جاء من بلاد المغرب للخدمة في جيش محمد علي باشا فاقام في مصر واتخذها وطناً لهُ وانا اعد نفسي وطنياً فقال عرابي بورك فيك ولكن يطلب منك ان تتعهد بالمساعدة المالية للجهادية عند الاقتضاء خدمة لمصلحة البلاد

فندم عزيز على اقدامه ولكنهُ لم يعد يستطيع الاحجام فلم يسعهُ الَّا الاجابة رغماً عنهُ وحذرًا من نقمة عرابي عليهِ فقال انا وما املك تحت امر سعادتكم

فشكرهُ عرابي واطنب بشهامتهِ وقال لهُ ان مثلك يستحق التشرف بخدمة العسكرية ثم امر فكتب لهُ كتاب الى ناظر الجهادية يوصيه بهِ

فأَخذ الكتاب واتى الناظر فوعدهُ بانجاز طلبهِ وبعد مدَّة البسوهُ الحلة العسكرية بالشريطة الصفراء القصبية على الكمين وهي علامة رتبة الملازم وصار من ذلك الحين يتدرب في الحركات العسكرية

الفصل الثالث والعشرون

﴿ التعرض في الطريق ﴾

لقد كانت فدوى والله اعلم بحالها بعد فراق الحبيب من اشتغال البال وتباريح الهوى فلا ترتاح الاّ الى ذكر الحبيب او استطلاع احواله فكانت تجتمع احياناً بوالدتهِ سرًّا وهي لا تقدر ان تكشف لها قلبها وما يطويهِ من الحب لشفيق مراعاة للحياء والعادة غير ان والدة شفيق كانت تقبل بكليتها على مقابلة فدوى والاحتفاء بها حتى انها احبتها محبتها لشفيق وقد اجتمع قلبهما على حبّ طاهر مقدس فكانت تحدثها عن شفيق ونجاحهِ وما ذكرت الجرائد الوطنية عنهُ فيقضيان مدة في الاحاديث عنهُ

ففي احد الايام خرجت فدوى بمربتها الى شارع العباسية لترويح النفس وما ترويح النفس الاّ ان تمرّ ببيت الحبيب وترمق الحيّ وآلهُ للاستئناس برؤيتهِ وما كان استئناسها الاّ بقول الشاعر

تلفّتُّ نحو الحيِّ حتى وجدتني وجعتُ من الاصغاء ليتاً واخدعا
واذكر ايام الحمى ثم انثني على كبدي من خشية ان تصدعا

وفيما العربة سائرة بها وبخيت امامها لحظت من النافذة فارساً يحاذي مركبتها بسيرهِ فاشارت الى بخيت ان يأمر السائق بسرعة المسير غير ان الاسراع لم يخجل ذلك الطفيلي فما زال سائرًا على محاذاة المركبة اسرعت

ام ابطأَت فاغتاظت فدوى وقالت لبخيت ما بال هذا لا يبرح محاذياً عربتنا فأَمر بخيت السائق ان يوقف العربة فلما وقفت داوم الفارس مسيرهُ بضع خطوات ثم لوى شكيمة جوادهِ وعاد الهوينا حتى حاذى المركبة او كاد وهيئة هذا الفارس تبين انهُ من رجال الجهادية عليهِ لباس الضباط بالطربوش العزيزي والشرائط القصبية وقد امال طربوشهُ على جبينهِ حتى يظهر شعرهُ المصقول فحاول النظر الى فدوى فأَنزلت ستارة النافذة وانزوت داخل العربة

فلما رأى بخيت تماديهُ وشراستهُ نظر اليهِ بشطر عينهِ وقد عرفهُ قائلاً ما غرضك يا افندي

قال عزيز لا غرض لي ولكني احيي حضرة السيدة

قال بخيت لم تجرِ العادة عندنا على مثل هذا

قال لطفها جرَّأَني

فرمقهُ بخيت باحتقار قائلاً الأَليق بك ان تمرَّ بطريقك وتحفظ شرف الحلة التي انت لابسها

فقال عزيز اعلم انك تخاطب ضابطاً جهادياً (واراد ان تسمعهُ فدوى ظناً منهُ انها اذا علمت مكانتهُ ترفع الستارة وتنظر اليهِ)

فقال بخيت قد دلَّنا لباسك على مقامك ولكن رجال الحرب لا يصقلون شعورهم ولا يتطيبون تطيب المخدَّرات ولا يعترضون المارَّة وهم حامية البلاد ودعامة الامن وليسوا فزَّاعة لتخويف ابناء السبيل وايم الله لولا احترام كسوة العسكرية التي عليك لأَذقتك ما لم تذقهُ عمرك

قال عزيز وهو ينتفض من الغضب والخجل ليس من مقامي مخاطبة العبيد وانما انا اخاطب سيدتك

قال بخيت احفظ مقامك وسر واكفنا شرَّ هذا اليوم

قال عزيز قل لسيدتك ألعلّ شفيقاً الذي لا يزال غرًّا من تلامذة المدارس اولى بالمحادثة من ضابط جهاديّ

قال بخيت وقد اشتدَّ غضبهُ وغاب عن الصواب اخسأ ياذميم وسر في طريقك قبل ان تذوق الوبال قال ذلك وامر السائق فعاد الى البيت وعزيز قد اذهلهُ الفشل واخذهُ الجمود لحبوط مسعاهُ فلما عاد الى صوابهِ لم يجزم بنفور فدوى منهُ لانها لم تشافههُ ببنت شفة فحمل ذلك على حذرها من بخيت لئلاّ يطلع والدها على مكالمتها اياهُ

اما فدوى فعنّفت بخيتاً لاطالة الكلام معهُ الى هذا المقدار فقال يا سيدتي انهُ مؤمّلٌ ولا اخجل ان اقول بما يقصر عن نيلهِ ولا يراهُ في الحلم ويخال لهُ ان لباس الجهادية يزيدهُ اعتبارًا في عيون الناس ولم يفطن ان المرءَ باصغريهِ لا ببرديهِ ولكن مهلاً ياسيدتي سأُريهِ ما لم يرهُ عمرهُ ولولا حرمة وجودك الآن لأَذقتهُ الهوان

فقالت ألا تعلم ان للجهادية هذهِ الايام شأْناً عظيمًا ولهم الامر والنهي فاذا ارادوا امرًا لا يخالفهم فيهِ مخالف فاخشى اذا اتصل الامر بوالدي ان يلومنا على ذلك فالاعراض اولى بنا

قال بخيت لا ريب ان نيل الجهادية ما طلبوهُ يوم حادثة عابدين يعد فوزًا تاماً ولكن عرابي اخذ بعد سفرهِ بالايهِ الى رأس الوادي يبث

مبادئهُ في مشايخ عربان الشرقية وغيرهم ويحثهم على الاتحاد والتحالف وهذا ما اوجب تحذر حكومتي فرنسا وانكلترا من هذا التظاهر وقد علمت انهما بعثتا الى الجناب العالي تتبرعان بالمساعدة في كل ما يؤول الى تأييد سلطة سموّهِ

فقالت فدوى وما الموجب الذي اوجب مداخلة هاتين الدولتين في مصالح البلاد

قال بخيت لان لهما على هذه الديار ديناً فيحافظان عليها محافظة على حقوقهما

ولما وصلت بهما العربة الى المنزل اوصت فدوى بخيتاً بكتم الامر عن والدها

الفصل الرابع والعشرون

سفر والدي شفيق الى انكلترا

عاد عزيز بصفقة المغبون وقد ازدادت هواجسهُ وذهل عقلهُ فصار في شرّ بال وسوء حال وقد اضناهُ حبهُ لفدوى وحسدهُ لشفيق وحقدهُ على بخيت فسعى للانتقام من بخيت لئلا يكون عثرة في سبيل تقربهِ من فدوى وفيما هو يعمل المكيدة صدرت لهُ الاوامر بالشخوص مع ضباط آخرين الى الاسكندرية فصعب عليهِ الامر واحسَّ بثقل الخدمة العسكرية التي لا مردَّ لاوامرها فسار وقلبهُ في العاصمة

وفي اثناء غيابهِ وقع الخلاف بين مجلس النوّاب والوزارة على بعض مواد لائحة المجلس المذكور واشتد الخصام حتى آل الى استعفاء الوزارة وتأليف وزارة جديدة برئاسة محمود سامي وتقلد احمد عرابي نظارة الجهادية فيها مع رتبة لواء (باشا) فكان ذلك موجباً لتشامخ الحزب العسكري ورفعة منزلتهِ فاستفحل امرهُ ورافق ذلك تنقل في الالايات فجاء الاي عزيز الى مصر وسعى عرابي لترقية جانب من الضباط فاصاب عزيزًا من هذه الترقية ان اعطيت لهُ رتبة يوزباشي فصارت الشرائط ثلاثاً ولا تسل عن اعجابهِ بذلك الترقي بعد ان استفحل امر الجهادية واصبحت أزمة الأحكام في أيديهم مما آل الى خوف الدول الاوربية على مصالحها بمصر فاتحدت دولتا انكلترا وفرنسا وقدمتا للحكومة الخديوية لائحة تطلب فيها تنزيل الوزارة وابعاد عرابي ورفقائهِ زعماء الثورة مع حفظ نياشينهم ورتبهم والقابهم

اما الوزارة فلم ترَ بدًّا من الاستعفاء وكانت دوارع الدولتين راسية حينئذٍ في مينا الاسكندرية فاستعفت في ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ فعظم ذلك على العرابيين ولم يقبلوا بهِ وما زالوا حتى اعادوا الوزارة بالقوَّة الجبرية فنتج عن هذا زيادة الضغائن على الاجانب مع ان عرابي كان يتابع ارسال المناشير للقناصل بضمن الامن والسلام حتى كانت مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ التي ذبح فيها قسم كبير من الافرنج ونهبت بيوتهم فصدرت الاوامر من الحكومات الاجنبية الى رعاياها بمهاجرة القطر المصري حالاً في مراكب اعدت لذلك على نفقة

الحكومات فكان ذلك موجباً لسرور عزيز لان تلك المنشورات تقضي بسفر والدي شفيق لارتباطها بقنصلاتو انكلترا فتحبط آمال فدوى وتضطر الى القبول بهِ

اما فدوى فلما علمت بتلك المنشورات ذهل عقلها وغاب صوابها فاستدعت بخيتاً وكاشفتهُ بوجلها قائلة ان والدي شفيق مسافران من هذه الديار فما تكون حالي اذا اضطر البعاد شفيقاً الى اهمال العلائق والمودة بيننا ثم تنهدت عن كبد حرّى وتأوّهت وقد اذهلها الحب فسحت الدموع ونسيت ان بخيتاً بحضرتها فقالت «اينكث بالعهد آه يا الهي لا ترمني بوهدة اليأس لا لا .. اني اجلُّ ذلك الشهم الباسل عن الخيانة ولكن اذا قضت عليهِ الاحوال بنكث العهود ماذا اعمل ....

ها ان والديهِ مسافران الى اوربا ولا يستطيع المجيء الينا والبلاد تتقد بنيران الثورة العسكرية واهلها يبرحونها وانا المسكينة لا استطيع المجاهرة بما في الفؤاد حتى يقتلني الهوى ويقضي عليَّ بتباريحهِ فماذا يوسيني او يوسّيني على الفراق وانا ارى الشمس على حيطان بيتهِ فاحسبها اياهُ وربما اشاهد والدتهُ بغتة فأُبهت وتكاد تفارقني الحياة. فمن اين لي الصبر على هجرهِ » ثم عمدت الى مسند امامها اسندت اليهِ يديها واستلقت بهما رأسها واخذت تصعد الزفرات فلما شاهد بخيت منها هذا لم يتمالك عن البكاء فقال لها يا سيدتي خفضي من اضطرابك فليس الامر على ما تتوهمين فان شفيقاً قد خصهُ الله بارقّ العواطف ومن كان مثله لا ينكث عهدًا

فلما سمعت اسم محبوبها رفعت رأسها كأَنها هبّت من رقادٍ عميق

فرأت بخيتاً امامها فخجلت من نفسها وقد نسيت انها استدعته فقالت له وهل انت مطلعٌ على كل ما أبديته فياللخجل فقال لها بخيت لا يصعب عليك الامر يا سيدتي فالحب لا يخفي والعواطف لا تقهر الى اين تظنين والدي شفيق يتوجهان فقالت قد فهمت من والدته انهما يريدان انكلترا لان شفيقاً هناك

فصمت بخيت مفكرًا ثم قال وما المانع يا سيدتي من ان تكتبي اليهِ انك ترغبين في الاطلاع على احوالهِ فعسى ان تكون النتيجة على خلاف ما تظنين وما الامر الاَّ لله

فقالت اخاف ان كتابتي اليهِ تهيج فيهِ ساكنات الحب وتحمله على المخاطرة بنفسهِ فيجيء الى البلاد وهي كما تعلم من الهياج والاضطراب فاكون قد جنيت عليهِ وعلى نفسي

فقال بخيت ارى الافضل اذًا ان تستطلعي افكار والدتهِ فاستصوبت رأيهُ وبعثتهُ اليها لتعيين زمنٍ يمكنها فيهِ الاجتماع بندوى

فلما اجتمعت ودار الحديث بينهما ادركت سعدى غرضها من الاجتماع فبينت لها بكلام لطيف حالة سفرها هي وزوجها وان الاسطولين الانكليزي والفرنساوي في مينا الاسكندرية منذ ايام وهما لا يجاهران بالعدوان الا اذا رأيا من خطرٍ على حياة الجناب الخديوي فيستخدمان حينئذٍ القوّة ولو كلفهما ذلك هدم ثغر الاسكندرية وخراب سائر القطر لانهما دولتان قويتان

ثم قالت اما نحن فقد عزمنا على الجلاء من هذا البرّ خوفاً من

الخطر على حياتنا وربما يداخلك الريب فيما اقول لاننا لسنا اجانب لكننا يا ابنتي نخاف الرقباء ولا نأمن معهم البقاء والبلاد على هذه الحال والاغلب اننا نسافر الى لندرا حيث نشاهد شفيقاً

فاجهشت فدوى في البكاء وأطرقت حياءً وظهر اضطرابها جلياً فاجهدت نفسها باخفائهِ فلم تقدر فلحظت سعدى منها ذلك فضمتها الى صدرها وقبلتها والدموع ملءُ عينيها وقالت خففي عنك يا ابنتي والذي فرّقكما قادر ان يجمعكما في وقت قريب

فقالت لها فدوى اعذريني يا سيدتي لما ظهر من اضطرابي فقد غلبت عليَّ عواطفي

وفيما هما في الحديث جاء بخيت ملهوفاً وهو يقول ان سيدي الباشا قد بعث الينا بالاسراع الى البيت لانهُ تلقى من عرابي باشا امرًا بالذهاب الى الاسكندرية حالاً ولا بدَّ لهُ قبل ذهابهِ من مشاهدتك فنهضت للحال وودَّعت سعدى وداع السفر فسألتها اذا كان عندها خبر لشفيق فخجلت في اول الامر ولكنها تجلدت وقالت بلّغيه ما تشائين من السلام واذا اردت ان تكتبي اليَّ حين وصولك فليكن الكتاب باسم بخيت وهو يوصلهُ اليَّ ثم ودعتها ثانية وخرجت فشيعتها سعدى بنظرها الى ان سارت بها العربة وتوارت عن النظر

اما فدوى فأخذت تحاول اخفاء اضطرابها لئلا يلحظ منها ابوها شيئاً فيريبهُ امرها فلم تقدر فلما وصلت الى البيت ولحظ ابوها اثر الدمع على عينها سألها عن السبب فقالت لهُ لما بلغني امر سفرك بهذا الاضطراب

السياسي لم استطع امساك الدمع فطيب خاطرها وهوّن عليها وقال لها اني مسافر اذعاناً لامر رئيس الحزب العسكري فلا يصعب عليك ذلك اذ ليس في الامر ما يوجب الخوف فالبثي مع والدتك في البيت بطمأنينة وساوصي بخيتاً بكما وبكل من في القصر ثم ودع الجميع وبرحهم على القطار الحديدي الى الاسكندرية

اما سبب سفرهِ فهو ان عزيزًا بعد تحققهِ جلاء والدي شفيق الى انكلترا اخذ يسعى الى ابعاد والد فدوى تذليلاً لها حتى يخلو لهُ الجوّ فوشى بهِ الى عرابي انهُ لا يؤمن من بقائهِ في القاهرة بعد سفر الجند الى الاسكندرية لشدة رغبتهِ في مخابرة الاجانب فبعث اليهِ عرابي ان يسير حالاً الى الاسكندرية

اما عزيز فبذل قصارى جهدهِ ليبقى في القاهرة طمعاً بنيل مرغوبهِ لعلهُ يقوى على اختلاس فدوى اثناء هذا الانقلاب السياسي

اما فدوى فلم يكن يسليها امرٌ ولم تكاشف احدًا بسرّها الاّ بخيتاً لانهُ هو وحدهُ محل امانتها وكانت تخشى تعدي انفار الجهادية الذين لا يميزون بين العدوّ والصديق ولا يفهمون ما يجاهدون من اجلهِ الاّ النفر اليسير من ضباطهم فاضطرتها الحال الى الاعتزال في البيت

الفصل الرابع والعشرون

﴿ تذكار عزيز ﴾

ففي ذات يوم من ايام شهر يوليو سنة ١٨٨٢ كانت فدوى في غرفتها تائهة في تيار من الهواجس والهموم ووالدتها في غرفة اخرى تهتم ببعض الشؤون فسمعت فدوى قرع جرس الدار فسألت احد الخدم عن القارع فقال ان في الباب الدلالة بائعة الملبوسات والسلع تريد التشرف بمقابلتك قالت فلتدخل فدخلت حتى اتت غرفة فدوى فرحبت بها واجلستها ثم سألتها عن بضاعتها واخذت تقلب فيها ثم دار الحديث على شؤون مختلفة اخصها الاخبار الحاضرة

فقالت دليلة ان جنودنا المظفرة ستغلب جنود الفرنجة لان البوارج لا تزال في مياه الاسكندرية تنتظر عقد المؤتمر في الاستانة ولكن مولانا السلطان غير راض بعقده

فقالت فدوى وما ظنك بنتيجة هذه الاعمال

قالت العجوز ان النتيجة يا حبيبتي تحرير البلاد من العنصر الاجنبي فتبقى مصالح الحكومة في ايدي ابناء الوطن وسيتم كل ذلك بهمة الجهادية المصرية التي البستنا المجد والفخر فنطلب الى الله ان يؤيدها بالنصر ويكلل اعمالها بالنجاح

فقالت فدوى تلك اعمال الله يؤتي ما يشاء لمن يشاء فما عندك الآن من السلع الجديدة

قالت عندي ما يليق بجمالك وكمالك ومدت يدها الى جيبها واخرجت علبة صغيرة وفتحتها فاذا فيها خاتم ذهب وقدمتهُ لها فاعجبها شكلهُ فتناولتهُ وارادت التأمل فيهِ فامسكتهُ دليلة والبستها اياهُ في بنصرها قائلة لتجربن اتساعهُ فلما لبستهُ جعلت تتأمل فيهِ فلمحت على فصهِ نقشاً فقرأتهُ فاذا فيهِ «تذكار عزيز» فنزعتهُ حالاً من يدها وقد احمرَّ وجهها وبدت عليهِ علائم الكدر فرمت بهِ اليها قائلة خذي خاتمك واقصري

فقهقهت دليلة حتى بانت اسنانها المهتومة واختفت عيناها المحجرتان وقالت مظهرة المزاح ما اجفلك يا ابنتي قلت لم يجفلني شيءٌ لكنني فهمت انهُ ليس برسم المبيع «وقد ادركت انهُ مرسل عمدًا من شخص معين فتصرفت بما تقتضيهِ الرزانة ويوجبهُ المقام» فأعادت الكلام دليلة قائلةً ان لم يكن برسم البيع فقد يكون برسم التذكار

فقاطعتها فدوى قائلة اقصري يا دليلة واعلمي ان مثلنا لا يقبل تذكارًا من ابناء الازقة فخذي تذكارك وارجعيهِ الى اهلهِ

فنظرت اليها مستعطفة وقالت لا تحكمي ياسيدتي قبل استيعاب الخطاب

فقالت فدوى وقد اخذ التأثر منها مأخذًا عظيمًا لا حاجة بي الى الاستيعاب واطالة الكلام فاذهبي من حيث اتيت ثم تركتها وتحوّلت عنها فخرجت العجوز لا تلوي على شيءٍ

فعادت فدوى الى غرفتها وبعد قليل جاء بخيت فاطلعتهُ على ما كان فقال لها لا يزال هذا اللئيم على غيهِ فلعنة الله على دهر يستنسر فيهِ البغاث فلا يرتدُّ حتى اوردهُ حتفهُ او اذيقه من الاهانة ما لم يذقهُ عمره

الفصل الخامس والعشرون

السرّ المكتوب

اما ما كان من امر سعدى فانها لبثت بعد ذهاب فدوى تفكر بها وبما زينها الله من رقيق العواطف ودقيق الاحساس وكمال الذات ولطيف الصفات فكانت تعيد تاريخ معرفتها بها وتتذكر اجتماعاتها من حين سفر شفيق فلم تذكر عنها الا ما يزيدها اعتبارًا في عينيها فأَخلت لها مكاناً في قلبها وصارت تتلهف على رؤيتها ومكالمتها لما رأت من الارتياح اليها فصارت ترى ابنها سعيد الجدّ اذا حظي بتلك الدرَّة اليتيمة

اما ابراهيم فلم يطّلع على شيءٍ من امر فدوى وشفيق اذ لا يعرف سوى بيتهِ ومحل شغلهِ ولا سيما من يوم فتحهِ الصندوق وسفر شفيق لانهما زادا انقباضهُ عن معاشرة الناس ولولا ذلك لما بقي حب شفيق لفدوى مكتوماً عنهُ فلما صدرت الاوامر بسفر القنصلاتو اخبر امرأَتهُ واوصاها بالتأَهب للسفر واعلمها انهُ يريد الشخوص الى مدينة لندرا لمشاهدة شفيق

فشرعا في التأَهب وتحضير الامتعة السهلة الحمل ووضعوها في الصناديق لارسالها بالسكة الحديدية الى الاسكندرية واذ هما في ذلك وقع نظر سعدى على الصندوق المعهود فخفق قلبها وتاقت الى استطلاع ما فيهِ فقالت لزوجها ها اننا مسافرون على بركة الرحمٰن ولا ندري ما نصيب في سفرنا هذا من خيرٍ او شرّ فارغب اليك ان تطلعني على

حكاية هذا الصندوق

فبهت ابراهيم هنيهة ثم قال اما اطلاعك على تلك الحكاية فقد قلت لك انهُ لم يجئ ميقاتهُ ولكن ... وسكت مفكرًا ثم عاود الحديث قائلاً ولكنني من جهة اخرى اخاف ان اصاب بسوء في سفري هذا فينمحي خبر هذهِ الضفيرة من العالم اذ لا يعلم امرها الا انا فامهليني ريثما اعود اليك قال ذلك ودخل غرفتهُ واغلق بابها وامرأتهُ تنتظرهُ خارجاً وهي لا تدري ماذا يفعل

وبعد ساعة خرج ابراهيم مكفهر الوجه وفي يدهِ ورقة مختومة فاقترب من سعدى وامسك بيدها قائلاً اقسمي لي بمحبة ولدنا الوحيد شفيق انك تحافظين على ما اقولهُ لك في شأن هذهِ الورقة فأقسمت فقال لها اليك هذهِ البطاقة المختومة ولا تفضيها او تطلّعي على ما فيها الا اذا اصابني ضرٌّ في سفرنا هذا او بعدهُ فعند ذلك تفضّينها وتطلعين على ما فيها وارغب اليك العمل بمقتضاها والحرص عليها

فتناولتها وقلبها يرتجف وقد اغرورقت عيناها لتأثرها من خطاب زوجها وقالت لا اراني الله بك سوءًا وجعلت البطاقة في جيبها ريثما تختار لها مكاناً آخر أميناً تجعلها فيهِ

ولا يخفى على القارىء ان تلك الورقة لم تكن الاَّ لتزيدها قلقاً على قلق فحدَّثتها نفسها مرارًا ان تفضها انقيادًا لعواطفها ولكنها كانت تتذكر القسم فترجع

ومضى ذلك الليل وهما يعدّان معدات السفر وكان خادمهما اكثر

اهتماماً منهما لانهُ اشتاق الى سيدهِ شفيق وكان يحبهُ حباً مفرطاً وفيما هو يهيئ الامتعة قال لهُ ابراهيم هل انت مسرور بالذهاب معنا يا احمد

فانتصب الخادم أمام سيدهِ بوقار وقال كيف لا وانا مشتاق الى رؤية سيدي شفيق ويعلم الله اني لا انسى كرم اخلاقهِ ابد الدهر وقد شكرت الله لوجودهِ هذه المدة في بلاد الانكليز حرصاً على حياتهِ

فقال ابراهيم لا شك انهُ نجا من مخالب الثورة العرابية

قال كلاَّ يا سيدي ان ذلك ليس محل خوفي ولكنني كنت اخاف عليهِ من دسائس احد اصدقائهِ الذي رافقهُ الى الاسكندرية قال ذلك وهو يحرق اسنانهُ غيظاً من عزيز

قال ابراهيم ما تعني ومن تريد

قال اريد صديقهُ عزيزًا ... واعترف لك يا سيدي انني كنت خائفاً على سيدي شفيق منهُ فلما علمت بمرافقتهِ اياهُ الى الاسكندرية لم يهدأ لي بال حتى رافقتهما متنكرًا الى الاسكندرية ولم ارجع حتى ركب سيدي الباخرة على مرءًى مني

فقال ابراهيم انك كثير البلبال يا احمد وما الذي نخشاهُ على شفيق من هذا الرجل وهو اعزّ اصدقائهِ

قال ربما كنت غير مصيب ولكني لا ادري ما حملني على ذلك فكأَن قوَّةً الهية دفعتني الى الذهاب قال ذلك وعاد الى ترتيب الامتعة وحزمها واستمر في ذلك طول الليل

الفصل السادس والعشرون

ضياع شفيق

لبثت فدوى بعد سفر عائلة شفيق على مثل الجمر تنتظر كتاباً من سعدى وبعد ثلاثة اسابيع اخذ بخيت كتاباً باسمهِ ففضهُ فاذا طيه آخر برسم فدوى فاتاها بهِ فلما تناولته اختلج قلبها فرحاً وارتعشت يداها حتى لم تقوَ على فضهِ فدخلت غرفتها واغلقت بابها حذرًا من مفاجئ ثم قعدت على متكاء هناك وفضّت الكتاب بيدين ترتعشان فرحاً فاذا فيه

عن لندرا شارع اوكفرد نمرة ٦٥ · الى القاهرة في ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

عزيزتي فدوى

وعدتكِ ان اكتب اليك حال وصولي هذه الديار عما يكون بعد مشاهدتي ولدي شفيقاً ولكنني اخبرك وانا اكاد اغيب عن الصواب انهُ قد مرّ علينا ثلاثة ايام من يوم وصولنا ونحن نفتش عن حبيبي ومهجة كبدي في سائر انحاء لندرا فلم نقف لهُ على اثر وقد اخبرنا صاحب النزل الذي كان ساكناً فيهِ انهُ خرج صباح يوم من ايام الاسبوع الماضي ولم يعد وهو لا يعلم مقرّهُ فلا نزال ساعين في التفتيش عنهُ ولم نظفر بهِ بعد فلا تسألي الدمع عما انسكب ولا القلب عما انفطر ولا الكبد عما تفتت أوّاهُ واحسرتاهْ لقد ذهل عقلنا وطاش لبنا ونحن نسعى الليل قبل النهار في التفتيش عنهُ فاذا عرفتِ عنهُ شيئاً عرفينا تلغرافياً

بالعنوان المكتوب في اعلى هذا الكتاب واذا عرفنا نحن نخبرك والسلام

الداعيـة

محبتك سعدى

فاين للقلم ان يصف حالة فدوى بعد قراءة الكتاب وقد خارت قواها وارتعدت فرائصها وغاب صوابها فصرخت وانكبت على الارض مغشياً عليها فسمع بخيت صوتها فبادرها وقد اذهلهُ الامر فرشها بالماء الى ان استفاقت فاخذ يسألها السبب وهي لا تعي على شيءٍ ولم تزد د الاَّ نوحاً فبحث عن الكتاب حتى رآهُ فلما اطلع عليهِ لم يتمالك عن البكاء ولكنهُ اخفى اضطرابهُ واقبل عليها ليخفض من اضطرابها وهي تصعد الزفرات فقال لها تصبري يا مولاتي عسى ان يمنَّ الله بالفرج واكتمي ما بك لئلا ينكشف الامر فان سيدتي والدتك لا تلبث ان تأتي فتشاهد اضطرابك فتصير البلية اعظم اما هي فرجعت الى وعيها وتجلدت جهدها لتخفي ما اعتراها فلم تقدر فامرت بخيتاً ان يأتيها بدواة وقرطاس وجلست الى طاولة وكتبت لسعدى جواباً على كتابها وهو

عن القاهرة في ١٢ يوليو سنة ٨٢ الى لندرا

سيدتي المحترمة

قرأْتُ كتابك بدموع الحزن والاسف وقلب يتقلب على نار اللهف كأَن الدهر قد ندم على ما وهب فحملني ما لا استطيع عليهِ صبرًا اما انت ايتها الوالدة فلا اذاقك الله لوعة ولا سقاك حسرة فان ضياع حبيبي ومنتهى املي نبأٌ اورثني من القلق ما لم اذق مثلهُ ومن اللوعة ما لم

اكابدهُ فلا غرو اذا انفطر لهُ قلبك وسح دمعك وتفتت كبدك وانت والدتهُ ومربيتهُ وقد علقت بهِ امالك وعقدت لهُ على باقي عمرك وربيته بدموع عينيك

على اني آملة بمراحم الله انهُ لا يخيب امل والدة حنونة وحبيبة مفتونة وهو الذي اذن بما كان ولهُ القدرة برد ضائعنا وجبر قلبنا وحاشاهُ ان يأذن بهلاكنا حسرة ولهفاً . على اني اسألك ان تعلميني تلغرافياً عما تعلمين عنهُ وأما أنا فاذا عرفت عنهُ شيئاً سأعلمك ايضاً . اعذريني على التمادي في مكاشفتك عواطفي اذ ليس لديَّ من اكاشفهُ سواك واختم الكتاب بتقبيل يديك ودمت سالمة لولدك

فدوى

وبعد ان أتمت قراءة الكتاب ختمتهُ وعنونتهُ وسلمتهُ لبخيت ليضعهُ في صندوق البوستة ورجعت الى هواجسها فصارت تندب سوء بختها فقال لها بخيت لا تقنطي من رحمة ربك ولا يخامرك مثل هذه الافكار فان لندرا مدينة عظيمة تحتوي على زهاء خمسة ملايين من الناس فلا بدع اذا اختفى عن اهلهِ فيها بضعة ايام

قالت ولكنني اخشى ان يكون ذلك الخائن قد سعى الى اذيته . والهفي عليهِ ماذا اعمل الآن

فقال بخيت سكني روعك واغسلي عينيك والقي اتكالك على الله وهو قادر ان يجمعك بمن تريدين وليس عليهِ امرٌ عسير وما زالت في هاجس عظيم الى ان كان الاصيل فقال لها بخيت هل لك يا سيدتي

ان تركبي العربة للنزهة فتفرجي كربك واتركي الامر لله وهو لا يخيب رجاءك

فامتنعت اولاً ثم رأت مناسبة ذلك اخفاء لما قد يوقع مظنة فيها لدي والدتها فأرسلت بخيتاً يخبرها بذهابها للنزهة ثم ركبت العربة وركب معها بخيت وخرجا يريدان الجزيرة

الفصل السابع والعشرون

ضرب الاسكندرية

فمرّا بجهات الازبكية واذا الناس في هرج يتحدَّثون ويتساءلون ويتسارُّون وانفار الجهادية يخطرون في الطرق مرحاً ورؤوسهم تكاد تدرك السحاب عجباً وتيهاً فأوقف بخيت المركبة وسأل عن السبب فقيل لهُ انهُ قد قدم من الاسكندرية بعض المهاجرين واخبروا ان العمارة الانكليزية قد اطلقت مدافعها على الحصون فهدمتها ثم أنزلت عساكرها واحتلتها ففرَّ العرابيون الى كفر الدوَّار يتحصنون ويستعدُّون لملاقاة العدوّ بعد ان احرقوا الاسكندرية ونهبوها اما جند القاهرة فلم يصدقوا الخبر لان جرائدهم كالطائف والمفيد كانت تذكرهُ بعكس ذلك تشجيعاً لهم ولذلك كانوا يمرحون في الاسواق اعجاباً بالنصر ولا سيما الذين هاجروا الاسكندرية فرارًا من الانكليز وجاؤوا القاهرة فانهم كانوا يتحرَّشون بالمارَّة من الغرباء ويوقعون بهم كل سوء حتى صاروا

لا يخرجون الى الاسواق الاّ متنكرين بزيّ الوطنيين حرصاً على حياتهم

اما اهل القاهرة فكانوا ايضاً يتضرّرون من تصرّف جالية الاسكندرية فعرضوا شكواهم لضابط العاصمة اذ ذاك وكان ساهرًا على مصلحتهِ فبذل قصارى الجهد لملافاة تلك التعديات

وكان يطوف في شوارع القاهرة جماعة من المشائخ على صدورهم مآزر ملوّنة وبايديهم مباخر يبخرون بها و ينادون بعالي صوتهم طالبين النصر لعرابي واحزابهِ وحبوط مساعي الافرنج

فلما شاهد بخيت هذا الاضطراب خشي ان ينال فدوى منهُ سوء فاستأذنها بالعود وأمر السائق فعاد الى البيت

فدخلت غرفتها واذا بوالدتها في انتظارها فحيّتها . فشاهدت والدتها في وجهها اثر الاضطراب فسألتها السبب فنسبتهُ الى ثورة الاسكندرية الى ان قالت اما سمعت ما حلّ بالاسكندرية من القتل والحرق وقصت عليها الحكاية وهي ترتعد من الخوف فلما سمعت والدتها ذلك امتقع لونها واخذتها البهتة ثم قالت آه يا الهي ماذا يكون حلّ بوالدك وماذا يترتب على بقائنا هنا تحت ظل الاخطار آه كم رغبت اليهِ مهاجرة هذا البر اثناء الثورة فنلتجيُ الى دمشق الشام لان لنا فيها أهلاً واقارب ومتى سكنت الاحوال نعود ولكنهُ ابى الا البقاء هنا وهاقد ذهب الآن الى الاسكندرية فلا ندري ما انى او يأتي بهِ المقدور

فقالت فدوى اظنهُ تمنع خوفاً على املاكهِ من الضياع مدّة هذه التقلبات ولا اخالهُ ظنّ الثورة تبلغ هذا المبلغ اما ذهابنا الى الشام

فما احلاهُ لو كان لاني شديدة الميل الى مشاهدة مسقط رأسك ومقر اهلك فقد بلغت هذا المبلغ من العمر ولم يقسم لي الحظ برؤيتهم فما امرّ البعاد واجفاهُ

فتنهدت والدتها وخنقتهـا العبرات ثم اتكأت الى سنادة كرسي امامها وهي تصعد الزفرات فلما رأَتها فدوى على هذهِ الحال اضطرب فؤادها وظنت هذا التأَثر خوفاً على والدها من مذبحة الاسكندرية فاخذت تهون عليها لتسكن اضطرابها واخبرتها عن دخول الانكليز الى الاسكندرية وان الجميع في سلام وطمأْنينة

فرفعت نظرها الى فدوى وقالت لم يكن اضطرابي كلهُ ياحبيبتي على والدك اذ لاخوف عليهِ باذن الله لانهُ معروف من زعماء الثورة وانما تأَوهي لذكرى حضرتني بتذكّر الوطن

فقالت فدوى ما هي هذهِ الذكرى يا والدتي ان لم تكن الاهل والوطن

فقالت تذكرت ضياع أَخٍ لي منذ ١٩ سنة اثناء الحادثة المشومة التي حدثت في دمشق الشام سنة ١٣٦٠ ولم اكن اعرف اباك بعد

فقالت كيف ذلك يا أُماه وهل لم تقفوا على خبره بعد واقبات بكليتها لاستطلاع الخبر

فقالت والدتها وقد مسحت دموع عينيها اعلمي يا ابنتي انني من عائلة معروفة في دمشق وكان لي اخ غض الشباب حسن الاحدوثة شهم شجاع وكنا اثنين في بسطة ورغد تحت كنف والدينا حتى كانت سنة ١٨٦٠ فجرت ثورة في دمشق قام فيها فتيان المسلمين على النصارى

فحصلت مذبحة هائلة عرفت بمذبحة سنة ٦٠ دارت فيها الدائرة على النصارى وكان خالك في جملة اولئك الفتيان فخرج صباح يوم في جملة من خرج للقتل والفتك ولم نعد نراهُ او نسمع عنهُ شيئًا واحسرتاهُ لقد كان وحيد العائلة فبقيت انا وحدي مع والديَّ جديك وفي السنة التالية للمذبحة جاء والدك الى دمشق في مهمَّة فتعرَّف بوالديّ وخطبني منهما ونظرًا لما هو فيهِ من الشهرة والغنى اجاباهُ فتزوّجني وجاء بي وللآن لم نعلم خبرًا عن خالك

فلما سمعت فدوى من والدتها هذا الكلام تذكرت ضياع شفيق ففقدت صوابها ولم تتمالك عن البكاء ولكنها قلت ان ضياع خالي لقد احزنني فكيف تكون حال ذينيك الوالدين بعد فقد ولدهما الوحيد ثم اردفت كلامها لئلا تلحظ منها شيئاً من الاضطراب كيف يمكنك التصبر يا اماهُ على بعد والديك كل هذه المدة والمسافة بين مصر وسورية قصيرة لا تحتاج الى اكثر من بضعة ايام ذهاباً واياباً آه لو نذهب لتمضية بضعة ايام هناك لاني اميل من كل قلبي الى مشاهدة جديَّ اللذين قسم لي الدهر ان لا اراهما حتى الآن

فتأَوَّهت والدتها عن كبد حرَّى وقالت اطاب الى الله ان يستجيب دعوتك وينيلك مرامك

لندع فدوى ووالدتها يتحدثان ولنأْت الى عزيز

الفصل الثامن والعشرون

﴿ دليلة وعزيز ﴾

ما برح عزيز يزداد هياماً بعد تلك الاهانة من بخيت على شارع العباسية فكأن الاهانة في مثل هذه الاحوال تحمل الانسان على الانتقام لنفسهِ فيستعمل ما لديهِ من الوسائط السافلة لاستطلاع اسرار خصمهِ ويتخذها سلاحاً لهُ ليذلهُ بها وهكذا فعل عزيز فذهب الى المفتش الذي اقامهُ العرابيون في مصلحة البوسطة لفض الرسائل المرسلة من اعيان البلاد ورجال حكومتها والرسائل الواردة اليهم استطلاعاً لضمائرهم نحوهُ واوصاهُ سرًّا اذا عثر على كتاب مرسل الى بلاد الانكليز بعنوان كذا ان يطلعهُ عليهِ الى ان قال ان عرابي باشا يريد ذلك وقد كان هذا المفتش من الملكية ولم يقبل تلك المهمة الاّ خوفاً من صولة الجهادية اذذاك

وفضلاً عن ذلك فان عزيزًا اقام الارصاد على فدوى حتى اذا خرجت من بيتها يسعى الى اكتسابها باي طريقة كانت ولما لم ينل جدوى قصد صديقتهُ دليلة وعرض لها الامر وقال لا بدَّ من نيل هذه الفتاة على ايّ الطرق فالذين كنت اخشاهم بعيدون عنها الآن وقد ساعدتني جميع الاحوال ولم يبق الاّ رضاها فالحوادث العرابية قضت بابعاد والديّ شفيق الى اجل غير مسمى وقد سعيتُ الى ابعاد والدها الى الاسكندرية فظننت انها تذل بعد هذا وتخاف الجهادية فاعترضت لها مرة في شارع العباسية فقابلني خصيها بشراسة وهي لم تفه ببنت شفة

ولا ادري اذا كان سكوتها احتقارًا لي او خوفاً من خصيها لئلا يوصل كلامها الى مسامع والدها

فقالت دليلة اما انا فاظنها لا تفضل سواك لانك شاب غني عنها بالمال والجاه وقد حصلت على رتب الجهادية التي هي أشرف مناصب الحكومة الآن ولكنك سامحك الله لا تعلم من اين تؤكل الكتف والجنس اللطيف لا يؤخذ الاّ بالملاطفة وليس بالعنف ولا يخفى عليك ان تصدّيك لها على قارعة الطريق مما ينفرها منك ولا بدّ لك في مثل هذه الحال ان تجعل بينك وبينها من لها خبرة بذلك

فقال نعم الواسطة انت فهل لك ان تقومي لي بهذه المهمة قالت مرحباً بك ولكنها تكلف انفاق قدر طائل من المال اذ ان مرادي ان اصنع خاتماً عليه اسمك واقدمهُ لها بلطف وحسن اسلوب وارى ما ذا يظهر منها فمد يدهُ وناولها مبلغاً كبيرًا فاخذتهُ وخرجت الى الصائغ فاصطنعت الخاتم وذهبت اليها وجرى بينهما ما قد تقدم ذكرهُ

فلما عادت بخفي حنين اتقدت في قلبها نار الانتقام لانها اعتبرت معاملة فدوى لها على تلك الصورة اهانة فسارت توًا الى منزل عزيز الذي كان في انتظارها على مثل الجمر فلما رآها بما هي عليهِ من الغضب خفق قلبهُ وسألها فقصت عليهِ القصة الى ان قالت طب نفساً يا ولدي وقرّ عيناً فان هذه الابنة اذا اصرّت على عنادها اخذتها لك قهرًا رضيت ام لم ترضَ

فقال لها اتقدم اليك ان تأتي اليّ كل يوم مرة للمفاوضة في الامر

واخشى ان ترد عليَّ الاوامر بالسفر الى الاسكندرية بغتة وعند ذلك لا بد لي من الاعتماد عليك في هذه المهمة

فقالت وهل اذا جاءتك الاوامر بالسفر الى الاسكندرية تسافر وانت عالم ان ذلك الثغر في خطر عظيم تتهدده دوارع دولتي انكلترا وفرنسا الواقفة لهُ بالمرصاد وزد على ذلك ان ذهابك هذا يُعرقل مساعيَّ من جهة فدوى قال « ما كل ما يتمنى المرء يدركهُ » فكنت عوّلت منذ انتظامي في سلك العسكرية اني حالما اعلم باقتراب الحرب استعفي من الخدمة ولكني رأيت من الجهة الواحدة اني ارتقيت وصرت عظيماً في اعين الناس ومن الجهة الاخرى علمت ان القوانين العسكرية لا تجيز الاستعفاء وقت الحرب فلا بد لي من البقاء في الجيش على كل حال ويجب عليَّ اطاعة الاوامر اما اذا ذهبت الى حرب فلا اعرض بنفسي الى مكان الهلاك لانها عزيزة عليَّ ومتى انتهت مهمتي اعود الى القاهرة واسعى الى ما اتطلبهُ

الفصل التاسع والعشرون

﴿ اباحة الاسرار كاباحة الاعمار ﴾

اتت دليلة صباح يوم الى بيت عزيز جرياً على العادة فرأتهُ يخطر في غرفته ذهاباً واياباً وفي يدهِ رسالة ينظر اليها وسمات الطرب بادية على وجهه فلما لحظ العجوز مقبلة عليهِ رحب بها وقال وسيعلم الظالمون اي منقلب

ينقلبون اندري ممن هذا الكتاب ... هو من فدوى الى والدة شفيق خذي انظري وتعجبي لقد قضي الامر وحبطت آمال تلك الحبيبة الجافية

فسألتهُ وكيف ذلك

قال ضاع حبيبها شفيق ولم يطلع والداهُ لهُ على خبر فهل بعد ذلك مانع من نيلها

فقالت دليلة ها انك قد اطلعت على اسرارها فيمكنك بهذه الرسالة تحقيرها في عيني والدها وحينئذٍ لا يشك في محبتك لهُ وغيرتك على شرف ابنتهِ فيزداد بك ثقة حتى اذا اظهرت لهُ اقل ميل بمصاهرتهِ لا يتردَّد في اجابة طلبك واذا مانعت ابنتهُ يجبرها انتقاماً منها لانهُ غيور عليها

فلما سمع عزيز كلام العجوز اخذتهُ هزة الطرب وقال لا اشك بان الباشا يرغب كثيرًا في مصاهرتي لكنني كنت اخاف ان تمتنع هي فارجع بصفقة المغبون ولذلك سعيت عبثاً في استجلابها فلم اظفر والذي يتراءى لي ان حبها لشفيق لم يدع في قلبها مكاناً لمحبة سواهُ ولما لم اقوَ على استجلابها بالملاطفة التجأْت الى اذلالها وايقاع المكيدة بها فظفرت اما الآن وقد وقعت في شرك كبرها وترفعها فلا نقوى على ردّ اوامر والدها بعد ان ينكشف لهُ حبها لشفيق

وبينما عزيز في الحديث اتاهُ الخادم بكتاب ففضهُ فاذا هو من اركان حرب عرابي يطلبون اليهِ بهِ ان يعدّ عددًا من الخيل ومقدارًا من المؤونة مساعدة للجيش ويقدمها باقرب ما يمكن من الوقت وبعد ذلك يطلبون

اليهِ السفر الى الاسكندرية فلما قرأ الكتاب تغيرت ملامح وجههِ فقطب جبينهُ وجلس الى متكاء امامهُ واستلقى رأسهُ بيدهِ كأنهُ وقع في امر عظيم فسألتهُ العجوز عن سبب هذا الانقلاب فلم يجبها اولاً ثم اعلمها بواقعة الحال فخفضت عنهُ وقالت لهُ الم تعلم قبل انخراطك في سلك الجهادية ان اوامرها لا مردَّ لها وخصوصاً في مثل هذهِ الاحوال

فرفع عزيز رأسهُ بعد تفكر طويل وقال اني مسافر الى الاسكندرية بعد غد فاعهد اليك في مراقبة حركات فدوى واستعطافها اذا وجدت الى ذلك سبيلاً فطيبت خاطرهُ ووعدتهُ بما يريد

فسافر عزيز ولما وصل الى كفر الدوَّار علم ان عرابي لا يلبث ان يأتيها فيعود بجندهِ من ضواحي الاسكندرية ويتحصن في كفر الدوَّار لدفع الانكليز فخاف عزيز ان يلتحم الجيشان هناك فيصيبهُ سوءٌ وقد تبادر الى ذهنهِ ان موتهُ يعود بالنفع على شفيق اذا كان لا يزال حياً فصوَّر لهُ حسدهُ ان يبحث عن مكان والد فدوى ويرسل اليهِ الكتاب ليهيج فيهِ عاطفة الانتقام ويعرقل مساعي شفيق وبعد البحث علم انهُ لا يزال في الاسكندرية فتربص مكانهُ يرقب فرصة ينزل بها الى الاسكندرية حتى ورد امرٌ من الجناب العالي في الاسكندرية الى عرابي يأمرهُ بالامساك عن الاعمال الحربية وحشد الجند لان الجنرال سيمور اميرالاي العمارة الانكليزية قد صرَّح بالخروج من الاسكندرية حالما يتاكد انحلال عقد الجهادية والتوقف عن الاستعدادات الحربية ويطلب سموّه الى عرابي الحضور الى الاسكندرية فسرَّ عزيز بذلك لانهُ يتمكن

من نيل مرادهِ بالذهاب اليها ولكن خاب ظنهُ لان عرابي لم يذعن للأوامر بل كتب الى وكيل الجهادية في القاهرة يخبرهُ بما حصل فجمع ذلك اعيان العاصمة ورجال حكومتها وبعد المفاوضة اقرّوا على وجوب المثابرة على الاعمال الحربية وبعثوا لجنة مؤلفة من ستة مندوبين لمخاطبة الجناب العالي بذلك

فسارت اللجنة من القاهرة ومرّت بطريقها على كفر الدوّار تعلن مهمتها لعرابي فرأى عزيز ان يسعى لمرافقة هؤلاء الى الاسكندرية اذ لا يتسهل لهُ السفر الا بمثل هذهِ الطريقة لان السكك الحديدية في مصر اصبحت بعد ضرب الاسكندرية لا تسير قطاراتها الا بامر العرابيين اذ قد حظروا السفر فيها لغير حاجياتهم من صادر ووارد فاغتنم عزيز هذهِ الفرصة وطلب الى رئيسهِ ان يسمح لهُ بمرافقة هذا الوفد الى الاسكندرية فاذن لهُ ولما وصلوا المدينة انفرد عزيز ليفتش عن بيت الباشا فاستولى عليهِ الذهول لما حلّ بتلك المدينة العظيمة من الدمار اثر الحريق الذي ذهب بأعظم مبانيها واصبحت المنشية اكاماً من الاتربة والاحجار وكان الدخان لا يزال يتصاعد عنها وحوانيتها العظيمة التي كانت ملأى بالاقمشة والملابس على انواعها والحلى والمجوهرات ذهبت طعاماً للنار فصارت اكاماً خربة واطلالاً بالية ينعق فيها البوم بعد ان كانت تزهو بهاءً وجلالاً وبعد ان كان الامن مخيماً فيها والناس في الشوارع زرافات ووحداناً يترنحون بخمرة الزهو والعز بازياءٍ مختلفة وعوائد متنوّعة وعربات متباينة الشكل بين متشح بالثياب الفاخرة ومتأنق بركوب العربات الباهرة ومباهٍ

بكثرة الخدم والحشم ومفاخر بالزهو والبذخ . هذهِ البلاد بعد عزّها وزهوها هجرها اهلوها وغشيها البلى والدمار وما لم تأكلهُ النار من مبانيها ذهب فريسة النهب . فتعجب عزيز لهذا الانقلاب السريع وكان لا يشاهد اثناء مسيرهِ من المارّة الا ازواجاً من الشرطة بزيّ الانكليز بعضهم خيالة وبعضهم مشاة وكلهم بالسلاح الكامل يطوفون بالبلد حفظاً للامن وقلما شاهد مارّة في الشوارع من غير الشرطة فخاف ان تقع فيهِ شبهة ويساق بتهمة فيعود ذلك بالوبال عليهِ

الفصل الثلاثون

﴿ نجاة عزيز من الموت ﴾

اما محل سكن الباشا في الاسكندرية فكان الى جهة منحرفة من السكة الجديدة فلما اهتدى عزيز الى منزلهِ وهمّ بالدخول اذا بنفر من الجنود الانكليزية قد امسكوا بهِ وكانوا آتين للقبض على الباشا حيث اتهمهُ البعض بكونهِ من العصاة المختبئين فلما رأَوا عزيزًا وغبار القطار الحديدي على ثيابهِ بلباس الجند المصري ظنوهُ قادماً بدسيسة من عرابي واتباعهِ الى الباشا فقبضوا عليهما وساقوهما موثقين الى المحافظة بعد ان ضبطوا ما وجدوهُ معهما من الاوراق وانوها رزمة واحدة فلما صار الباشا على الطريق لحظ عزيزًا فعرفهُ وظنّ انهُ الواشي بهِ اما عزيز فكان يلعن الساعة التي اتى فيها الاسكندرية ويندب سوءَ بختهِ وقد

اكفهرَّ لونهُ واصطكت ركبتاهُ وارتعدت فرائصهُ حتى كاد يقع في الطريق من شدة الخوف ولم يكن الباشا اقل منه اضطراباً فبينما هما في الطريق وقد اقترب بهما الجند من ساحة المنشية تصدَّى لهم ضابط انكليزي فوقف الجند بالسلام العسكري المعتاد عندهم وتأمل الضابط الرجلين الموثقين واشار الى الجند وخاطبهم باللغة الانكليزية فتركوهما وأَلقوا الى الضابط ملفّ الاوراق وساروا

فتعجب الباشا وعزيز منهُ وظناهُ المفوض اليهِ امر اعدامهما اما هو فاشار اليهما ان يتبعاهُ فتبعاهُ حتى خرج بهما من شوارع البلدة الى جهة معروفة بسكة المسلة فوصل الى منعطف فادخلهما بيتاً فيهِ واغلق خلفهما الباب

اما هما فتحقق لديهما دنوّ الاجل وانهما لا محالة مسوقان الى القتل فرجفا من الخوف وسقطا الى الارض فاقترب الضابط منهما ورفع قبعتهُ وخاطبهما باللغة العربية قائلاً «السلام عليكما» فانذهل كلاهما لهذا المشهد وتأملاهُ فاذا بهِ كأَنهما يعرفانهِ اما عزيز فما اطال نظرهُ اليهِ حتى القى بنفسهِ عليهِ قائلاً شفيق ... شفيق ما اسعد هذهِ المصادفة .. اخي حبيبي

فقال الباشا هل انت مصري الوطن يا سيدي . قال نعم وقد رأَيتكما في خطر فسعيت الى انقاذكما من مخالب الموت

فقال الباشا اننا مديونون لك بحياتنا ايها الشهم الباسل فاطلب الينا ماتشاء لعلنا نفي بعض الواجب علينا

فقال شفيق يكفيني مكافأة ان قدر لي الله انقاذكما من الموت او الاهانة ثم حلَّ وثاقهما ودعاهما الى الاستراحة ودخل هو الى غرفة اخرى وفض ملف الورق ليرى ما يحتويهِ فعثر على الكتاب المرسل من فدوى الى والدتهِ فلم يتمالك ان قرأَهُ على نفسهِ فثارت عواطفهُ واخذتهُ رجفة الحب ولم يقوَ على الوقوف فقعد على مقعد هناك وهو يكاد يغيب عن الوجود وصبر الى ان هدأَت عواطفهُ فارسل خادماً عندهُ ان يدعو الرجلين الى حضرتهِ فلما حضرا اكرمهما ثم سأَلهما ما سبب وجود هذا الكتاب بين اوراقكما فتدارك عزيز وقال قد كان بين اوراقي ايها الحبيب واقترب منهُ كأَنهُ يسأَلهُ المحادثة بالامر سرًّا فطاوعهُ شفيق وقام وخرجا الاثنان بعد ان استأْذنا الباشا ولما انفردا بادأَهُ عزيز بما فطر عليهِ من الدهاء والكذب قائلاً «ما برحت اذكر ايها العزيز ما تفرضهُ عليَّ واجبات الصداقة والاخاء نحو شخصكم الكريم فسعيت الى ما وعدتك بهِ من تسهيل امر اقترانك بفدوى فبقيت مدة اتردَّد الى بيت الباشا حتى تسنى لي ان اساعد بخيتاً في ايصال كتبها لك الى البوسطة سرًّا لان والدها لم يكن يأْذن لاحد بمخاطبتها غير بخيت وهذا لم يجسر على ايصال التحارير الى البوستة خوفاً من اطلاع الباشا عليها فينتقم منهُ اما انا فلم اخاطب الباشا بشيءٍ من مقاصدك خوفاً من انك لا تريد ذلك وهذا الكتاب اعطاني اياهُ بخيتاً لاوصلهُ الى البوستة وبما ان ادارة البوسطة هذه الايام بيد العرابيين يستطلعون من المراسلات فيها تساؤلاً فلا اكون على ثقة من وصوله اليكم فأَبقيتهُ معي لانني كنت عازماً

على النزول الى الاسكندرية فاضعهُ في مكتب من مكاتب البوسطات الفرنجية فيصلكم لا محالة ومما رغبني في المجيء ايضاً الى الاسكندرية ان الباشا مقيم فيها فاغتنمت الفرصة الى ان اتيتها وذهبت الى بيتهِ ولما وصلتهُ قبض الجند عليّ وعليهِ وكان ما رأيت

فبادر اليهِ شفيق وقبلهُ قائلاً لقد اوليتني فضلاً عظيماً ايها الصديق الحميم فاراني مقصرًا عن تأدية الشكر لك لا بل ارى عبارات الشكر تنفد ولا تحيط بفضلك غير اني ارجو من لطفك وقد قلدتني هذهِ المنة ان تعلمني عن حالة فدوى

قال هي على ما تريد من الكمال والجمال

وكأن الله سبحانهُ وتعالى قد خلق هذهِ الذات المتحلية بفضائل النفس ليجمع بكما فضائل النفس والجسد واراد عزيز ان يجعل في شفيق ثقة عمياء فيهِ لكي يستعين بها على نيل اربهِ فكأن الله قد قدَّ قلب هذا الجلف من حجر فلا يؤثر فيهِ جميل ولا اخلاص

اما شفيق فاخذ كلامهُ مأخذ الاخلاص وظنهُ صادرًا عن شعائر كريمة ومحبة صادقة حتى لم يدر كيف يبدي لهُ شكرهُ ثم حوَّل نظرهُ الى حلة عزيز العسكرية وقال اراك قد انتظمت في سلك الجهادية فقصَّ عزيز عليهِ حكاية انتظامهِ في الجهادية وادخل عليها ما شاء من الاكاذيب الملفقة ثم قال وانت اراك لابساً لبس الضباط الانكليز فكيف ذلك

قال شفيق انني لما سمعت بالثورة العرابية وما اصاب الديار المصرية من اختلال الاحوال أشفقت على فدوى ان ينالها سوء فدخلت متطوعاً

في الجندية الانكليزية لمرافقة هذهِ الحملة فاشاهد الاهل والاحباب املي اقوى على غوثهم وخصوصاً فدوى لان حبها شغل كل جوارحي حتى منعني من الافتكار بسواها اقول غير خجل لانك تعلم مقدار حبنا المتبادل ولا يخفى عليك ايضاً ان انتظامي في الجندية الانكليزية كان رابع المستحيلات لو لم استخدم وسائط كثيرة واكون ممن يعرفون اللغتين العربية والانكليزية فاقوم احياناً مقام المترجم ولي امل عظيم اذا نلت حظوة في عيني رئيسي ان احصل على التعيين النهائي في الجيش فاغفل مهنة المحاماة . فما رأيك بعد هذا يا عزيز هل اكاشف الباشا الآن بحقيقة حبي لفدوى ام . . . فقاطعهُ عزيز قائلاً ارى الافضل ان تنوط الامر بي فأُدبرهُ بما تقتضيهِ الحكمة والدراية

فقال انني اشكر اهتمامك وانقدم اليك اذا رجعت الى العاصمة قبلي ان تبلغها تحياتي وتخبرها اني لا ازال على العهد وعما قليل اكون عندها فلا يشتغل بالها عليَّ وساكتب لها في الغد قال عزيز لا تنقل كتبك في البوسطة لانها مختلة الاحوال كما اخبرتك اما اذا شئت فاني انقل لك ما تريد ولكني اخشى ان تغشني فدوى فهل من علامة ترفع الشبهة عني فقال شفيق لديَّ علامة لكني لا احب ان يطلع عليها احد اما انت فساطلعك عليها لانك عالم بما بيننا ثم اخرج الدبوس من جيبهِ واراهُ لعزيز قائلاً هذا الدبوس اخذتهُ منها في حديقة قصر النزهة تذكاراً للحب والولاء فاذا ذكرتهُ لها تثق بك

فاظهر عزيز استحسانهُ لتلك الافادة وشكر شفيقاً على ثقتهِ فيهِ

ثم دخلا على الباشا في الغرفة واعتذرا اليهِ على انفرادهما ثم دفع شفيق الاوراق اليهما ونسي كتاب فدوى بينها وقال لهما اذا اردتما الذهاب فهاكما شعار الامان المصطلح عليهِ هنا وهو اذا التقى بكما احد فقولا لهُ (السلام) فهذا هو الشعار الاخير فخرج الاثنان ينفضان غبار الموت عن منكبيهما حتى اتيا مختبأ الباشا وعزيز كل الطريق مشتت البصر لهذا الاتفاق العجيب وهو يقول من اين اتى ... لا حول ولا ... الا يزال في قيد الحياة فوالله اذا التحم الحرب بيننا وبين جيوش الانكليز لأسعينَّ الى قتلهِ ولو كلفني ذلك الحياة

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ خطبة فدوى لعزيز ﴾

فلما دخلا المنزل اثنى الباشا على عزيز لانهُ نجا بواسطتهِ من الموت فابدى عزيز امارات التعزز وشمخ بانفهِ وقال للباشا ان ما صنعهُ معنا هذا الرجل انما هو مكافأة لما لي عليهِ من الصنع الجميل لكنني سررت لاتفاق وجودك معي

ثم نظر الى الباشا كمن لديهِ خبر ذو بال فلحظ الباشا ذلك منهُ فحوّل اليهِ نظر الاصغاء وقال ما وراءك فقال عزيز لديَّ امر ارغب في ايرادهِ على سعادة الباشا راجياً منهُ ان لا يثقل على مسامعهِ وهو ولا ازيدكم علماً بغيرتي على شرفكم وشرف الخاتون كريمتكم وقد اتيت

من مصر لهذهِ الغاية

فقال الباشا ماذا ... بربك عجل في ايراد الحديث قال اتذكر ليلة كنا في الملعب ولمحتُ لك بشيء من وجوب التيقظ على ذهاب السيدة فدوى واياها قال الباشا نعم قال عزيز ان كلامي لم يكن عبثاً لاني عرفت ان احد شبان العاصمة سعى الى اغوائها وهي لصفاء جوهرها وسلامة نيتها وقعت في شركهِ حتى انها علقت بحبهِ ولما ظهرت الثورة العرابية سافر ذلك الشاب الى بلاد الانكليز وشرع يكاتبها من هناك حتى كاتبتهُ وفي هذهِ المدة المتأخرة عثرت على كتاب منها الى والدتهِ فاستحصلت عليهِ وجئت بهِ اليك لتعلم صدق خدمتي لشرف سعادتك ثم استحضر الاوراق واستخرج الكتاب المعهود واعطاهُ اياهُ ففضهُ وقرأَهُ وما انتهى الى آخرهِ حتى صار الباشا ينتفض من الغضب ويلعن ابنتهُ فقاطعهُ عزيز وقال ان طيبة قلبها وحسن طويتها هما اللذان غشيا على بصرها ثم قال ان سعيي وراء شرفك وشرف الخاتون كريمتك لم يكن الاَّ لما رأيت فيها من الخصال الحميدة فتعلق قلبي بها والآن اعترف لك اني احببتها وامدح صفاء جوهرهـا وطيب عنصرها فهل تريد ان تجعلني في مكان ذلك الغرّ الخائن فاكون لها بعلاً ولك صهرًا وعند ذلك تكون لي بمثابة والدي وتضع يدك على جميع اموالي فاستبشر الباشا من كلام عزيز ببلوغ مناهُ فقال لهُ على الفور انك لتفضلها كثيرًا وهي لا تستحق ان تكون لك زوجة وقبولك بالاقتران بها اعدهُ لي شرفاً فقال عزيز العفو يا سيدي انها مهما كان من امرها فلم تخرج

عن كونها من الاصل الكريم والعنصر الشريف واني احسب نفسي سعيدًا اذا عاهدتني على الاقتران بها فقال قد وهبتها لك زوجة فبورك لك فيها

فابتهج عزيز لنجاح مسعاهُ وشرع يؤمل اكتسابها قهرًا عنها ونسي بغضها لهُ ونفورها منهُ وحبها شفيقاً وائتلاف قلبيهما على حب صادق ثم اتى الخادم يدعوهما للطعام فذهبا وجلسا الى المائدة فقال الباشا ما اخبار جنودكم قال هم بخير يتأهبون للدفاع في كفر الدوار فقال الباشا انكم لم تحسنوا التصرف في الامر كما كان يجب ولقد بالغتم في الاستبداد فكانت اعمالهم بادئ بدء حسنة المظاهر كريمة الغاية اما الآن فلا ينجلي من وراء هذا الاستبداد سوى اغراض نفسية ليست بشيءٍ من فائدة الوطن بل هي مضرة بهِ

فقال عزيز اننا لم نطلب يا سعادة الباشا الاَّ المطاليب العادلة التي تعود على الوطن بالنفع العميم

قال الباشا هب ان جميع مطاليبكم عادلة اترومون تنفيذها دفعة واحدة في يوم واحد فان لله في عبادهِ سنة لا محيد عنها والاصلاح مهما كان بيناً لا يمكن ادخالهُ الاَّ تدريجياً وفضلاً عن ذلك فقد بالغتم في عقوق احسان وليّ النعم الذي لم يظهر لكم من اعمالهِ منذ اعتلى اريكة الخديوية الاَّ كل حسن نافع فانهُ رجل مخلص لرعيتهِ محب لمصلحتهم ساهر على خيرهم افتقولون انهُ ساعٍ الى بيع الوطن

فقال عزيز لم نقل ذلك الا بعد ان رأيناهُ يقبل نجدة الدول

الاجنبية علينا

قال الباشا وماذا اذاً بعد ان ثارت القوّة العسكرية عليهِ وهل يخفى عليكم ان الحكومات الاجنبية مصلحة مادية في هذا القطر ومصلحتهُ من مصلحتها الا تذكر ما نقلتهُ لي يوم حادثة عابدين عند ما قال قنصل انكلترا لعرابي ان اصرارهُ على عنادهِ يحمل الدول الاجنبية على المداخلة في اخماد الثورة فما بالهُ لم يفقه لذلك المقال ولا اظن الدول غدرتهُ في شيءٍ بل اوضحت لهُ مقاصدها من اول الامر وهو حفظ الامن في البلاد حتى ان الدولة الانكليزية بعد دخولها الاسكندرية صرحت انها ترجع عنها حالما تنحل عقدة اجتماع الجيوش والتظاهرات الحربية

فقال عزيز ان مقاصد انكلترا الاستيلاء على هذهِ البلاد

قال وكيف يكون ذلك مقصدها وقد صرحت بما قلتهُ لك وفضلاً عن ذلك انها اوعزت الى عرابي قبل تفاقم الخطب ان يخرج من البر برتبهِ والقابهِ ورواتبهِ مع رفيقيهِ فلم يقبل ولو قبل لانحل المشكل على اهون سبيل على انهُ اذا اصغى في هذا اليوم الى ما قيل لهُ لانحلت المشكلة واستتبت الراحة وعادت الجنود الانكليزية من حيث اتت اما اذا اصرَّ على مرادهِ فاننا نقع في شر اعمالنا ويعود ذلك وبالاً علينا

فقال عزيز ولكن لا يخفى على سعادتك اننا ندافع باعمالنا هذه عن حقوق مولانا السلطان صاحب البلاد

قال ومن قال لك ذلك تمهل فانك لا تلبث ان تسمع بصدور المنشورات المؤذنة باعتبار عرابي عاصياً وها ان الجناب العالي قد صرَّح

بعصيانهِ ونحن ليس لنا قدرة على مدافعة القوّة الانكليزية

فقال عزيز اذا كان الجناب العالي يحب الرعية فلماذا يقبل نجدة الدول الاجنبية

قال الباشا قلت لك انهُ لا يمكنهُ غير ذلك ولا بد انهُ فعل هذا رغماً عنهُ فمن تريدون ان يستنجد وانتم القوّة التي كان يستنجدها وقت الحاجة قد انقلبتم عليهِ على ان ذلك لا يقابل حريقكم لمدينة الاسكندرية

فقال عزيز ان حريقها لم يكن الا جرياً على مقتضيات القوانين الحربية القاضية باتلاف ما يتحقق قرب وقوعهِ في يد العدوّ فقال الباشا «ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً» وحينئذٍ تتاكد صدق مقالي

الفصل الثاني والثلاثون

عود عزيز الى مصر

ثم استأنف لباشا الحديث وقال ماذا عوّلت ان تفعل الآن

قال عزيز قد عوّلت ان اعود مع الوفد الى كفر الدوار ومن هناك اغتنم الفرصة لارجع الى القاهرة فما الرأي

فقال الباشا يلوح لي ان العرابيين طالما اصرُّوا على الدفاع ومخالفة اوامر الخديوي فالحرب لا تنتهي الا بعد زمن طويل فتطول اقامتك في كفر الدوّار او في غيرها من النقط الحربية اما انا فلست في مأمن من مرافقة الحزب العسكري لانها ذات خطر عليَّ اذا ظنوا بي سوءًا ويخال

لي انهم توهموا ذلك من قبل فامروا بجلائي من القاهرة فتراني قلقاً على اهلي في مصر واخشى ان ينال فدوى ووالدتها سوء وانا بعيد عنهما فلا آمن من وصولي اليهما سالماً اذا ذهبت ولا آمن عليهما وحدهما من شرّ اذا بقيت هنا

فقال عزيز اما خوفك على اهلك فلا اخالفك فيهِ واذا شئت فاني اسعى في سرعة انتقالي الى القاهرة ومتى صرت هناك اتعهد لك بالمحافظة على راحتهنَّ ما استطعت غير اني اخشى ان لا يثقن بي لعدم علمهنَّ منك بذلك

فقال الباشا اني اعطيك كتاباً مني ينفي الشبهة وفي صباح الغد كتب الى امرأتهِ ما نصهُ

بعد السلام ... قد اضطرني بقائي في الاسكندرية وتعذر حضوري الآن الى القاهرة وما اخشاهُ عليك وعلى ابنتنا فدوى اذا لا سمح الله حدث حادث في القاهرة ان اسأل ولدي عزيز افندي ان يكون عندكم مشيعاً لكم وقائماً بمهامكم لانهُ من رجال الجهادية وهو من اخص احبائي وقد تبرع كرماً منهُ بالقيام بهذه المهمة فينبغي ان تعتبريهِ كولدك ولا تظني بهِ سوءا واعتمدي عليهِ في كل مهمة ريثما احضر والسلام

ثم طوى الكتاب واعطاه لعزيز فتناولهُ وهو يكاد لا يصدق ثم ودَّع الباشا وخرج يريد الوفد فلما اجتمع بهم وانتهت مهمتهم عادوا جميعاً الى كفر الدوّار ثم ما لبثوا ان عادوا الى مصر فسعى عزيز الى ان عاد معهم اما فدوى فما برحت تنتظر جواباً على كتابها الى ان مرَّ اسبوعان

فوقعت في اليأس واستولى عليها الهمّ والغمّ حتى لم تستطع طعاماً ولا شراباً فخارت قواها وهزل جسمها واكفهرّ لون وجهها الابيض وكادت تغور عيناها في وجهها ولم يكن لها مؤنس في خلوتها الا البكاء والنحيب ولا معزٍ الا خادمها الامين بخيت فكان لا ينفك عن تخفيف كربها وتعليق آمالها بلعل وعسى وهي كل يوم تزداد ضعفاً وكآبة حتى كاد ينجلي امرها فدخل بخيت غرفتها مرة فاذا هي مكبة على البكاء تردد قولها آه حبطت آمالي . الم يوجد بعد . كيف اسلوهُ يا الهي ترفق بهذه المسكينة . فدنا منها يطيب خاطرها قائلا خفني عنك يا سيدتي لا تدفعي نفسك الى اليأس ولا تدعي عواطفك تأْخذ مداها فالله الذي جمع قلبيكما قادر ان يجمع شتأتكما وقد تعاهدتما على حب طاهر مقدس تعززهُ الشهامة والشرف وتصونهُ عزة النفس وكرم الاخلاق فلا يخيب الله لكما املاً ولما وصل بخيت الى هنا من الكلام اتت خادمة تدعو فدوى الى مقابلة والدتها فقال لها بخيت اغسلي وجهك يا سيدتي واخفي اضطرابك لئلا تلحظ شيئاً منهُ سيدتي والدتك فنهضت وهي لا تفتأُ تائهة في احزانها فلم تقو على المشي فاسندت يدها الى شيءٍ امامها ريثما هدأَ اضطرابها فغسلت وجهها وتلاهت بترتيب شيءٍ من رياش غرفتها الى ان يزول عنها هذا الاضطراب فلما طال امرها عادت الخادمة تستنهضها للذهاب وتقول لها ان سيدتي والدتك قلقة لتأَخرك فنهضت وقد زال عنها معظم ذلك الاضطراب فذهبت الى والدتها وكانت حينئذ في قاعة الاستقبال فلما قاربت الدخول رأَت شاباً همَّ بالخروج من القاعة فاجفلت لانها كانت

بثياب البيت وانزوت حياءً الى ان خرج الرجل وكان لابساً لباس الجهادية وهيئته هيئة قادم من سفر فلما دخلت القاعة سألتها والدتها عن سبب تأخرها ولحظت في وجهها امارات الكآبة فقالت علامَ هذا التغير في وجهك يا حبيبتي فقالت لها ان انقباضي هذهِ الايام لداعي هذه التقلبات ولان والدي بعيد عنا تحت رحمة الاخطار في الاسكندرية ولم تكذب فدوى بكلامها لان هذا الانقلاب وتغيب والدها مما يزيدها اضطراباً على اضطرابها فطيبت خاطرها وقالت لها ان الاسكندرية هذه الايام آمن من كل انحاء القطر وقد اتانا هذا النهار احد اخصاء والدك واعزّ اصدقائهِ منها وهو ينقل الينا كتاباً منهُ وقد وكل اليهِ النظر في امر البيت خوفاً من عواقب الحرب ان تمتد بنيرانها الى هنا فادركت فدوى انهُ عزيز فارتعدت فرائصها لكنها اخفت اضطرابها ولم تبد شيئاً فقالت والدتها يظهر لي ان هذا الشاب غيور همام فانهُ جاءَنا من القطار توًّا قبل ان يذهب الى بيتهِ ويغير اثوابهُ ويستريح من مشقة السفر واني لقد امتننت من مجيئهِ واهتمامهِ بنا لاننا في حاجة الى من يحمي ذمارنا اثناءَ هذه التقلبات السياسية وهذا ضابط جهاديٌّ يقدر ان يصون حمانا ويقينا غوائل الشرّ باذن الله · وقد اتانا ايضاً بكتاب من والدك ينطوي على ثقتهِ بهِ وكفاءَتهِ للقيام بهذا الامر قالت ذلك ودفعت الكتاب اليها فتناولتهُ وتلتهُ بسكون الى ان اتت على آخره ثم ردتهُ الى والدتها ولم تبد رأياً ولا فاهت بكلام لكنها تأثرت تأثرًا خفيًّا كاد ينكشف لوالدتها لو لم تبرحها في الحال وتذهب الى غرفتها لتترك مجالاً لعواطفها وقد احست

بانقباض اوشك ان يشتت صوابها فلما شاهدها بخيت لحظ شيئاً من اضطرابها فبادرها قائلاً ارى الرجل قد جاءنا اليوم مجيئاً رسمياً فما الداعي لذلك يا ترى فقصت عليهِ الحكاية وهي تتميز من التأثر والانفعال

فقال بخيت اذا لم يكن للمرء زاجر من نفسه فماذا تفيد الاهانة والتعنيف فوالله لقد اخطأ هذا الغرّ مرماهُ وهوى بنفسهِ الى حيث هلاكها فليجر ما هو جارٍ سواء عندنا قرب منا او بعد فهل يجسر على مخاطبتك او يقوى على رؤيتك فدعيهِ وشأنهُ يتزلف ما شاء الى ان يقضي الله ما يشاء فتأوهت فدوى عن فؤاد متبول وقالت ارى قلبي لا يغشني فان مجيء هذا الرجل ينذرني بخطر قريب ويزيد لوعتي على بعاد ... الحبيب قالت ذلك واستاقت رأسها بيدها ولم تتمالك عن البكاء فدخلت غرفتها والقت بنفسها الى سريرها وشرعت تصعد الزفرات فبقيت بقية ذلك اليوم عرضة للتذكرات المخيفة من ضياع الحبيب وسفالة ذلك الرجل الذميم

الفصل الثالث والثلاثون

رسول عزيز الى فدوى

ففي الصباح التالي كانت فدوى لا تزال عرضة لاضطراب الامس غارقة في لجج الافكار اذ دخلت عليها دليلة وهي تبتسم عن اسنانها المهتومة وكان وجهها اغبش وطرفها اعمش وخدودها معجرة كأنها المقصودة بقول الشاعر

لها في زوايا الوجه تسع مصائب   فواحدة منهنَّ تبدي جهنما
بوجهٍ بشيع ثمَّ ذات قبيحة   كصورة خنزير تراهُ ترمرما

فلما رأتها فدوى تشاءمت من رؤيتها وكرهت مخاطبتها اما تلك العجوز المعطاء فاقبلت عليها بوجه الظافر كأنها لم تبال بنفورها منها وقالت ارى سيدتي لا تزال غاضبة عليَّ وانا لم آتِ الا ما بهِ خيرها ولم اقصد الا ما ارادهُ والدها

قالت فدوى . ما تعنين بقولك

قالت اعني الخاتم الذي رميتهِ في وجهي منذ بضعة ايام ستلبسينهُ من يد من لا يسعك مخالفتهُ

قالت فدوى من ذا يا ترى يستطيع ذلك قالت اذا اذنت لي سيدتي بخلوة قصصت عليها الخبر واطلعتها على الامر فاختلت بها مع شدة كرهها لها لتدرك المهمة التي اتت بها هذهِ الحية الرقطاء فقالت العجوز ان والدك قد سمح بخطبتك لمن اردت الباسك خاتمهُ فامتنعت وانتهرتني

فنفرت منها فدوى وقالت لها هل وصل من قدرك ان تخاطبيني بمثل هذا الخطاب اين الوقار والحشمة اللذان تتصف بهنَّ اللائي مثلك اقصري لا تخرقي حرمة شيخوختك

فقالت لها لا يصعب على سماعك كلامي ايتها السيدة اللطيفة فاني لم آت لاثير فيك ثائرة الغضب بل لاطلعك على حقيقة الامر لعلي اقدر ان اعطف قلبك على ذلك الشاب الذي لا يريد من الدنيا الا رضاك

فقالت فدوى لا اريد ان اسمع مثل هذا الكلام ولا هو من شؤونك فما بالك لا تأتيننا الا بأخبار الشؤم

قالت اني لا آتيك الا بالخبر اليقين وهذا كتاب يكشف لك حقيقة الامر ويطلعك على طوية من تعلق قلبك بحبهِ ويريك الاشراك التي نصبها لك فوقعت فيها لصفاء قلبك

فاضطربت فدوى عند هذا الكلام بالرغم عنها وقالت ماذا ألا تقصرين عن معاودة مثل هذا الكلام فقاطعتها العجوز وقالت لما اتحمل اهانتك بالصبر لانني كنت فتاة مثلك لا انقاد الا لما تصوّرهُ لي المخيلة فخذي هذا الكتاب واقرئيه على نفسك فتعلمين حينئذ صدق خدمتي لك

فأخذت فدوى الكتاب وفضته ويداها ترتعشان فاذا فيهِ

حضرة السيدة فدوى

ان الموجب الاول لهذا الكتاب اليك هو عظم حبي لك ولولا ذلك الحب البالغ في نفسي مبلغ الهيام واكرام سيدي والدك الجليل القدر لاوقعتك في شرّ اعمالك غير ان فؤادي المتيم بحبك لم يطعني على اذيتك وقد تماديت بالجفاء والنفور معما اظهرتهُ لك من اللين والملاطفة فاذا سعيت الى التقرُّب منك سعيتِ الى اهانتي واذلالي وانا لم اقترف ذنباً يوجب هذا غير اني اطلعت على ما نصبهُ لك بعضهم من الاشراك وقد التمس لك من اجل ذلك عذرًا على غرورك فاعلمي ياحبيبتي ان الذي قد وعبتهِ قلبك غلام غرٌّ لا يعرف لهُ لا حسب ولا نسب واذا اردت تحقيق الخبر بالخبر فاسأليهِ ينبئك اذا كان يعرف لهُ حسباً

او نسباً ما خلا والديهِ ايايق بك وانت ابنة اصل كريم ومجد وسودد ان تسلمي زمامك الى من لا يعرف جدهُ ولا وطنهُ ولا هو من الناس في مقـام يليق بك ويرضي والدك فمن هذا اصلهُ لا يعرف لك قدرًا ولا يقدّر لك مقاماً ولولا ذلك ما اذاع امرك بين الناس وجعلك مضغة في افواه العامة منهم وما تزعمين انهُ عاهدك عليهِ سرًّا تتداولهُ الالسنة في الفنادق والقهوات فليس احد ولم يبلغهُ خبر قصر النزهة وحكاية الزر والدبوس ... وقد كتمت كل ذلك عن والدك صيانة لحرمتك فاعلمي الآن انك قد صرت خطيبة لي بأَمر والدك فانزعي من بالك الانقياد لذلك الغلام واذعني لامر والدك واذا حاولت الاستمرار على غرورك فلا يزيد ذنبك الا كبرًا وما لا ترضينهُ طوعاً ستنقادين لهُ كرهاً والسلام محبـــك

عزيز

فما اتمت فدوى قراءَة الكتاب الا خارت قواها واكفهرَّ لون وجهها فالتفتت الى دليلة وقالت لها لقد تمادى هذا الذميم تمادياً ليس وراءَهُ حدٌّ ولا نباية واراك متممة لمبادئهِ السفلة فاخرجي من هذا البيت ولا تعودي البتة عمرك كلهُ

فخرجت دليلة وهي تقول يا ابنتي ستندمين على كل هذه الاعمال

اما فدوى فوقعت في حيرة مما قرأَتهُ من امر الدبوس والزرّ ولم تجد تفسيرًا لحل تلك الرموز الا انهُ عرف ذلك من شفيق نفسهِ لان ذلك محفوظ بينهما ولما كانت تفتكر في ذلك كان يخامر فؤَادها الشك في اخلاص

شفيق لكنَّ عواطف الحب لا تصبر ان تبرئهُ من هذه التهمة وتجلهُ عن هذه الدنايا ولكن هذه التهمة التي مسَّت كرامة حبيبها ما كانت لتزول من بالها باليسير من الوقت فلما رأت بخيتاً اطلعتهُ على الحكاية فقال لا تصدقي ما ذكرهُ او يذكرهُ هذا الخائن فانهُ كاذب مخادع فشفيق ارفع واشرف من ان يقابل بهذا الوغد الذميم

الفصل الرابع والثلاثون

﴿ معدات الزفاف ﴾

وبعد بضعة ايام جاء والد فدوى فاتى عزيز للسلام عليهِ فزاد الباشا في اكرامهِ وتبجيلهِ فلما بلغ فدوى ذلك خافت سوءَ العقبى

وبعد يومين من مجيءِ الباشا اختلى بفدوى وفاتحها في مسألتها وامر خطبتها لعزيز واطنب في مدح صفاتهِ ومروءَتهِ وانهُ قد نجاهُ من الموت في الاسكندرية الى ان قال لها قد سبق مني القول لهُ ان يكون لك بعلاً

فقالت امر والدي لا اقدر ان ارفضهُ الا انني اطلب اليك الامهال في هذه المسأَلة

فقال وما الفائدة من الامهال وقد عرفت هذا الشاب معرفة جيدة وهو الذي انقذني من الموت على يد احد اصحابهِ وفوق ذلك فهو رجل ذو ثروة واسعة فعلامَ الامهال

فقالت ان البلاد الآن في خطر والافكار مضطربة فهلاَّ تمهلت

في الامر ريثما تهدأ الاحوال

قال ان ذلك لا يوجب الامهال ولا بد من اتمام الامر فالشاب ممن يليقون بنا

قالت ولكن .... وخنقتها العبرات

فبادرها قائلاً لا حاجة بنا الى التردد وقد قضي الامر ووعدت الرجل وعداً شافياً بك فلم تستطع فدوى جواباً لشدة تأثرها واشتغالها بالبكاء

فغضب الباشا منها وانتهرها قائلاً ما معنى هذا البكاء ألعلك تريدين خداعي بدموعك فلا حاجة بنا الى الاطالة فالغدُ موعد الاقتران

فترامت على يدي والدها تقبلها وهي تقول ارحم يا ابتاهُ ابنةً مسكينة واسمح لها بكلمة فاحسَّ بالحنوّ الوالدي فانعطف قلبهُ نحوها وقال تكلمي ما بدا لك فقالت سيدي لا تظلم ابنتك ولا تحملها ما لا تطيق فانا مجبورة على تتميم اوامرك كلها ولكن هذا شيء .... لا اقدر على ... اجرائهِ

فقال ماذا ... وهل تعنين مخالفة قولي

سيدي ووالدي ما اعتدت ان اخالف لك امرًا الاَّ هذا فقط .

فقاطعها وهو يتميز من الغضب قائلاً يكفي لا تزيدي اتظنين اني لم اطلع على مكاتيبك لذلك الشقي الى بلاد الانكليز فهذا امرٌ لا يليق بك ولم يسبق لهُ نظير عندنا

فقاطعتهُ قائلة يا ابتي ... خيانة ... وخداع لا تظلم هذه الابنة الموت اقرب اليَّ من القبول بهذا الامر قال لا يعنيني كيف كان هذا

الامر بل يهمني اني وعدت هذا الرجل بقرانك أفهمتِ

فاوشكت فدوى ان تفقد صوابها من التأثر والبكاء فقالت بصوت ضعيف ونغمة حزينة الموت... الموت ... احب اليَّ ولا ...

فانتهرها قائلاً أهذه نتيجة التربية يا فدوى ان تعقي والديك

فقالت لا لا ... يا ابتي وانما اطلب اليك ... الاهمال بالامر ريثما تختبر من غشتك ظواهره

فقال عبثاً تتكلمين فغداً ميقات الاقتران قبلتِ ام لم تقبلي ثم تركها وخرج لا يلوي على شيء واخذ يهتم بمعدات الفرح وبقيت تلك المسكينة تتقلب على نار الاسى وتندب سوء بختها فتراءى لها ان تستنجد والدتها فلما ذهبت اليها واطلعتها على الامر اجابتها خير لك الانصياع الى امر والدك من مخالفتهِ لانهُ يسعى الى خيرك فما معنى مخالفتك لهُ العلك خبرت الدهر اكثر منهُ او لعلهُ يريد بك سوءًا فعادت فدوى الى غرفتها تضرس انامل الاسى وتشكو المعاكسات التي المت بها ولم ترَ منصفة لضعفها وبقيت بياض النهار وسواد الليل تتقلب على جمر الغضى فلما كان الصباح اعد الباشا معدَّات الفرح من ماكول ومشروب واعدت تلك السيئة البخت جرعة سامة اخفتها حتى تكون في مأمن من انكشاف امرها للسوى حتى اذا تحققت وقوع المقدور تتجرَّعها وتتخلص من حياة تسخر قلبها فيها لسوى الحبيب

أَما عزيز فأخذتهُ هزَّة الطرب لما نال من الفوز فدعا من استطاع من اصدقائهِ الى الاحتفال ولبس افخر ما لديهِ من اللباس متناسياً حالة

البلاد التي كانت في خطر عظيم فالجنود المصريون كانوا في التل الكبير يتوقعون هجوم الانكليز عليهم وهم في تأخر مبين والجنود الانكليزية صاروا على مقربة منهم واما عزيز فنزع ثوبهُ الجهادي ولبس ما اختار من اللباس ليظهر بهِ جميلاً ذلك اليوم ولو ساعدتهُ الاحوال لجاء بالمغنين والمغنيات واحتفل احتفالاً عظيماً

فما كانت عصارى النهار الا امتلأت القاعات بالمدعوّين فلما تأكدت فدوى الامر وقعت في اليأس وانفردت في غرفتها تندب شقيقاً والحيـاة وعوّلت على الايقاع بذلك الخائن ثم بنفسها تخلصاً من العار فارسلت تستدعي بخيتاً ولما حضر القت اليهِ الامر واطلعتهُ على عزمها من تجرع كأس الموت فقال لها ودموعه تتناثر لا تفعلي يا سيدتي ولا تبيعي حياتك رخيصة ان هذا الخائن والله غير بالغ ما يريد وانا حيٌّ أُرزق فلا بد من ان اخطف روحهُ قبل ان يدركك بصرهِ وبعد ذلك سواء عندي عشت او متُّ لاني اكون قد اقمت بما يجب عليَّ وخلصت نفساً طاهرة من العذاب والموت وكان بخيت قد اعدَّ فرداً ناريا (ريفولفرً) حتى اذا تأكد عقد الزواج يطلقهُ على عزيز فيميتهُ ثم على نفسهِ فيموت الاثنان فداء لفدوى

الفصل الخامس والثلاثون

على الباغي تدور الدوائر

وفي الاصيل بينما كان بيت الباشا غاصاً بالجماهير وقد احضر ما لزم لعقد الزفاف جاءهُ خادم يقول ان في الباب جاويشاً وفي يدهِ كتاباً لسعادتكم فخرج الباشا وتناول الكتاب فاذا هو مكتوب بايعاز عرابي باشا في قصر النيل يقول فيه ما معناهُ

ان امتلاك جنود العدو حصون التل كبير يقضي على جميع امراء العسكرية والملكية واعيان البلاد بالحضور حالاً الى سراي قصر النيل للمفاوضة في الاحتياطات اللازمة لمنع العدوّ من دخول مدينة القاهرة فيجب حضوركم حالاً حالاً الى السراي المشار اليها

من قصر النيل يوم الاربعاء في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢

فلما قرأ الباشا الكتاب تغير لون وجههِ فأمر باحضار العربة وركب وركب معهُ من حضر من أعيان البلاد الى المحل المذكور فانحل عقد الاجتماع ولما وصل الباشا الى قصر النيل رأى القاعات ملأى بالامراء والاعيان وهم يتفاوضون في ما يتخذونهُ من الاحتياطات لمنع العدوّ فكثرت الاراء فيما بينهم وتعددت وتناقضت فنهض احد الباشوات وكان من الذين لا يزالون محافظين على ولاء الخديوي فعنف الجهادية على عصيانهم وحرّضهم على وجوب التماس العفو من مولاهم ووافقهُ كثيرون ممن حضر فألفوا لجنة لتكتب عرضاً بطلب العفو فكتبتهُ وارسلتهُ بمعية

وفدٍ الى الاسكندرية غير انهُ لم يُقبل

وبعد مسير الوفد من القاهرة اصرَّ البعض على وجوب الدفاع وأقروا على انشاء خطوطٍ نارية في ضواحي المحروسة فذهب عرابي لتنفيذ ذلك في العباسية وكانت العاصمة حينذاك في اختلاط ولغط خوفاً من حدوث ما حصل في الاسكندرية من حريق وخراب

كل هذا الاضطراب وعزيز لا همَّ لهُ الا الظفر بفدوى فلما اقبل المساء ولم يأت الباشا خاف ان هذا الانقلاب السياسي يعرقل مساعيه وخصوصاً اذا جاء شفيق العاصمة فتحبط آمالهُ وتظهر خيانتهُ لهُ فيعمل على الانتقام منهُ فصوَّرت لهُ بصيرتهُ ان يأتي بزمرة من الرعاع على شاكلتهِ ويتهدد فدوى ويختطفها غصباً وهكذا فعل فلما وصل باب غرفتها وهمَّ بالدخول اعترضهُ بخيت فلم يرتد فدفعهُ في صدرهِ قائلاً لا تزيدك الايام الا سفالة فهجم رفاقهُ يريدون فتح الباب قهرًا فلما رآهم بخيت على هذهِ الحال اطلق فيهم الفرد ولكنهُ صوَّبهُ الى عزيز فاصاب منهُ جنبهُ فسقط الى الارض فعلت الغوغاء من رفاقهِ وهجموا على بخيت بالنبابيت والعصي اما هو فدافع حتى كاد يقع في اليأس وحينئذ اضطربت فدوى لهذهِ الغوغاء واطلاق البارود فتناولت الجرعة السامة ويداها ترتعشان وفرائصها ترتعد ثم اخرجت تذكار شفيق وجعلت تقبلهُ وتذرف عليهِ العبرات وهي تقول على الد .. فها السلام اذا خلت ممن يحبهُ قلبي فالوداع الوداع ايها الحبيب كنت لا تزال من اهل الحياة واللقاء اللقاء اذا كنت قد انتقلت الى اهل البقاء ثم لم تقوَ على

الوقوف فالقت بنفسها الى المقعد وهي غائبة بذكرى الحبيب فسمعت جلبة عقبها سكوت وصوت رخيم ينادي «ما هذا التحامل اين فدوى . من هؤلاء يا بخيت . كيف يقوون على اختراق حرمة المخدرات» فلما سمعت فدوى هذا الكلام خافت افتضاح امرها ورفعت الكأس الى فيها فسمعت ايضاً «اين فدوى . من يظلم هذا الملاك» فبهتت واخذتها الدهشة واشتبهت في صوت من تحب فحاولت لها الحياة ورغبت في استطلاع الخبر قبل ان تأتي امرًا فريًا . والاسم الذي ظنته منذ هنيهة مقرباً من الحبيب رأته مفرقاً عنه . فاي عبارة تفي بوصف حالة هذه الذات الملاكية وهي بين هذه التقلبات تارة ترجف من الخوف وتختار الموت واخرى تهتز بسكرة الحب وتطيب لها الحياة فتتصوَّر ان الحبيب حي سيوافيها ثم سمعت ايضاً «اذهبوا لا يبقَ منكم احد» وبعد بضع ثوان لم تعد تسمع صوتاً ثم فتح الباب ودخل فيهِ ضابط انكليزي فلما رأته فدوى خافته فاذا هو يقول لا تخافي يا حبيبتي انا شفيق وكانت لا تزال جالسة والجرعة السامة في يدها فلما سمعت ذلك سقطت الجرعة من يدها وقالت احبيبي في قيد الحياة وسقطت على الارض مغشياً عليها فرشها شفيق بالماء الى ان استفاقت واجلسها على المتكإ وهو يقول خفضي من اضطرابك فلما رأت شفيقاً وتأكدت انهُ هو باللباس الانكليزي لم تتمالك ان صرخت وهي غائبة عن الصواب حبيبي حبيبي شفيق قد شفق الله على حياتي فارسل اليَّ ملاكي الحارس فاخذ شفيق يسكن روعها ويلاطفها الى ان هدأ بالها

ثم نهض شفيق ليرى ما تمَّ لعزيز فاذا بهِ يئن من الم الجرح وقد همَّ بخيت ان يقضي عليهِ فمنعهُ وامرهُ بنقلهِ الى غرفة لمداواتهِ فقالت فدوى اتريد احياء خائن اراد بك سوءًا فقال تمهلي يا حبيبتي ولا تأخذي الناس باعمالهم فهذا الشاب كان من اصدقائي وهو الآن مطروح بين حيٍّ وميت فيجب علينا معاملتهُ معاملة الجريح في الحرب ثم امر بنقلهِ الى غرفة ثانية وغسل جراحهُ وضمدها حتى استفاق فرأى شفيقًا فوق رأسهِ فبكى واحسَّ بما اساء بهِ الى هذا الباسل فهمَّ ان يلقي بنفسهِ الى الارض ويطلب اليهِ المغفرة فمنعهُ وطيب خاطرهُ قائلاً لا بأس عليك يا عزيز انا اعلم انها هفوة صدرت منك فلا اؤاخذك عليها فاضطجع ريثما تستريح وساعود اليك ثم تركهُ وعاد الى فدوى

الفصل السادس والثلاثون

﴿ اجتماع الحبيبين وكشف القناع ﴾

فلما سمع الشرطة اطلاق البارود اتى بعضهم فشاهد ضابطًا انكليزيًا داخلاً البيت وكان قد سمع بدخول الانكليز مدينة القاهرة في ذلك المساء فظنهُ قد فعل ذلك عمدًا فلم يستطع كلاماً

اما والدة فدوى فلما سمعت الضوضاء واطلاق البارود اضطربت وخرجت فرأت الازدحام ثم اتى الضابط الانكليزي ولم يصبر ان دخل غرفة فدوى فخافت عليها ونادت الخدم ان يمنعوهُ فلم يجسر احد منهم

على ذلك فظنت ان الانكليز بعد دخولهم القاهرة جاءوا للقتل والنهب وبقيت في قلق عظيم على ابنتها الى ان اتى الباشا فأطلعتهُ على الخبر فلم يستطع الآخر في باديء الامر الدخول خوفاً على حياتهِ وصار ينتفض من الخوف والغضب ويفكر في مخرج ليخلص ابنتهُ واذا بجنيت قداتى اليهِ ودلائل الفرح والاستبشار بادية على وجههِ وهو يقول لمَ لا يدخل سيدي فدخل الباشا غرفة ابنتهِ فاذا بها جالسة الى ذلك الضابط فاستاء منها لما كان يجب عليها من التحجب عن الغرباء خصوصاً لانهُ كان يعهد فيها المحافظة على تلك العادة غير انهُ لم يقوَ على ابداء ملاحظة في هذا الشأن فنسب ذلك الى خوفها فلما اقترب منهما كان يرجف من الخوف والغضب غير انهُ حالما تفرس في وجه شفيق عرفهُ انهُ هو الذي نجاهُ من الموت في الاسكندرية فألقى بنفسهِ اليهِ وقال اهلاً وسهلاً اني لا انسى فضلك مدى العمر فما هذا الاتفاق السعيد ومتى جئت قال جئت هذا المساء مع الجيوش الانكليزية فقال هل على المدينة من بأس منهم قال لا لانهم دخلوها وجعلوا الخفر في كل جهاتها واحتلوا القلع والحصون ولا يلبثون ان يقبضوا على عرابي . وها قد تمت نبوة قائد الحملة الجنرال ولسلي بانهُ يدخلها في ١٤ سبتمبر

اما فدوى فدهشت لترحيب والدها بشفيق ولكن امارات الوجل كانت لا تزال على وجهها اثر ما قاست هذين اليومين ثم ما كان من دخول شفيق عليها بغتة

وكان الباشا جاهلاً كيفية اصابة عزيز ولا ينفك مفكرًا في سبب

دخول ذلك الضابط لبيتهِ والجلوس الى ابنتهِ فلاح لهُ ان شفيقاً هو الجاني على عزيز لدواعٍ جنسية وكانت الحياة اذذاك لا قيمة لها فأسف لضيم صهرهِ واوجس من ضياع الثروة ورغب في استطلاع الخبر فسأل شفيقاً فبادرتهُ فدوى وكانت قد استردت روعها . ان بخيتاً يا ابتِ ضربهُ ويا ليتها كانت القاضية . قال ولماذا . قالت اطلب اليك قبل قص الخبر ان تعلمني كيف عرفت حضرة الضابط ورمت شفيق بنبل من عينيها خرقت احشاءهُ وتبسمت تبسماً مملوءاً من الحب

فقال الباشا هذا الذي انقذنا من الموت في الاسكندرية انا وعزيز . قالت اتعرف ان إسمهُ شفيق قال (وقد بهت اذ تذكر ذلك الاسم) ولعلهُ الذي خبّرت عنهُ من عزيز قالت نعم هذا هو الملاك الحارس الذي انقذك من الموت مرّة وانقذني منهُ مرّتين وانقذ ذلك الخائن مراراً فخجل شفيق وقد اذهلهُ لطف حديث فدوى حتى اوشك ان يغيب بسكرة الحب فهمّ ان يتجمل بالاعتذار لمبالغتها بالوصف فأدركت ذلك منهُ وقالت « وهي ترمقهُ بالحاظ ناطقة بأن لا اخشى في حبك لوم اللائمين » (اذا ذكرت بسالتك فلا اكسبك رفعة لان اعمالك المتجددة مع الايام ناطقة بذلك فلا تحسب شكري لك على ما اوليتني من الفضل ثناءً عليك) ولكي لا تدع لهُ مجالاً للكلام وجهت الخطاب الى والدها بعد ان افهمتهُ بالحاظها المراد وقالت أتلومني بعد هذا يا والدي اذا كنت . . . وكأنها أحست بعدم لياقة ذكر الحب لوالدها فكادت تتلعثم فاتمّ والدها قولها اذا كنت تحبينهُ اليس كذلك فخجلت ولكنها استأنفت الكلام فقالت لا اجهل يا ابتِ

ان وجودي بالقرب منهُ ولو ملثمة محظور في عوائدنا غير اني لا استحي ان اقول انهُ يجب معاملة من كان كهذا الشهم وقد انقذني من الموت مرتين معاملة اقرب الناس مني فاعد مقابلتي لهُ على هذه الحالة مقابلتي لاقرب اقربائي

فنهض الباشا حينئذ الى شفيق وقبلهُ ومدحهُ فكرر شفيق ما حضرهُ من عبارات الشكر والامتنان لما اظهراهُ لهُ ثم اخذوا باطراف الحديث عن عزيز واعمالهِ حتى انكشفت للكل سعايتهُ ورداءة جوهرهِ فاسف الباشا على ثقتهِ بهِ قدر اسفهِ على فقد ثروتهِ بهذا الحادث ثم سأل الباشا شفيقاً من ابوهُ

فقال ان والدي اسمهُ ابراهيم وهو احد مستخدمي قنصلاتو انكلترا في القاهرة وقد قضى حتى الآن في خدمتها زهاء ١٨ سنة فدهش الباشا لذلك وخاف ان لا يكون مسلماً فقاطعهُ قائلاً ومن اي الطوائف قال من الطائفة الاسلامية فازداد دهشة وقال أمن الطائفة الاسلامية وقد قضى في خدمة الحكومة الانكليزية جلَّ عمرهِ فقد سمعت انهُ ليس منها فقال شفيق كلاَّ بل هو منها واما تقربهُ من هذا القنصلاتو فيلوح لي ان لهُ بهِ سرًّا يود اخفاءهُ

فقال الباشا واظن هذه البلاد ليست بلادكم

فقال شفيق اعترف لك بجهلي الحقيقة كما هي وانما يترجح لديَّ ان والدي من انحاء بر الشام فاستأنف الباشا الحديث لئلا يضايق شفيقاً وعاد الى التكلم في امر عزيز ولكنهُ اضمر في سرّهِ ان يبحث عن حقيقة

حسب شفيق ونسبهِ قبل اتمام امر الاقتران

الفصل السابع والثلاثون

شهامة شفيق

فقال الباشا ان خيانة هذا الرجل تستوجب القتل

اجابت فدوى لا شك في ذلك واني اعجب كيف سعى شفيق الى معالجتهِ

فقال شفيق الم يكن هذا الشاب من اصدقائي بل رفيقي في المدرسة فلا يليق بي ان اقابل جهلهُ بالشرّ

فقالت فدوى ايستحق هذا الخائن غير القتل وقد ابدى لك ما ابداهُ من الشر والعدوان

قال شفيق اي فضل للعاقل على الجاهل اذا عامل الجهل بالجهل والشرّ بالشرّ وما الانتقام الاَّ شأن الضعيف الساقط وهذا المسكين قد نال ما جنت يداهُ فاصيب بما استحق ولو استحق الموت لكانت الضربة هي القاضية وفوق ذلك فهو جريح يقاسي من الآلام وتبكيت الضمير ما يكفيهِ جزاءً فاذا شفي فبارادة الله وان قضى فمن الله جزاؤُهُ

فقالت لا تزال تسعى الى الابقاء عليهِ وشفائهِ وانا لا ارى الاَّ الموت جزاءً لهُ

فقال الموت والحياة يا عزيزتي بيد الله وما نحن الاَّ عبيد ضعفاء

عرضة للغلط والتهوُّر وقد رأيت هذا الشاب يترامى على رجلي ليقبلها وهو فيما علمت من الم الجرح وقد اصيب من تبكيت الضمير بما يكفيهِ ومع ذلك فالشهامة تأمر بالعفو عند المقدرة

قالت ولكنني اطلب اليك بحق المحبة ان لا تبقي عليهِ والا فاسمح ان يعالج جرحهُ في غير هذا البيت

فقال شفيق متبسماً ان امرك يا سيدتي مطاع ولكنني اذكرك امرًا واحدًا وهو انني قد صرت من رجال الجهادية عرضة للرصاص في الحروب وحياتي دائماً في خطر فلو بلغك يوماً انني أُصبت برصاصة ولم الق نصيرًا ولا شفوقاً ينقذني ويعالجني فماذا يكون حالك حينئذ وكيف يكون قلبك

فارتعدت فرائص فدوى لكلام شفيق كانهُ حقيقي ومسحت دموعها وقالت بمن تتشبهُ يا شفيق ان ذلك خائن لئيم

فقال ان البشر ضعفاء يا عزيزتي ومن منا يا ترى معصوم من الغلط وقيل ان من اقرَّ بذنبهِ لا ذنب عليهِ فهذا المسكين اقرَّ واستغفر ونال ما استحق من القصاص

وبينما هما يتحدثان كان الباشا ينظر الى شفيق معجباً بكرم اخلاقهِ فقال لله درك يا ولدي ما اكبر نفسك وما اظهر دلائل الفضل عليك فافعل ما بدا لك لئلا يقال فقدت المروءة اهلها

فقال سيدي عفوًا لم اقصد إبداء رأيي لدى سعادتك فلك الامر والنهي غير اني اظن انهُ يحسن بقاء عزيز تحت المعالجة وبعد ذلك فالامر لسعادتك

فقال الباشا نعم الرأي رأيك يا ولدي فهيَّا بنا نخيرهُ في البقاء هنا ريثما يشفى او الذهاب الى بيتهِ فاما قابلاهُ اخفى وجههُ بين يديهِ وقال عفوًا عفوًا ايها الصديق الكريم فضميري يبكتني لما اقترفتهُ نحوك فذنبي عظيم يستحق الموت ولكن العفو العفو فقال شفيق لا بأس عليك فقد جرى المقدر اما الآن فقد اتيت وسعادة الباشا نخيرك بين البقاء هنا او الذهاب الى بيتك فقال اريد ان تسمحا بنقلي الى محل سكني فاجاباه الى ذلك ونقل

الفصل الثامن والثلاثون

﴿ انتظار مجيء والدي شفيق ﴾

فلما نقل عزيز الى بيتهِ عاد شفيق الى غرفة فدوى واستأذن الباشا في الانصراف قائلاً اني آسف لعدم امكاني البقاء الآن لازداد شرفاً ومؤانسة برؤيتكم ومحاضرتكم اذ ربما يترتب على تغيبي عن الجيش وقتاً طويلاً سوء ظنٍّ بي لانهم لم يسمحوا بانخراطي في جندهم متطوّعاً الا بعد السعي الكثير فاني لست انكليزي الاصل وقد ساعدني كون والدي من موظفي هذهِ الحكومة في هذا القطر ولهُ فيها خدمات صادقة فلا بد لي من ان ابرهن لهم على صدق خدمتي حتى يثقوا بي فأنال المكافآت الجهادية التي لا بد منها بعد هذا الفوز في حربنا وسأعود الآن الى الالاي ومتى استتبت الحال اصير قادرًا على الترداد والتشرّف

بالمثول بين يدي سعادتك فالقي اليك ما يخالج ضميري من المحبة والاحترام لعلي اصادف ما آمله من محبتك وكرمك فلحظ الباشا المراد من تقربهِ وقد احبهُ وسرَّته العلائق التي ربطت فدوى بحبهِ فلم يمانع بائتلاف قلبيهما فرحب بشفيق واخلى لهُ مكاناً من الحب في قلبهِ

اما فدوى فهان عليها فراق حياتها ولا بعاد الحبيب غير انهُ ليس باليد حيلة ولا مكان لاظهار عواطفها امام ابيها فنظرت الى شفيق مستعطفة وقد تاهَ عقلها فتبادلا الخطاب بالالحاظ الناطقة التي يريدها الشاعر بقولهِ

تشير لنا عما تقول بطرفها   واومي اليها بالحاظ فتفهمُ
حواجبنا تقضي الحوائج بيننا   فنحن سكوت والهوى يتكلمُ

ثم عاود شفيق الكلام فقال انني بانتظار قدوم والديَّ فمتى اتوا نقوى علائق المودة المتبادلة بين العائلتين

فقال الباشا ماظنك بقدوم حضرة الوالدين

قال ارجو ان يكون قريباً وربما تستبقي الحكومة والدي في لندرا مدة لبعض الاستعلامات لما سبق لهُ من الخدمة في مصلحتها في مصر

فخافت فدوى طول المدة ولكنها لم تكن تستطيع جواباً عما في فؤادها الا بما ترسمهُ العواطف على وجهها

ثم دنا شفيق من الباشا وودعهُ ومدَّ يدهُ الى فدوى فمدَّت يدها وهي ترتعش من عظم تأثرها فضغط عليها بلطف كأنهُ يقول لها عندي مثل ما عندك فلا تيأسي من حبي لك ثم انصرف شفيق وبقي الباشا

وابنتهُ فاثنيا على كرم اخلاق شفيق وبسالتهِ فلام الباشا فدوى لكتمانها ما ربطها بشفيق من الحب الطاهر فاعتذرت لهُ انها كانت تخاف ان لا يوافقها وبعد المذاكرة بما صدر من سفالة مبادئ عزيز وكيف آل امرهُ وما ابداهُ شفيق من كرم النفس وكيف ظهر فضلهُ فنهض الباشا يريد الذهاب الى المدينة ليرى ما جريات الانكليز فيها بعد حلولهم لانهُ كان يظن كسائر اهل القاهرة ان الانكليز يدخلونها مفتتحين فينهبون ويقتلون فكان الامر على خلاف ذلك لانهم دخلوها بسلام واهلها في امن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

اما شفيق فلما وصل الى معسكرهِ في العباسية وجد هناك عرابي وبعضاً من رفقائهِ محجورًا عليهم في غرفة واخذت الجنود الانكليزية من ذلك الحين تلقي القبض على زعماء الثورة للمحاكمة فحكم على سبعة منهم وفيهم احمد عرابي زعيم الثورة بالاعدام فتكرَّم الجناب الخديوي بالعفو عنهم وابعادهم الى جزيرة سيلان وبعد ابعادهم اخذت الاحوال في السكون رويدًا رويدًا

اما شفيق فكان ينتظر محاكمة العرابيين وتقرير الاحوال ليعود الانكليز الى بلادهم فيستعفي هو من الجهادية ويخلو لهُ الجوّ فيقترن بحبيبتهِ غير ان انتظارهُ قد خاب لان الدولة الانكليزية قرَّرت احتلال مصر الى اجل غير معين بدعوى انها انما جاءت لاخماد الثورة وتأييد الامن فلا تبرح البلاد حتى تستتب الراحة تماماً فكان شفيق اثناء بقائهِ في مصر يتردَّد الى بيت الباشا لمشاهدة فدوى ولم يكن يهمل

السؤال عن صحة عزيز بل كان يستطلع احواله اما عزيز فلم تكن هذه المعاملة الا لتثير منهُ حاسة الحقد والانتقام لما رأى في نفسهِ من الذل والاحتقار لفوز شفيق عليه

اما والدا شفيق فوردت عليهما كتب من ولدهما تنبئهما بانه في مصر بخير وسلام وهو حاصل على امتيازات الجهادية فسرًا لما نالهُ من الشرف في ذلك ولا سيما حين علما انهُ كان في جملة من انعم عليهم الجناب العالي بالنياشين والرتب اقرارًا بامانتهم وزادهُ شرفاً انهُ كان من الضباط المختارين للانتظام في خدمة الجيش المصري وتدريبهِ

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ حديث في لندرا ﴾

بقيت والدة شفيق كاتمة عن زوجها امر حب شفيق لفدوى حتى اتاها كتاب منه يخبرها برضاء والد فدوى عنهُ وانهُ يميل الى تزويجهِ بها ويطلب اليها ان تطلع والدهُ على حقيقة الخبر وتستطلع افكارهُ في ذلك

فسرّت لانها لم تكن تطمع بذلك لفرط ثروة الباشا فاحبت اطلاع زوجها ليشاركها بالفرح فبقيت تترقب الفرص لتراهُ مسرورًا واسع الصدر حتى كانت ليلة من ليالي الصيف في لندرا كان فيها زوجها اقل انقباضاً من عادتهِ فجلست اليهِ وبدأت تلاطفهُ بالحديث الى ان قالت الا تبرح

مصرًّا على كتمان حكاية الشعر عني يا ابراهيم

فتأفف ابراهيم من تكرار هذا السؤال عليهِ لانه ينقبض عند تذكرهِ فقال استحلفك بالله ان لا تعيدي على مسمعي ذكر الشعر فقد قلت لك انني لا استطيع اطلاعك على شيءٍ من امرهِ

فضحكت سعدى وقالت اتظن لا احد يحمل اسرارًا الا انت فاعجبت بما كتمت فان لديَّ سرًّا لو اطلعتك عليهِ لزالت كل اكدارك وتبدلت بالافراح

قال وما هو يا ترى السرُّ الذي يجلب الافراح وتكتمينهُ قالت وهي تبسم في وجههِ لا استطيع ان انقلهُ لك قبل ان تسمح لي بفض الكتاب او تطلعني على حكاية الشعر

فقال اذا كان في معرفة سرك ما يفرح ففي سرّي ما يحزن فالاحرى ان نتجنب الحزن ثم اني لا استطيع التصريح بسرّي فاذا كان سرك كما قدمت فهاتهِ لعلنا نجلي شيئاً من صدإِ الاحزان والاكدار فقد كفانا ما كابدناهُ اثناء ضياع شفيق من المشقة فلنشكر الرب على بقائهِ حيًّا ونطلب اليهِ ان يحفظ لنا حياته ويقدر له نصيباً يحفظ له سعادته وهناءهُ لان معظم سعادة الرجل تتوقف على حكمة امرأتهِ وحسن اخلاقها

فلما رأت سعدى ان الحديث قد سهل لها الخوض في امر اقتران شفيق قالت لا تظن اني اقل اهتماماً منك في امر اختيار عروس لولدنا نقرر له سعادة حياتهِ وانا افضل ان تكون من عائلة ذات ثروة واسعة لانه يستحق كل خير فما رأيك في الابنة الغنية الا تفضلها على الجميلة

فتنهد ابراهيم كمن يريد التكلم ويمنعهُ الرقيب فقال اذا اردت رأْيي فلا اريد لهُ ابنة الا من ذوي قرباهُ سواء كانت غنية او فقيرة جميلة او غير جميلة

فقالت انقصد من اقربائك او اقربائي

قال من اقربائي

فرمقتهُ بنظر المدهوش قائلة قد مرّ عليَّ برفقتك كل هذا الزمن ولم تطلعني على شيءٍ من امر وطنك او ذوي قرباك اليس هذا اجحافاً منك ان اعيش معك زهاء عشرين سنة ولا تعلمني من ايِّ البلاد بلادك ولا من ايّ الناس اهلك فكتمانك عني هذا الامر اشبه بكتمان امر الصندوق

فقال وهو يتبسم مستهزئاً اعلمي يا سعدى ان معرفة احد السرّين يترتب عليهِ معرفة الآخر

فازدادت سعدى تطلعاً الى استطلاع السرّ غير انها لم تقوَ عليه ذلك الحين فاستأنفت الحديث عن شفيق قائلة ان اسرارك قد اذابت كبدي فدعها الى الوقت الذي تشاء اما مسأَلة زواج شفيق فاحب معرفة رأْيك فيها فاذا اختار ابنة من بنات مصر الغنيات وكانت ذات حسب ونسب وتهذيب وتعقل افلا تكون مسروراً

فاجابها كلاّ بل اكون متكدراً ولو كانت الابنة من بنات الباشوات لاني افضل لهُ ابنة من بنات اعمامي ولو كانت فقيرة فقالت ولو احب واصرَّ على اخذها قال لا اظنهُ يخالفني واذا فعل ذلك اكون متكدراً مدة حياتي

فاضطربت سعدى عند ذلك الخطاب واوجست مما يجلب الكدر لشفيق لانهُ مغرم بفدوى ولم تستطع مراجعة زوجها لئلاَّ يفهم قصدها فسكتت وهي مرتبكة الخاطر . ولم تقدر ان تطلع شفيقاً على افكار والده خوفاً من سوء عاقبة ذلك فتربصت لما يأتي بهِ المقدور او تقدره ُ الاحوال

وبعد المداولة في احاديث مختلفة قال ابراهيم وما سرّك الذي تفاخرين بهِ قالت ليس لديَّ سرٌّ وانما اردت تحريضك على مكاشفتي بسرك فلم انجح ثم عاد كل منهما الى غرفتهِ

اما سعدى فلما دخلت غرفتها جلست تكتب كتاباً لشفيق فاخبرته ُ انها لم تعلم والده ُ بامر الزواج لانها لم ترَ فرصةً لذلك وانها ستخبره ُ في اول فرصة واما مجيئهما الى مصر فسيكون بعد اجل غير معين لان الحكومة الانكليزية استبقت والده ُ تستخدمه ُ في بعض المهام المتعلقة بمصر لما تعلمه ُ من خبرتهِ باحوال ذلك القطر ثم تشير على شفيق ان لا يستعجل في امر الزواج وان يدع كل شيءٍ ريثما يحضران

اما شفيق فكان بانتظار قدوم والديهِ الى مصر وظنَّ ان ذلك يكون اثر مجيء اللورد دفرين الذي ارسلته ُ الحكومة الانكليزية ليأتيها بتقرير عن احوال القطر غير ان ذلك الظن لم يتحقق وكان شفيق قد وعد الباشا انه ُ يكتب لوالدهِ ليكتب الى الباشا لتتم المعرفة بين الجانبين فلما جاء كتاب والدتهِ خشي ان تطول المدة قبل اطلاع والدهِ على الامر فيتوهم الباشا في شفيق الخداع والنفاق فلبث ينتظر بشرى والدتهِ باطلاع والدهِ وهو على مثل الجمر

اما فدوى فكانت تعد الساعات والايام في انتظار قدوم والدي شفيق لان وجودهما يسهل امر الاقتران ويضع حدًّا لكل المشاكل التي كانت تخافها وخصوصاً دسائس عزيز وكان قد عزل من خدمة الجيش المصري في جملة من عزل من ابناء القطر لان الخديو امر بعد الحوادث العرابية بالغاء الجيش القديم وتنظيم جيش جديد ولكنها مع ذلك لم تفتأ في قلق دائم من دسائسهِ لما فطر عليهِ من الشرّ والخيانة وما يساعدهُ على قبائحهِ من سعة غناه

الفصل الاربعون

سفر غير منتظر

ففي يوم من ايام شهر فبراير (شباط) سنة ١٨٨٣ جاء شفيق منزل الباشا وعلى وجههِ امارات الانقباض فعلمت فدوى بمجيئهِ فبعثت الى والدها ان يأتي بهِ الى قاعة دار الحريم فجاءا فلما رأت فدوى شفيقاً على تلك الحال بادرتهُ بالسؤَّال عن السبب فتبسم يريد اخفاء ما يخامر ضميرهُ فلحظت منهُ ذلك فسأَلتهُ عن سبب اضطرابهِ فقال ليس ما يوجب الاضطراب يا عزيزتي

فقالت (وهي تصلح طرف اليشمك) يظهر على وجهك من الاضطراب ما لا يخفى عليَّ

فقال متبسمًا اليس عارًا على رجال الجهادية ان يضطربوا من المسير الى الحرب

فقالت وما هذا الاسلوب في خطابك أَلعلك ذاهب الى الحرب

فقال وعلامَ اذًا نتقلد هذه العلامات وهذا السلاح واشار الى السيف

فرجفت تلك المسكينة وتلعثم لسانها والتفتت الى والدها وقد اغرورقت عيناها بالدموع قائلة اسأَلهُ يا والدي عما يقصد بهذا فاني لا استطيع كلاماً

فقال شفيق وقد ضحك مستهزئاً وامتلأَت عيناهُ بالدموع ليس لنا فخر يا عزيزتي الا بالحرب نعم اني ذاهب الى حرب

قالت والى اين

قال الى الاقطار السودانية

فصاحت بالرغم عنها تندب سوءَ بختها أَأَنت ذاهب وشرعت في البكاء فأَخذ يخفف عنها ويهون عليها ولكن عبثاً كان يسعى في تخفيض اضطرابها وقد كادت تغيب عن الوجود

فقال الباشا وكيف كان ذلك وما سبب هذهِ الحرب الآن

قال لا يخفى على سعادتك ان الاقطار السودانية ما برحت منذ افتتحها المغفور لهُ محمد علي باشا مؤَسس العائلة الخديوية تحت كنف الحكومة المصرية ينتفع القطر من تجارتها بالعاج والريش والصمغ وغير ذلك فظهر فيها في اواسط سنة ١٨٨١ رجل نوبي يقال لهُ محمد احمد يدعي انهُ هو المهدي المنتظر فالتفَّت حولهُ عصابة قوية عرفوا بالدراويش وجاهروا بعصيان الحكومة فحاولت قمع ثورتهم مرارًا فلم تفلح فاستفحل امرهم حتى استولوا على مديرية كردوفان واحتلوا الأُبيّض عاصمتها

فشق ذلك على الحكومة المصرية واعتبرته الحكومة الانكليزية امرًا مؤذناً باضطراب حال الامن في البلاد فانفتح لها باب لاطالة مدة بقاء جيشها في مصر مع حقّ الاشارة على الحكومة المصرية بما تتخذه من الاحتياطات فاشارت عليها بارسال حملة مصرية لانقاذ الابيض تحت قيادة قائدٍ انكليزي اسمهُ هيكس باشا فأُعدَّت الحملة وستسير من هنا بعد يومين قاصدة الخرطوم لتتحد هناك بحامية الخرطوم ويسير الجميع الى انقاذ الأُبيّض ولما كنت من الضباط الانكليز المنتظمين في خدمة الجيش المصري دعيت لمرافقة تلك الحملة

فلما اتمّ شفيق حديثهُ لم تتمالك فدوى عن الصياح قائلةً أأنت ذاهب الى الابيض اذًا . قال نعم

قالت وقد اخذتها الرجفة وغلب عليها البكاء ما هذا يا الهي . السفر الى الابيض . ان تلك البلاد لا يسلكها الناس في حال السلم فكيف في حال الحرب ثم تنهدت واكبت على البكاء

فقال لها شفيق لا تكثري من الحزن فاني ذاهب الى الحرب وسأعود بخير باذن الله واكتسب فخرًا واظن هذا مما يسرُّك

فقالت لا كان فخرهذا مصدرهُ . دع عنك هذا الفخر فانهُ مخيف واستعفِ من الجيش ولا تذهب في هذهِ الحملة رفقاً بحياة هذه المسكينة فرمقها شفيق بنظر المستهام واضعاً يدهُ على قبضة سيفهِ وهو يتبسم قائلاً اني لم انقلد هذا السيف الا باسمك يا فدوى فكيف انزعهُ عني وقد اصدقني الصداقة وانالني شرفاً وسيزيدني باذن الله

فقالت اشفق يا شفيق على والدتك المسكينة ان كنت لا تشفق على غيرها

فاغرورقت عيناهُ بالدموع وقال والله اني لا اعرفني على من منكما اكثر شفقة أعلى التي حملتني في جوفها اشهرًا وضمتني الى صدرها سنين ام على من القت بنفسها الى القتل من اجلي ولكن دعيني من هذا الكلام فانهُ لا يليق بي وانا ذاهب الى حرب فلتدع عواطف الحب جانباً ولنتمسك بالواجب فاني أُمرت بالسفر الى الابيض ولا يسعني مخالفة الامر على انهُ لو وسعني ذلك ما فعلتهُ محافظة على شرفي لئلا يقال اني خفت الحرب والاعمار والارزاق بيد الله

فالقت فدوى رأسها على يدها وجعلت تمسح دموعها باليد الاخرى ولبث الجميع صامتين برهة يفكرون

ثم قال الباشا اذا كان لا بد من سفرك فصبرًا جميلاً

فرفعت فدوى رأسها منادية لا لا لا اظن قلبهُ يطاوعهُ على السفر

فقال شفيق لو اردت مطاوعة قلبي يا عزيزتي ما كلفتك هذا العناء وانما هو الشرف والشهامة اللذان انا عبد رقٍّ لهما والآن ما لنا وللخوض في ما لا فائدة لنا منهُ فقد جئتكم مودّعاً واما عن القلب وما اصابهُ فلا تسألوا فليس لنا الاّ التمسك بالصبر الجميل والاتكال على الله

ثم التفت الى الباشا قائلاً واما وصيتي لك يا سيدي فالعناية بوالديَّ اذا جاءا القطر اثناء غيابي واما انتِ يا عزيزتي فلا تحتاجين الى الوصية

وانما اطلب اليك ان تسمحي لي برسمك حتى استأنس بهِ في سفري اذا امر بذلك سعادة والدك ثم مد يدهُ الى جيبهِ واخرج رسمهُ وناولها اياهُ قائلاً وهذا رسمي يبقى عندك تذكارًا ريثما اعود ان شاء الله

فاخذت فدوى رسمهُ بعد ان استأذنت والدها وهي تبكي ولم تستطع النهوض حتى تأتيهُ برسمها الاَّ بعد العناء فسارت وركبتاها ترتجفان ثم عادت فناولتهُ رسمها فتأملهُ واذا هو رسم فوتوغرافي كثير الشبه بها يمثلها جالسة على كرسي ملثمة باللثام التركي كأنها تمعن في شيءٍ وفي يدها شيءٌ فتأملهُ فاذا هو الزرُّ الذي اعطاها اياهُ تذكارًا وبعد ان تأمل الرسم مدة وضعهُ في جيبهِ وكان يريد تقبيلهُ فمنعهُ الحياء اما هي فكانت تنظر الى الرسم ولا تتمالك عن البكاء

ثم رأى شفيق ان مكثهُ اكثر من ذلك ربما زاد الطنبور نغمة . فنهض وقبل يد الباشا نقبلهُ وعيناهُ تدمعان ثم مد يدهُ الى فدوى وضغط على يدها قائلاً ارجو انك لا تنسين شفيقاً فخنقتها العبرات ولم تستطع جواباً

فقال وهو يخرج يدهُ من يدها عسى ان تجمعنا الاقدار ثانية فننسى هذه الاكدار وخرج تاركًا فدوى في حالة يرثى لها من القلق والاضطراب فاخذ والدها يطيب قلبها ويهوّن عليها وكذلك والدتها حتى سكن روعها

الفصل الحادي والاربعون

﴿ القنوط من حياة شفيق ﴾

اما شفيق فانهُ سار الى معسكرهِ فرأى هيكس واركان حربهِ على اهبة المسير فأعدَّ ما يحتاج اليهِ وكتب كتاباً الى والدهِ في لندرا يخبرهُ بحقيقة ما هو فيهِ وكتاباً الى والدتهِ يلح عليها ان تستطلع افكار والدهِ وتخبرهُ ويقول اخيرًا انهُ خاف ان تكون قد اطاعت والدهُ وهو لم يقبل فكتمت عنهُ ذلك

وفي اليوم التالي سافرت الحملة عن طريق السويس فالبحر الاحمر الى سواكن ومن هناك في الصحراء الى مدينة بربر على النيل على نية ان يتخذوا النيل بعد ذلك خطة مسيرهم الى الخرطوم حيث يمكثون ويتحدون ومن هناك يسيرون الى الابيض

اما ما كان من امر والدي شفيق فانهما لما جاءهما كتابهِ بالسفر في حملة هيكس باشا اضطرب بالهما وجعل والدهُ يحسب لهذا السفر الف حساب وبعد ان كان ساعياً في سرعة المجيء الى القاهرة اوقف السعي اذ لم يعد لهُ فيها رطر وما زال كذلك حتى دخل صيف سنة ٨٣ فوردت الاخبا بظهور الكوليرا في القطر المصري فازداد ابطاءً في المسير اليها

اما اخبار هيكس فكانت تصلهم في حينها فعلموا بوصولهِ الخرطوم ثم استعدادهِ للمسير الى فتح الأبيّض وكانت الاخبار الى ذلك الحين تبشر بفلاحهم اما بعد مسيرهم في الطريق من الخرطوم الى الابيض فصار

الناس في وجل عليهم وآخر رسالة برقية وردت من هيكس باشا كانت في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨٣ يقول فيها

«نحن الآن على مسافة عشرين ميلاً من نورابي واني آسف لاننا لم نحفظ خط الرجوع وقد علمت من علاء الدين باشا حكمدار السودان ان العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحدقون بنا من كل ناحية بعد ان يوغل جيشنا في البلاد وزد على ذلك ان برك الماء ستجف فلا يمكننا الاستقاء الاّ بحفر الآبار . صحة العساكر جيدة والحر شديد»

وانقطعت الاخبار عن هيكس وحملتهِ من ذلك الحين فخاف الناس خوفاً عظيماً وكان اكثرهم وجلاً والديّ شفيق في لندرا وفدوى في مصر واخذ الناس يقولون في مصير تلك الحملة اقوالاً متضاربة نقلاً عن السنة العرب القادمين من تلك الانحاء حتى ثبت اخيرًا ان تلك الحملة ذهبت بما فيها من الرجال والزاد والذخائر عطشاً وقتلاً بين العربة والأبيض ولم يرجع منهم مخبر فاصبح الكدر مستولياً على جميع الناس ولا سيما على قلب والديّ شفيق وهما لا يزالان في لندرا ولما مضى عام ١٨٨٣ ولم يرد لهم خبر عن شفيق شقوا عليهِ الجيوب ولبسوا اثواب الحداد ولا تسل عن تلك الوالدة التي قضت شرخ الحياة في تربية ذلك الولد فذهب الى حرب ولم تعد تعلم عنهُ شيئاً

واما ذلك الوالد الذي لم يرَ يوم سرور وقد قضى معظم عمرهِ في الانقباض والكدر فلم يعد يخرج من البيت ولا يخاطب احدًا واستولت عليهِ السويداء حتى لم يعد احد يستطيع مخاطبتهُ حتى ولا امرأتهُ التي

تضاعفت احزانهـا بمعاشرة زوجها وهو فيما تقدم من الانقباض والسويداء يكاد لا يخاطبها الا في ما هو ضروري جدًّا فاهملت امر الصندوق والشعر

اما فدوى فانها بعد ان علمت بنكبة هيكس وحملته اصبح النور في عينيها ظلاماً ولم تعد تستطيع طعاماً واخذ جسمها في النحول وجمالها في الذبول وتكدر لذلك والدها ووالدتها لكنهما كانا يعزيانها من وقت الى آخر بان الاخبار الصحيحة لم ترد على احد اي انهم لم يسمعوا قائلاً يقول انهُ متحقق ان شفيقاً قتل في جملة من قتل · ولكنها لم تكن تصغي الى قول احد بل كان يتمثل لها رسم شفيق فكانت تقضي النهار واضعة هذا الرسم امامها والعبرات تتساقط من عينيها حتى اصبحت جلدًا على عظم فلازمت الفراش مدة طويلة حتى وصف لها الاطباء الخروج من القطر المصري ترويحاً للنفس اما هي فلم تشإ الخروج من حجرتها لئلا يمنعها ذلك من البكاء والنحيب ولكنهم ما زالوا بها حتى اجبروها على الخروج من القاهرة وذهبوا بها الى الارياف غير ان هذه الوسائل لم تجدِها نفعاً فمكثت تزداد نحولاً كلما ازدادت وسائط الانشراح والتنقل من بلد الى آخر فوصف لها الاطباء المسير الى بر الشام وترويح النفس في ربى لبنان لكنها لم تكن تجد سلوى ولا تعزية البتة حتى اصبح والداها في يأس من حياتها وكانا يحاولان جهدهما ان يبغضا شفيقاً اليها لعلمهما انهُ لم يعد في عالم الحياة وانها كلما زادت بهِ افتكارًا زادت رقة ونحولاً

اما عزيز فقد تقدم انهُ ازداد حقدًا على شفيق بدلاً من ان يخجل

من وقاحته فصار يود اذيته بأية الوسائل ولما علم ما حل بجملة هيكس سرّ وابتهج وكان يود ان يبلغ فدوى ذلك شفاءً تشفياً منها لكنه لم يكن يستطيع ذلك لعلمه ان والدها وكل من في البيت عالمون بقصته لكنه اقام عليها الارصاد والعيون لاستطلاع حقيقة افكارها ظناً منه انها حالما تيقن بضياع شفيق يتغير قلبها وتسلوه مع الزمن فلما رأى انها لم تزل على حبه جعل يدس في افكار والدها على يد بعض الناس ان احسن وسيلة لحفظ حياة ابنته انما هي اشتغالها عنه بغيره

فلما علم بقرب سفر فدوى من القاهرة جاء الى والدها يسأله عن صحتها مظهراً الاسف الشديد على ذلك وكان والدها لا يستنكف من مقابلته مراعاة لخاطر شفيق وأملاً باعادة العلاقة بعد تحققه موت شفيق فصار يتردَّد المرَّة بعد المرَّة للسؤال عن فدوى ولكنه لم يتجاسر على اكثر من ذلك

وكان والدها عالماً ان اشتغالها بغير شفيق (اذا استطاعت) احسن طريقة لتخفيف ضعفها وقد لبث مدة في انتظار ورود كتاب والد شفيق كما وعده شفيق فلم يأته كتاب ولا خطاب فخامره شك في حالة تلك العائلة وكان ذلك من جملة ما حمله على تبغيض شفيق الى فدوى فوقع في حيرة وكثر بلباله . وكان كل ذلك مما يسر عزيزاً لانه امل بنيل مراده ولكنه كان لا يزل يفكر في وسيلة للشماتة بفدوى المسكينة فكتب اليها يوماً رقعة بغير اسمه يذكر فيها قوله . ذاك نتيجة الكبرياء واحتقار الناس فأين شفيق الآن يا فدوى واين عظامه هل

رأيتِ في حبك لهُ خيرًا مما كنت تلاقين من غيرهِ أليست اسقامك هذهِ منهُ واما الذين نبذتِهم فلسان حالهم يقول الآن

من عاش بعد عدوّهِ يوماً فقد نال المنى »

وبعث تلك الرقعة مع بعض جواسيسهِ الى حجرة فدوى اذ لم يستطع تسليمها اليها بيدهِ فلم يستطع الرسول غير رميها في ارض الحجرة فوقعت في يد بخيت ولما قرأها علم انها من عزيز فاشتد غضبهُ وخبأَها عن فدوى وعن غيرها وقد صمم على قتل ذلك الخائن لكنهُ لم يكن يستطيع الخروج من البيت لاشتغالهِ بمرض فدوى ثم لما ذهبوا بها الى الارياف لم يعد يتيسر لهُ ملاقاة ذلك الباغي اللئيم

الفصل الثاني والاربعون

الجاسوس الى المتمهدي

اما ما كان من امر هيكس وجماعتهِ فانهم وصلوا بربر ومنها ركبوا في بواخر النيل فوصلوا الخرطوم في اول شهر مارس من تلك السنة وكان شفيق قد اكتسب ثقة هيكس باشا ومحبتهُ لما اتصف بهِ من الشهامة ولمعرفتهِ اللغة العربية وشدة احتياج هيكس اليها في تلك الجهات

فلما وصلوا الخرطوم خرج حكمدارها لملاقاتهم في حاشيتهِ ورجال حكومتهِ وانزلهم في سراي اعدت لهم . والخرطوم عاصمة السودان ومقر حكومتهِ وهي واقعة على الشاطئ الشرقي للنيل عند نقطة التقاء البحرين الابيض

والازرق وهي اكبر مدن الاقطار السودانية · ونزل شفيق في غد وصولهم لمشاهدة المدينة فاذا هي آهلة وفيها ديوان الحكمدارية والمجلس المحلي واسبتالية واشوان وجبخانات وتلغراف وقيساريات ووكالات يباع فيها انواع البضائع الافرنجية والسودانية .وفيها حدائق كثيرة الاشجار من الفاكهة كالليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين والقشطة والخوخ والتفاح وشاهد فيها من الصياغ من لهم مهارة خاصة في عمل الفناجين من الاسلاك

وبعد مضي ثلاثة اسابيع من وصول هيكس جاءتهم سرية من الجند المصري من القاهرة وجاءتهم سرية اخرى معظم من فيها من ضباط الجند العرابي

وكان شفيق لحسن فراستهِ لا تفوتهُ فائتة لما تستلزمهُ الاحوال فاجتمع يوماً بهيكس باشا فاذا بهِ جالس في حجرتهِ يكتب كتباً الى لندرا فجلس يطالع بعض الجرائد الانكليزية التي كانت قد جاءتهم مع الحملة فلما اتمَّ هيكس الكتابة رحب بشفيق واخذا باطراف الحديث فقال هيكس لا ارى هؤلاء الدراويش يستطيعون منازلة جنودنا الاَّ مدَّة قصيرة فقال شفيق يا حبذا ذلك ولكني ارى ياسعادة الباشا ان جندنا لا يصلح لهذهِ المهمة

فقال هيكس ولماذا

قال لان معظم ضباطهِ من الذين كانوا في جيش عرابي وهم لم يأتوا الينا الاَّ مكرهين ظنّاً منهم انهم انما سيقوا الى هنا ابعاداً لهم عن الديار المصرية

قال يا للعجب اني اراهم يطنبون في محبتهم للخديوي ومصلحة البلاد

قال لا يغرنك ذلك فاني سمعتهم يتحدثون بما اقولهُ لك الآن وهم يجاهرون بأفكارهم امامي ولا يحاذرون لانهم لا يعلمون انني اعرف اللغة العربية اغترارًا بالزيّ الانكليزي الذي أَلبسهُ فكن منهم على حذر

فقال هيكس ولكن أَلا تظن انهم اشد بطشاً من هؤلاء السود

فضحك شفيق وقال اعلم يا سعادة الباشا ان السودانيين اذا تدربوا على الجندية كانوا اشد بأساً من هؤلاء كثيرًا لانهم صبورون على الاهوال ثابتون في مواقع القتال

فوقع هذا الكلام لدى هيكس باشا موقع الاستحسان وازداد حباً لشفيق ورغب في تقريبهِ منهُ

اما شفيق فلم تذهب صورة فدوى من ذهنهِ لا ليلاً ولا نهارًا مع ما كان فيهِ من القلق والاضطراب وكان رسمها اعظم تسلية لهُ في ساعات الانفراد وقد كان يخاطب نفسهُ مرارًا قائلاً هل يقدَّر لي العود الى بلادي مرّة ثانية فأتخلص من هول هذهِ الحملة وارى فدوى ووالديَّ وكان كثيرًا ما يبكي منفردًا كلما يتصوَّر عدم عودهِ الى تلك البلاد

وكان هيكس حيثما سار يصطحب شفيقاً ويستشيرهُ في كثير من الاعمال فكان ذلك مدعاةً لسرور شفيق آملاً انهُ ينال بذلك حظوة في عيني كبار الانكليز فينال الرتب والالقاب مرضاة لحبيبتهِ وليس طلباً للفخر بنفسهِ لانهُ كان لا يبالي بامجاد الدنيا الباطلة ولكنهُ كان يرى انهُ اذا نال فدوى وهو اقل منها مقاماً فلا يهنأُ لهُ عيش

وبقي هيكس باشا في الخرطوم يبعث يوماً بعد آخر سريات من الجند لمقاتلة بعض زمر العصاة في اماكن مختلفة . الى ان عقد النية على المسير لافتتاح كردوفان وانقاذ الأبيض عاصمتها من المتمهدي وجنوده

فبعث الجواسيس يستطلعون طلع العدوّ فصاروا يأتون اليهِ بالاخبار المختلفة المتناقضة فوقع في حيرة لا يعلم الصحيح منها ورابهُ امر الناقلين لها . وبينما هو في الافتكار دخل عليهِ شفيق فقص عليهِ ما هو فيهِ من التردد فقال وما العمل الآن قال لا بد لنا من رجل نثق بهِ يستطلع لنا احوال العدوّ والا فاننا في خطر على حياتنا

فاطرق شفيق هنيهة ثم قال وما رأيك اذا كنت اسير انا في هذه المهمة قال هيكس انك اقدر الناس على ذلك لمعرفتك العربية ولاطلاعك على عوائد هذهِ البلاد واذا فعلت فاني اذكرك لدى نظارة الحربية فتنال مكافأة عظيمة ولكن الاحسن ان لا تلقي بنفسك الى التهلكة

قال اني لم آت الى هذهِ الديار الا للقتال

ومن كانت منيتهُ بأرضٍ فليس يموت في ارضٍ سواها

وانما اسألك ان تكتم امر ذهابي عن كل احد

وكان شفيق قد تعلم لغة عرب السودان وعرف كثيرًا من عوائدهم فأزمع الذهاب متنكرًا بلباس المغاربة فلبس جبة فوق قباء طويل واعتمّ عمامة بيضاء واحتذى حذاء كحذاء المغاربة وحمل السبحة بيدهِ وعلّق الغليون بمنطقتهِ وجاء بجملين خفيفين واحد لركوبه عليه رحل خفيف علّق بكل من جانبيهِ قربة ماء وتقلد سيفاً سودانياً واصطحب دليلاً كان

في الخرطوم في مثل لباسهِ وحالهِ وركب الاثنان وسارا جنوباً يريدان الأبيض بعد ان حمَّل شفيق جملاً آخر عدَّة اجربة واكياس فيها انواع العطارة متظاهراً بانهُ تاجر مغربي يطوف البلاد للاتجار باصناف العطارة

اما رسم فدوى فجعلهُ في كيس وعلقهُ حول عنقه تحت ثيابهِ احتفاظاً بهِ لانهُ معزيهِ الوحيد في تلك الانحاء فخرج من الخرطوم في اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ ولم يعلم بهِ احد وفي غد يوم خروجهِ خرجت حملة هيكس تريد الدويم تحت قيادة هيكس باشا وعلاء الدين باشا حكمدار السودان

وكان مسير شفيق من جهة ومسير حملة هيكس من اخرى على ان يلتقيا في جهة مورابي عند اول خور ابو حبل

اما شفيق فكانت جهة مسيرهِ بعيدة من مجرى النيل فكان يتخذ ماءهُ من الآبار في الصحراء وكلما مرَّ بربع من العرب بات عندهم وباعهم الطيوب وحادثهم في شؤون المهدي

الفصل الثالث والاربعون

﴿ الدراويش ﴾

وما زال سائراً حتى صار على مقربة من الأبيض فقال لهُ الدليل اننا بالقرب من الأبيض فلم يعد يمكننا المسير بهذا اللباس ولا بدَّ لك من لبس المرقعية وغيرها من لباس الدراويش والقِ هذا الغليون لان التدخين بهِ محظور على اتباع المهدي ففعل شفيق كما اشار الدليل

ولاقى جماعة قادمين من الأبيض فقيل له ان المهدي خارج اليوم بموكبه يخطب في الرجال السائرين لتعقب الترك (١) في طريقهم الى الأبيض فاحبَّ شفيق مشاهدة ذلك الموكب فوقف بين الناس وهو فيما تقدم من اللباس المشابه لملابسهم ولكنهُ كان موجساً شرًّا فلما كان العصر سمع نقر الدفوف (النقارات) عن بعد فسأل عن السبب فقيل لهُ هذه موسيقى الجيش ومعها الجند السائر الى الدويم فوقف لمشاهدته

وبعد يسير رأى الناس يهرولون افواجاً على غير انتظام تتقدمهم جماعة حاملون نقارتين وهما حلتان كبيرتان من النحاس قد شدَّ على فم كلٍّ منهما جلد. ويحمل كلاًّ منهما رجلان بحبال في عنقيهما ورجل ثالث ينقر عليها نقرة تقاق الاذن على انهم يطربون بها ويشنفون الاذن بسماعها. ووراء هذه الموسيقى خيالة على افراس بسرج عربية وهم قليلون عليهم لباس الدراويش وهو جبة من قماش الدمور نسيج السودان يقال لها مرقعية لانها مرقعة بقطع مختلفة الالوان وعلى رؤوسهم عمارات من النقش الابيض او القطن حولها عمامة بيضاء تسترسل منها في قفا الرأس ذؤابة طويلة تتدلى على صدورهم حتى يلفونها لفًّا عريضاً محكماً وحول اوساطهم مناطق من نسيج القش او نسيج الدمور يقال لها في لغتهم كَرَبة يخفوا الجري. والسواد الاعظم منهم حفاة اما المحتذون فحذاؤهم نعال ثخين يشد بالرجل بسيور من جلد وقد تكون تلك الاحذية من نسيج القش وحول اعناقهم السبحات المدلاة على صدورهم . والجانب الاعظم منهم متقلد

(١) ان السودانيين يدعون كل من لبس الطربوش تركيًّا

اسلحة معظمها من الرماح والحراب اما سيوفهم فمستطيلة ذات حدين اغمادها من الجلد الاصفر يعلقونها باكتافهم ويحملون درقًا من جلد بقر النهر وقلما يخلو كبراؤهم من خنجر يعلقونهُ في اكواعهم او يشدونهُ في مناطقهم وكان شفيق يسمع عن ملابس هؤلاء الدراويش فلم يعجب من ذلك كثيرًا ولكنهُ تعجب لما رأى بينهم من يظهر من ملامحهم انهم من المصريين واسلحتهم اسلحة الحكومة المصرية من البنادق وما يتبعها

فنظر الى هؤلاء الجماهير فاذا بهم حطوا رحالهم حالما وصلوا ونصبوا بيارقهم بين حمر وبيض وزرق وشاهد على بعضها كتابة عربية فقرأها فاذا هي « لا اله الا الله محمد رسول الله والامام المهدي خليفة رسول الله » وشاهد على البعض الآخر كتابة تختلف عن هذه لفظاً وتتفق معنىً ثم نقرت النقارة فاصطفت الرجال الخيالة في ناحية والمشاة في اخرى ونظر شفيق نظرًا عامًّا الى تلك الجنود فاذا هي مؤلفة من ثلاثة اشكال الاول الدراويش وهم اللابسون المرقعيات والوانهم سمراء وليسوا سودًا والثاني الجهادية وهم حملة البنادق وفيهم السود والسمر وهم حامية الأبيض الاصليون والثالث العبيد وهم خدم الدراويش او عبيدهم يلبسون شملة من قماش اصلهُ ابيض من نسيج السودان يسترون بها عوراتهم وبعض صدورهم وهؤلاء جميعهم سودٌ وقد يلبسون المرقعية

اما الامراء فكانوا يميزون بركوبهم الخيول النفيسة وبما يحدق بهم من الخدم واما لباسهم فلم يكن يميز عن سائر الدراويش بما يستحق الذكر

وسمع شفيق الجميع ينادون اثناء قدومهم بصوت واحد « في سبيل الله قتل الكفار » فاخذ قلبهُ يخفق وجلاً وقد ندم لعظم ما عرض بنفسهِ للخطر فانسلَّ في الجماهير كواحد منهم يقوم لقيامهم ويقعد لقعودهم

فلما وقفوا في حد النظام بقدر الامكان وكان كل امير بجانب قبيلتهِ نهض اميرٌ ووقف على مرتفع وفي يدهِ كتاب فضج الناس يقول بعضهم لبعض اسمعوا ما ذا يقول الخليفة محمد الشريف انهُ والله لأَشبه بالامام عليّ عليهِ السلام فعلم انهُ احد خلفاء الخليفة الاربعة

فوقف محمد الشريف في الجماهير وهو بلباس الدراويش ونادى باعلى صوتهِ الفاتحة ايها المسلمون فقالوا جميعاً بسم الله الرحمن الرحيم الخ وانصتوا اليهِ ففتح ورقة كبيرة وقبلها ووضعها على رأسهِ ثم قال اعلموا ايها الاحباب ان هذا منشور من سيدنا الامام المهدي صلوات الله عليهِ سأَتلوهُ عليكم ثم بدأَ يقرأُ

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآلهِ مع التسليم وبعد فمن عبد الله محمد المهدي ابن السيد عبد الله اعلاماً منهُ الى كل المشايخ في الدين والامراء والنوّاب والمقاديم اتباع المذكورين . ياعباد الله اسمعوا ما اقولهُ لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروهُ على النعمة التي خصكم بها وهو ظهورنا بينكم فهو شرف لكم على سائر الامم . ولكن المطلوب منكم يا احبابنا المهاجرة والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها الى البوار . . . . وجاهدوا في سبيل الله فلهزّة سيف مسلم في سبيل الله

افضل من عبادة سبعين سنة وعلى النساء الجهاد اذا كنَّ قاعدات وقد انقطع منهنَّ ارب الرجال . والشابة فليجاهدن نفوسهنّ وليسكنَّ بيوتهنَّ ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الا لحاجة شرعية ولا يكلمن كلاماً جهرًا ولا يسمعن الرجال اصواتهنَّ الا من وراء حجاب وليقمن الصلاة ويطعن ازواجهنَّ ويسترن ثيابهنَّ فمن كانت قاعدة كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطًا ومن تكلمت بصوت عالٍ فتضرب سبعة وعشرين سوطًا ومن تكلمت بفاحشة فضربها ثمانون سوطًا ومن قال لاخيهِ يا كلب او يا خنزير او يا يهودي او يا فاجر او يا سارق او يا زاني او يا كافر او يا نصراني او او ... فيضرب ثمانين سوطًا ويحبس سبعة ايام ومن تكلم مع اجنبية وليس بعاقد عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام ومن حلف بطلاق او حرام يضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الدخان ومن خزنها في فيهِ او عملها في انفه يؤدب ثمانين سوطاً ويحرق التنباك ان كان عنده . ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمر ولو مصة ابرة وجاره ان لم يقدر عليهِ يكلم امير البلد وان لم يكلمه يؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وكذلك من ساعد شارب الخمر بشربة ماء او اناء . ومجاهدة النفس في طاعة الله حقيقة اشد من الجهاد بالارماح لان النفس اشد من الكافر مقاتلة فالكافر نقاتله ونقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب ففتنتها صعب ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمدًا فهو عاصي الله ورسولهِ وقيل كافر وقيل يقتل وجاره

انّ لم يقدر عليهِ يكلم امير البلد فان لم يكلمهُ فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام

واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا على الخلق وتزهدوهم في الدنيا . . . ويزوج الفتى بعشرة ريالات مجيدية او انقص والعزبة بخمسة او انقص ومن خالف هذا عليهِ الادب بالضرب والحبس بالسجن حتى يتوب او يموت في سجنهِ ومقطوع من اهل زمرتنا ونحن بريئون منهُ وهو بريءٌ منا والسلام »

الفصل الرابع والاربعون

﴿ موكب المتمهدي وخطابهُ ﴾

فلما تمت القراءة ضج الجماهير بالدعاء فقال شفيق في نفسهِ والله انها تعاليم حسنة لا يأتي المتمدنون بحسن منها ولكنهُ شعر بخطر موقفهِ فصارت ركبتاهُ ترتجفان واخذ يدبر وسيلة يتخلص بها اذا انكشف امره ثم جعل يفكر بقيام هذا المتمهدي ودعواهُ وما تأتى لهُ من الفوز وفيما هو في ذلك رأى الناس في جلبة واختلاط ثم علم انهم يستعدون لملاقاة المتمهدي وهم يتطلعون الى جهة الابيض فنظر واذا بالموكب قادم والمتمهدي في لباس الدراويش على جواد ليس اكرم منهُ يحدق بهِ الخليفتان التعايشي وولد الحلو ووراءهم جماعة على خيول في لباس

الدراويش غير ان مرقعياتهم اقصر من مرقعيات اولئك فهي لا تتجاوز ركبهم حتى يكاد يظهر من تحتها اسفل سراويلهم القطنية فامعن النظر فيهم وعلم بعد ذلك الحين انهم جماعة الملازمين وهم خدمة المتمهدي واعوانهُ الخصوصيون وكانوا سائرين وراء الخلفاء مطرقين احتراماً ووقاراً وبينهم العلم الخاص بالمتمهدي فوقع الرعب في قلب شفيق وادرك مقدار الخطر المحدق بهِ

فلما وصل الموكب الى محط الجيش ترجل المتمهدي وترجل كل من جاء معهُ ومشوا الى مرتفع فلما وقفوا تنحوا جميعاً الَّا المتمهدي فجيء اليهِ بفروٍ من جلد فُرش امامهُ فوقف للصلاة ووقف الجميع وولوا وجوههم البيت الحرام وبدأت الصلاة والتوحيد فصلى شفيق ووحَّد معهم ومما زاد اضطرابهُ انهُ شاهد من نفوذ هذا الرجل في جماعتهِ ما يجعل انفس الناس في يديهِ لا تساوي لنظاً فخيل لهُ ان المتمهدي حالما يراهُ ويعرفهُ لا يتكلف غير اشارة القتل فيقتل وبعد انقضاء الصلاة وقف المتمهدي لمخاطبة الامراء وتوصيتهم بالثبات وحول عنقهِ سبحة من خشب البقس مدلاَّة على صدرهِ ولم يكن في لباسهِ ما يميزهُ عن سائر الدراويش الا كونها اكثر اتقاناً واغلى قيمة

فاخذ شفيق يتأمل في هيئة هذا الرجل الذي اقلق دول اوربا والقى في مجالسها الشقاق فاذا هو طويل القامة خفيف العضل كبير العينين حسن الملامح كسائر الدنقلاويين ابناء وطنهِ وآنس في وجههِ مهابة ولطفاً وانتبهَ خصوصاً الى الخال الاسود على خدّه فتذكر ما كتبهُ الى

السنوسي من ان ذلك الخال انما هو علامة المهدوية . ولما وقف محمد احمد المتمهدي وقف كل الحاضرين مطرقين صامتين لا يسمع لهم صوت ولا ترى لهم حركة فافتتح المتمهدي كلامهُ بالصلاة ثم قال

« ايها الاحباب من المقدمين والمشائخ والنوّاب والانصار اعلموا ان الله لو شاء سبحانهُ وتعالى ان يبيد اهل الكفر ويستأصل شأفتهم من غير قتال لفعل كما ورد في الكتاب العزيز قولهُ تعالى ولو شاء اللهُ لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض (الآية) وقولهُ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين الى غير ذلك فصار لا محيد للخلق عن امتثال هذهِ الحكمة. فهاانكم مرسلون لقتال الكفرة القادمين الينا من جهات الخرطوم فعليكم ان تكونوا اهل حزم وتشددوا العزائم والنيات وتسيروا بالهمم العاليات في نصرة دين الله وان تبذلوا نفوسكم واموالكم في سبيل الله كما عاهدتم الله ورسولهُ وبايعتمونا على ذلك ولا يحصل منكم ادنى فتور ولا توانٍ عما انتم بصددهِ وضيقوا عليهم اشد التضييق فعسى ان يأتي الله بالفتح او امر من عندهِ فيصبحوا على ما اسرّوا في انفسهم نادمين . واما انتم فعلى كلا الحالين من الفائزين فخوضوا الغمرات شوقاً الى الله والى جنة قصورها عالية وانوارها زاهية وانهارها جارية وقطوفها دانية الخ الخ » الى آخر ماهنالك من التحريض على القتال بايراد الآيات والاحاديث النبوية

ولما اتمّ المتمهدي خطابهُ ضج الناس بالتوحيد والبكاء وقرع الصدور لشدة تأثير تلك الاقوال فيهم ولما انتهت الخطابة ركب المتمهدي وحاشيته وعادوا يريدون الأبيض فتراكض الدراويش الى موطئ قدميهِ يمسحون

وجوههم واعناقهم بالتراب الذي وطئهُ ويعفرون رؤوسهم بهِ حتى وصل الأبيض بعد ان عهد في قيادة تلك الحملة الى الامير عبد الحليم وابي جرجه وعدد الجيش ١٣ الاف

فسار شفيق يريد الدخول في جملة من دخل والناس ينظرون اليهِ نظرهم الى رجل غريب الزيّ فخاف ان تقع عليه شبهة وايقن انهم اذا كشفوا امرهُ يقتلونهُ لا محالة فاخذ يتقلدهم في حركاتهم اظهارًا لكونه على دعوتهم

الفصل الخامس والاربعون

اسير المتمهدي

فلما دخل البلد اخذ يطوف بهِ ويستطلع احوالهُ ويسأل عن قوّات المتمهدي فلما دار البلد اذا باماكنهِ مبنية بالاجر طبقة واحدة وهي متفرّقة ليست على انتظام واحد وانما شاهد كل جملة منها متجاورة بينها وبين جملة اخرى فضاء وفيهِ مساكن مصنوعة من القش يقال لها عندهم تكول يسكنها من لا قدرة لهم على البناء بالطين ثم وصل ديوان الحكومة فاذا هو مبني بالاجر وفي وسطهِ فضاء يقيمون فيهِ الصلاة ولم يشاهد في الاسواق من ارباب الصناعة غير الحدادين والصاغة فعلم ان سائر اهلها يتعيشون بالتجارة في ريش النعام والصمغ والتمر هندي وسنّ الفيل. اما ماؤهم فمن آبار عميقة يبلغ عمق بعضها ١٧ قامة

وبعث دليلهُ يتخذ لهُ منزلاً ينزل فيهِ للمبيت فعاد بعد هنيهة مصحوباً بزمرة من الدراويش فلما وصلوا الى شفيق قبضوا عليهِ واوثقوه وساروا الى ديوان الحكمدارية وفيما هو في الطريق ظنَّ بعض الناس انهُ رسول من قبل السنوسي في المغرب لمشابهتهِ المغاربة شكلاً وكانوا قدشاهدوا رسولاً مثلهُ جاء من السنوسي بعد ان كتب اليهِ المتمهدي يسميه خليفة من خلفائهِ ولكن السنوسي لم يقبل ذلك ولا آمن بمهدويتهِ فلما رأى أهل العبيد شفيقاً موثقاً ظنوهُ رسولاً يحمل خبر سوء اوما شاكل وظنهُ آخرون جاسوساً من الجنود المصرية فلما وصلوا بهِ مجلس المتمهدي تناولهُ بعض الامراء وسأل عن امرهِ فقيل لهُ انهُ جاسوس من قبل الترك فأخذوهُ الى الخليفة فلما رآهُ توسم في وجههِ النباهة وتعجب من جراءتهِ لانهُ لم يظهر عليهِ خوف فأحبَّ ان يراهُ المتمهدي عينهُ فاوقفه خارجاً ودخل قاعة المتمهدي وقال لهُ ان في الباب جاسوساً يظهر عليهِ مظهر خلاف سائر الجواسيس فهل تريد ان تراهُ فاذن في ادخالهِ عليه فدخل فلاقاهُ جماعة الملازمين على الباب فأدخلوهُ المجلس فاذا في صدرهِ المتمهدي على عنقريب فيما تقدم من اللباس وبين يديهِ الامراء جلوس الاربعاء مطأطئي الرؤوس بكل احترام ووقار والسكوت مستول على تلك القاعة وكان شفيق قد ايقن بالهلاك وعلم ان تلك دسيسة من دليلهِ ولكنهُ تجلد واخذ يفكر في وسيلة للنجاة من هذهِ الورطة فلما وصل الى مجلس المتمهدي اوقفوهُ بين يديهِ فأحسَّ بهيبة ذلك الرجل وسطوتهِ ولكنهُ تجرأ ووقف وهو لا يزال في لباس الدراويش ينتظر

امر المتمهدي فخاطبهُ قائلاً

ماالذي جاء بك الى هذهِ الديار

قال شفيق قد جئت بقضاء من الله سبحانهُ وتعالى

قال ولكنك لا تعلم اننا لا نؤخذ بالدسائس وقد قيض الله دعوتنا ومنحنا الغلبة على القوم الكافرين

قال شفيق ان القدرة لله يهبها لمن يشاء من عبادهِ

فاعجب المتمهدي جوابهُ فقال ولكنهُ الم يقل ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة

قال شفيق نعم قد قال ذلك ولكنهُ قال ايضاً من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون

فقال المتمهدي اتعلم انك الآن في قبضة يدنا ولو اردنا قتلك لما كلفنا ذلك غير اشارة

قال اعلم ذلك واعلم ان الموت والحياة بيد الله

فقال قد كنت عازماً على قتلك وقد اعجبني وثيق ايمانك فهل انت مؤمن بما دعانا الله تعالى اليهِ من المهدوية او انت على ما اصحابك عليهِ من الكفر المبين

قال اذا أَذن لي مولاي قلت ان الكفر ليس من اوصاف الموحدين وما في اصحابي الا كل موحد مؤمن يؤمن بالله وبرسولهِ وبيوم الدين

قال انك مستوجب القتل بمقتضى الشرع لانك جاسوس جاء يستطلع احوالنا وقد جاء بك الينا من نال اجرهُ في الدنيا وفي

الآخرة ولكن لا بد من ايثاقك لعلنا نؤانس منك نفعاً

قال لله الامر يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير ولو قدر الله قتلي ما امسكت عنهُ فان كل شيء بقضاء وقدر وانا لم اعمل الا ما استوجب من اجلهِ الثناء لاني اقمت بامر مولاي كما اقام رفيقي هذا (واشار الى دليلهِ) بامر مولاهُ وقد قال في كتابهِ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم

فقال المتمهدي خذوهُ الى السجن موثقاً حتى نرى ماذا نعمل به

فقال شفيق حياً الله مولانا وبياهُ ان الوثاق لا يزيد شيئاً من لوازم الحجر عليَّ لاني او اطلقتم سبيلي ما استطعت العود وحدي فاتركوني محلول الوثاق كواحد من رجالك لعلي استطيع خدمة لكم

فزاد شفيق كرامة في عيني المتمهدي فأمر بعض من في حضرتهِ ان يذهب بهِ الى حجرة يحفظهُ بها تحت الحجر فخرج شفيق ينفض غبار الموت عن وجههِ وقعد يندب سوء حظهِ ويلعن ذلك الخائن الذي خانهُ والقاهُ في هذا الضيق

فساروا بهِ الى حجرة ينام فيها بعد ان جاؤهُ بالطعام فتناول العشاء ثم تركوهُ في الحجرة وقد اظلمت الدنيا فجلس على الارض وافكارهُ تتقاذفهُ كخشبة تتقاذفها الامواج واخذ يتأمل في ما مرَّ بهِ من الاخطار وما لا يزال يخشاهُ وخطرت على بالهِ فدوى فخفق قلبهُ وجلاً عليها لئلاَّ تحزن على طول غيبتهِ واشتد بهِ الشوق حتى بكى واراد ان يخرج الصورة لمشاهدتها ولكنهُ علم انهُ في ظلمة وخراجها

عبث ولكنهُ مع ذلك اخرجها واخذ يقبلها و يبكي ويخاطب نفسهُ كل ذلك الليل نادباً سوء حظهِ وطالباً الى الله تعالى ان يخفف حزن والديهِ وخطيبتهِ

الفصل السادس والاربعون

﴿ قادم غير منتظر ﴾

وفيما هو في ذلك وقد مضى معظم الليل سمع وقع اقدام عند باب الحجرة وصوتاً منخفضاً يقول لا تخف يا اخي ولا تجزع فاقشعرَّ بدن شفيق واسرع الى اخفاء الصورة وقال من انت قال اني انا صديق لك لا تخف فامل شفيق من ذلك خيرًا فسكت برهة واذا بذلك الرجل قد دخل بعد ان اشعل قطعة خشب ووضعها في منتصف الحجرة ليستضيء بها فتأمل الرجل فاذا بهِ اسمر البشرة ويظهر انهُ مصري النزعة ولكنهُ في لباس الدراويش فأوجس خيفة وظهر ذلك على وجههِ فابتدره الرجل بالكلام هامساً في اذنهِ قائلاً لا تخف يا اخي اني لست درويشاً الاّ حسب الظاهر ولم انقلد هذهِ المرقعية وهذهِ العمامة الاّ رغماً عني فطب نفساً عسى ان ينجيك الله على يدي

فقال شفيق ومن انت

قال قد كنت قبل سقوط الأبيض واحدًا من مستخدمي الحكومة فيها فلما سقطتُ في قبضة المهدويين ولم ارَ بدًّا من التظاهر

بدعوتهم حفظاً لحياتي فاحبوني حتى دخلت في خدمتهم فاتخذني الامير عبد الحليم كاتباً لهُ

فقال شفيق وما اسم حضرتك

قال اسمي حسن وسارع الى الخشبة المشتعلة واطفأها قائلاً ان الظلام اكتم لنا لئلاَّ يهتدي احد بهذا النور الينا فيعود ذلك وبالاً علينا

فقال شفيق قد سمعت اليوم ان الحملة سائرة تحت قيادة اميرك فهل انت ذاهب برفقتهِ . قال نعم سنسافر بعد غد ان شاء الله ولكني لا اخفي عليك اني ذاهب رغماً عني اذ لا يسعني غير ذلك والآن يجب ان اتخذ لك وسيلة انقذك بها من الخطر لان المهدي لابد ان يأمر بقتلك اذ قلما يثق بغير الدراويش ولكني سأبذل الجهد في انقاذك ولا اريد ان اسألك عن احوال حملة هيكس باشا لاننا قد عرفنا عنها كل شيءٍ اذ ان جواسيسنا منبثون في سائر الانحاء واخشى ان ترتاب في اخلاصي اذا سألتك فما لنا ولهذا الكلام ان الامر الذي ينبغي ان نسعى اليهِ الآن انما هو انقاذك وليس لنا الاَّ ان نجعلك من الدراويش على دعوتهم ونسير معهم حتى يقدر لنا الفرار والعود الى بلادنا فاننا ان لم نفعل ذلك قتلنا لا محالة

فلما سمع شفيق ذلك ظهر لهُ ان الرجل مخلص فقال لهُ اني اصنع ما تأمرني بهِ فدبرني برأيك

فقال قد أمر المهدي الامير عبد الحليم ان يقتلك قبل مغادرتهِ هذهِ المدينة فيدعوك في الغد لاجل ذلك ودلّهُ على طريقة تنقذهُ من

القتل ثم قال وانا سأفعل ما يجب عليَّ لعلك تنضمُّ الى حملتنا فنسير معاً فنقترب من بلادنا لعل الله يمنّ علينا بالفرج

فتنهد شفيق وقال آه والله ان الموت لا يخيفني ولكني اضن بحياتي من اجل من هم احب اليَّ منها ولكن اخبرني هل في هذه المدينة احد غيرك من المصريين

قال فيها كثيرون واكثرهم من رجال الحامية الذين اصيبوا بمثل ما اصبت فانضموا الى المهدويين وفيها ايضاً رجل افرنجي يقال لهُ الاب بونومي كان راهب دير في جبل دلن من جبال نوبيا جنوبي كردوفان في جملة رهبان وراهبات فحاصرهم امراء المهدي حتى استولوا على مكانهم وجيء بهذا الى هنا وهو لا يزال تحت الحجر وهناك غيرهُ كثيرون ممن كانوا في نعمة وتراهم الآن في ذل يميت النفوس

فتأوَّه شفيق وكاد ييأس لكنهُ تجلد وقال في نفسهِ ان الرجل من احتمل المشاق والاخطار ولله الامر يفعل ما يشاء

الفصل السابع والاربعون

﴿ النجاة من الموت ﴾

وبعد ان قضوا مدة في الحديث قال حسن هاانِي ذاهب الى المعسكر فافعل كما قلت لك قال حسناً فخرج حسن ولبث شفيق حتى كان الفجر فنهض جاعلاً المرقعية عليهِ (وكان حسن قد اعطاهُ اياها)

وجعل العمامة على رأسهِ وجلس والسبحة في يدهِ يتلو هذهِ الآية تكرارًا وهي « لا إِله الاَّ الله محمد رسول الله والامام المهدي خليفة رسول الله »

فلما اشرقت الشمس قام الناس للصلاة ثم جاء درويش يدعو شفيقاً لمخاطبة الامير عبد الحليم

اما ما كان من امر حسن فانهُ بعد ان دبر الوسيلة سار الى مخدعهِ ولم يعلم احد وبكر في الغد الى منزل الامير عبد الحليم كجاري العادة لكنهُ اظهر الاضطراب والقلق

فلما رآهُ الامير عبد الحليم قال لهُ ما بالك يا حسن مضطرب البال قال قد رأيت حلماً هذهِ الليلة اقلقني ولا اعلم تفسيرهُ قال قل وما هو

قال « حلمت ايها الامير اني كنت في حضرتك فجاءك شيخ متسربل بلباس الدراويش كبير السن عظيم الهيبة واسع اللحية فحالما رأيناه سقطنا على وجوهنا فقال لك لا تخف يا عبد الحليم اني الشيخ البصير ولم آت لأدعوكم الى المهدوية ولكني جئت لأدعو رجلاً حلَّ بينكم لعلكم تؤانسون منهُ نفعاً فلما قال ذلك رفعتُ وجهي لعلي اراهُ فشعرت كأن الشمس تلمع امام عينيَّ فلم ارَ شيئاً وللحال استيقظت مذعورًا »

فقال عبد الحليم كرَّم الله وجه الشيخ البصير انهُ جد مولانا الامام المهدي وكثيرًا ما يتراءى لهُ ويخاطبهُ فلا تخف انهُ حلم ليس فيهِ شرٌّ

ثم امر بعض الرجال فسار ليأْتي بشفيق فلما حضر بين يديهِ عجب لما شاهد من لبسهِ المرقعية والعمامة المهدوية وهو يكرر تلك الآية

فلما وقف بين يديهِ خاطبهُ قائلاً ما الذي البسك هذهِ الثياب الا تعلم انك اذا لبستها انما تكون قد دنستها لانها لباس كرام الرجال الانقياء

فقال شفيق مشيرًا بيدهِ الى السماء اني لم البس هذهِ الثياب الا بامر من لم ارَ بدًّا من طاعتهِ فقال ومن امرك بذلك قال قد رأَيت يا سيدي حلماً سرَّني كثيرًا وذلك اني رأَيت رجلاً عظيم الهيبة كبير السنّ عريض اللحية جاءَني وفي يدهِ هذهِ المرقعية وقال لي « انك لم تأْت هذهِ الديار الا لتكسب آخرتك وتصلح دنياك فقم الى دعوة الامام المهدي خليفة رسول الله » ثم علمني آية واوصاني ان اتلوها تكرارًا وهي « لا إلهَ الاَّ الله محمد رسول الله والامام المهدي خليفة رسول الله » فحفظتها ولكني سأَلت الشيخ عن اسمهِ فلم يشأْ ان ينبئني بهِ ولكنهُ قال « اني مصدر الهدى والصلاح لكل المؤْمنين »

ثم رأَيت كأَن الشمس خارجة من باب الحجرة ولما استيقظت رأَيت هذهِ المرقعية وهذهِ العمامة بجانبي فآمنت بصحة ما قيل لي فلبستها ولبثت اكرر الشهادة السابق ذكرها حتى جاءَني رسول الامير فجئت معهُ اليك

فعجب الامير عبد الحليم لذلك الاتفاق واستنتج من اتفاق الحلمين انهما صحيحان وبعث الى المهدي بذلك فقال انهُ ممن اختارهم الله لدعوتنا فلا تقتلوهُ بل ولُّوهُ منصباً يليق بعلمهِ ومعارفهِ

فلما جاءَ الامر الى عبد الحليم بطلب ذلك سأَل كاتبهُ حسناً ان يمتحن الرجل ويرى ما اذا كان فيهِ منفعة فاختلى بهِ وامتحنهُ وبلغ

الامير انهُ يعرف الكتابة والرطانة باللسان الاجنبي فأمر ان يضم الى كاتبهِ ويرافقهُ في الحملة

الفصل الثامن والاربعون

﴿ حملة هيكس باشا ﴾

فلبس شفيق ما بقي من ملابس الدراويش وانضم الى معسكر عبد الحليم وكان ذلك غاية ما يريد لانهُ استأنس بحسن وتوسم فيهِ الخير

وفي اليوم التالي سارت الحملة بجمالها وخيولها وسار فيها حسن وشفيق . وقد عجب شفيق لقلة انتظام ذلك الجيش وعلى كل درويش منهم جلد خروف (فرو) يستخدمهُ للجلوس والركوع والرقاد . وما زالت الحملة حتى وصلت ابو جوي وهناك التقوا بجيش هيكس باشا وكان ذلك الجيش هناك يجمع اليهِ بعض القبائل البدوية تعزيزاً لهُ اما هيكس ورجالهُ فلم يعلموا بجيش عبد الحليم

فلما علم شفيق بذلك صار قلبهُ يخفق ونفسهُ تحدثهُ بالفرار الى معسكر هيكس ولكنهُ لم يكن يستطيع ذلك لبعد المسافة اما عبد الحليم فانهُ انفذ حسناً يستخير المهدي في الحرب فاجابهُ ان لا يفعل ولكنهُ امرهُ ان يتبع تلك الحملة في خور ابي حبل الى بحيرة الرهد وهناك تصلهُ الاوامر النهائية

وكان هيكس مذ فارقهُ شفيق قد جاء الدويم وهناك تفاوض

هو وعلاء الدين باشا رفيقهُ بالحملة في اي الطريقين يتخذان طريق خور ابي حبل ام طريق بارا فكان من رأي علاء الدين اتخاذ طريق الخور لانها كثيرة المياهِ وان كانت بعيدة الشقة فسارت الحملة حتى جاءت نورابي اول الخور في ٨ اكتوبر حيث كان موعد الالتقاء بشفيق فانتظر هيكس رؤيتهُ فلم يظفر بهِ فظنهُ اصيب بسوء فاغتاظ ولكنهُ لم يعلم احداً بذلك وسارت الحملة من نورابي الى جلبن هار في الخور ايضاً ولكنهم علموا هناك ان جنود المتمهدي تتعقبهم فندموا على قطع خط الرجعة بينهم وبين الدويم ولكنهم ما زالوا سائرين وثقتهم في الحياة تقل يوماً بعد يوم لانهم رأوا انفسهم محاطين بالعدوّ من كل ناحية وزد على ذلك النفور الذي وقع بين القائدين هيكس وعلاء الدين وما زالوا بين حل وترحال حتى القوا عصى التسيار في بحيرة الرهد المتقدم ذكرها فابتنوا زريبة وتحصنوا هناك واخذوا يتفاوضون في امر الجهة التي يسيرون منها الى الأُبيّض لان الخور هناك ينفصل الى فرعين فرع يتصل بمحلة البركة وفرع يتصل بمحلة كشجيل وهذهِ الثانية اقرب الى الأُبيّض فبقيت الحملة في رهد ستة ايام وشاهدوا في اليوم الخامس بعضاً من العربان على الجهة الاخرى من البحيرة فظن علاء الدين انهم الرجال الذين جمعهم الشيخان اللذان كان قد ارسلهما لجمع النجدة من الجوار فشدَّ منديلاً الى عصا وجعل يلوّح لهم بالمجيء اما هم فلم يبالوا بل ملأُوا قربهم ماء وعادوا فبعث هيكس في اثرهم خيالة فعادوا وأخبروا انهم رأوا عدداً كبيراً من العدوّ معسكرين بين الشجر. وبعد ستة ايام سارت

الحملة قاصدة البركة فوصلت الى محل على مسافة ٨ اميال من الوبا

ومن هناك بعث هيكس جاسوساً الى الابيّض يستطلع قوة المتمهدي وفي اليوم التالي ساروا الى الوبا وفيها كثير من الماء فبقوا هناك حتى يرجع الجاسوس وارسلوا جاسوساً آخر ليستطلع احوال البركة ولم يمض اربعة ايام حتى عاد الجاسوس من الأبيّض ومعهُ كتاب من المهدي لقوّاد الحملة يدعوهم فيهِ الى دعوتهِ وبعد قليل جاءهم الجاسوس الآخر واخبر ان العدوّ جاء جهة البركة لملاقاة جيش هيكس . فوقع هيكس في حيرة وفاوض خبراءهُ عن افضل السبل للمسير الى الابيّض بحيث لا يلتقون بالدراويش في البركة فاجمع الرأي على ان تكون طريقهم على كشجيل وانما اختلفوا في ما اذا كان الافضل ان يعودوا الى رهد ومنها في الخور الى كشجيل او يسيروا مختصرين الطريق في الصحراء الى كشجيل تاركين البركة على يسارهم وعزموا اخيراً ان يسيروا على الطريق المختصر على ان يأخذوا معهم مايكفيهم من الماء ليومين

الفصل التاسع والاربعون

مذبحة هيكس وجيشهِ

فسارت الحملة في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) يوم السبت قاصدة كشجيل وبعد مسيرة عشرة اميال في غابات غبياء وقفوا وقد وقع الرعب في قلوبهم خوفاً من ان يكونوا قد تاهوا عن الطريق وكان

الخبراء معهم يرسفون بالقيود خوفاً من فرارهم وفي اليوم التالي (الاحد) ساروا قاصدين غابة شيكان بين البركة وكشجيل

وفي تلك الغابة كانت جنود ابو عنجر واما المتمهدي فكان قد علم بقصد هيكس المسير الى كشجيل فسار لملاقاته في طريقه الى شيكان ومعه الخلفاء الثلاثة وود النجومي وغيرهم وكان عالماً انه لا بد له من المرور في تلك الطريق . واما شفيق فكان لا يزل في جيش عبد الحليم يتتبعون خطوات الحملة وقد ايقن بسقوطها وتحقق ان فوزها لم يعد ممكناً لما علمه من استعداد المهديين ولكنه كان ينتظر فرصة يمكنه بها افادة هيكس باشا بشيء وكان قلبه يكاد ينفطر عند ما يتصور الخطر الذي احدق بتلك الحملة المنكودة الحظ وفيها نحو ١١ الفاً من الرجال قد ساقتهم الاقدار الى حتفهم ليكونوا طعاماً للوحوش في تلك البيداء

فلما هيأ المتمهدي جنده على هذه الطريقة جمع امراءه يبلغهم الاوامر الاخيرة فاجتمعوا للصلاة فولوا وجوههم البيت الحرام ووقف المتمهدي فيهم وقفة الامام وبدأ بالتكبير والفاتحة ثم قال رافعاً بصره الى السماء

« اللهم لا عيش الا في دارك ولا نعيم الا في لقائك ولا خير في غيرك ولا نصر الا من عندك بك الحياة وبك الممات وبك التقلبات واليك المصير » وكان الجميع يرددون ذلك بعده بالخشوع والوقار ولما انقضت الصلاة استل سيفه بيده وقال « الله اكبر لا تخافوا ان النصر لنا »

اما شفيق فاخذ يفكر فيما ذا يجب ان يفعل ولما لم ير حيلة قال في

نفسهِ اذا استطعت فاني احمي هيكس من القتل . وفي يوم الاحد المشار اليهِ وصل مربع هيكس الى غابة شيكان في البرّ بين البركة وكشجيل فهجم عليهِ المختبئون في تلك الغابة فانكسر المربع باقل من لمح البصر ثم هجم المتمهدي برجالهِ من الجهة الاخرى وجاء عبد الحليم من الوراء والتحم الفريقان يقتتلان بالسلاح الابيض وكان المصريون لوهلتهم يطعنون بعضهم بعضاً فأراد شفيق ان يسير الى هيكس لعلهُ يستطيع اغاثته فلم يدركهُ الا مقتولاً بسيف الخليفة محمد الشريف . فقتلت حملة هيكس برمتها الا ٣٠٠ اما من العرب فلم يقتل الا خمسمئة

الفصل الخمسون

بيعة

ومن بقي حياً من رجال هيكس فصاحوا يستغيثون بالدراويش لكي يكفوا عن قتلهم فصدر امر محمد احمد بالقبض عليهم احياء فقبض على اكثرهم وقيدوا موثقين الى معسكر المتمهدي

وكان المتمهدي وقواده في فرح لا مزيد عليهِ من النصر وكان الدراويش مشتغلين بالغنائم اما شفيق فكان يطوف بين القتلى فاذا بالجثث متراكمة اتلالاً والدماء جارية انهاراً فمرَّ بجثة هيكس ملقى سريعاً بحربة اصابتهُ في صدره وشهد علاء الدين باشا في مثل ذلك وشاهد كثيرين غير هؤلاء عرفهم مذ كان يرافقه تلك الحملة فكادت قلبهُ

ينفطر لتلك المناظر حتى كاد يبكي ولكنهُ تجلد خوف الفضيحة وفيما هو في ذلك رأى الناس يهرولون الى مكان المتمهدي فسار في اثرهم واذا بالاسرى الذين قبض عليهم قد اوقفوهم في بقعةٍ من الارض موثقين وعلى وجوههم علامات الشقاء والتعب والجوع والعطش فسأل عما دعاهم الى ذلك فقيل لهُ انهم سلموا انفسهم واحبوا مبايعة المهدي فوقف شفيق ليسمع المبايعة فاذا بمحمد احمد قد انتصب بثيابهِ المعاومة فجيء لهُ بالفرو ليسجد عليهِ فصلى صلاة النصر وصلى كل من معهُ ثم وقف احد الخلفاء يلقن الاسرى سورة المبايعة وهم يردّدونها بعدهُ حانين رؤوسهم اجلالاً لها وهي

« بسم الله الرّحمٰن الرّحيم بايعنا الله ورسولهُ ومهديهُ بعنا ارواحنا واموالنا وعيالنا في سبيل الله فلا نهرب من الجهاد ولا نزني ولا نسرق ولا نشرب الخمر ولا نعصيهِ في معروف »

وبعد قليل اخذ الامراء والمقدمون يهتمون بجمع الغنائم الى ما بين ايدي المتمهدي فأمر خلفاءهُ ان يأخذوا خمسها لهُ ويفرّقوا ما بقي على الامراء والمقدمين حسب المعتاد وكان في تلك الحملة من الغنائم ما لا يحصى عددهُ من الثياب والدراهم والاسلحة والمدافع اما الاسلحة والمدافع فسيقت على حدة لبيت المال

وبعد الاستراحة عاد الجميع غانمين فائزين قاصدين الأُبيّض وقد غادروا جثث هؤلاء المنكودي الحظ ملقاة على الرمال وبين الاشجار تتخاطفها الغربان فسبحان من جعل لكل نفس اجلاً ولكل اجل سبباً

فلما وصلت الحملة الى الأُبيّض ضربت لهم المدافع مائة ضربة وضربة احتفالاً بالنصر ودخلوا الأُبيّض باحتفال عظيم

الفصل الحادي والخمسون

متى يا كرام الحيّ عيني تراكم

ومكث شفيق في الأُبيّض بعد ذلك مدة يترقب فرصة ليعود الى الخرطوم ولكنهُ لم يكن يستطيع الفرار بنفسهِ لانهُ لا يعرف الطريق فضلاً عن انهُ لا يأمن غائلة انصار المتمهدي اذا استطاعوا امرهُ فلبث يترقب الفرص وقلبهُ لا ينفك مشتغلاً بوالديهِ وحبيبتهِ وقد اوجس عليها خوفاً من ان تيأس من مجيئهِ فتقع في القنوط و يقودها ذلك الى السقام والضعف فكان كلما فكر في ذلك يخرج صورة فدوى في خلوة و يتأملها و يطلق لدموعهِ العنان حتى يشفي غليلهُ ثم يعود و يفكر في وسيلة لنجاتهِ من تلك الاسقاع والعود الى الديار المصرية او على الاقل لارسال كتاب يبشر أهلهُ ببقائهِ في قيد الحياة غير ان كل هذهِ كانت من غير الممكنات لديهِ لانهُ وحيد ولا معين لديهِ الا حسن الذي كان يجتمع بهِ احياناً فيتحادثان في شؤون كثيرة اخصها تدبير الوسائل للخروج من ذلك السجن فكان شفيق لا يظهر مللاً من تلك الحال خيفة ان ينسب اليهِ الجبن او ضعف العزيمة ولكن قلبهُ كثيرًا ما حدثهُ بالفرار ولولا الخوف على حياتهِ ما صبر عنهُ يوماً

وكان يترقب ورود جواسيس المتمهدي ليطلع منهم على حركات الحكومة المصرية ومقاصدها تلقاء هذا المتمهدي عسى ان يسمع خبرًا مؤذناً بقرب نجاتهِ من تلك المعيشة والاقتراب من منى فؤادهِ ولم يكن لهُ معزّ الا صورة فدوى فاذا اشتد بهِ الغرام يخرجها ويتأملها ويقبلها ويندب سوء حظهِ ويندم على ما قادهُ اليهِ الملى من المخاطرة التي كان يخشى ان لا تكون محمودة العواقب ولا سيما عند ما كان يسمع باتساع سلطة المتمهدي وانتشار نفوذهِ في الاقطار السودانية فلم يمض بعض سنة ١٨٨٤ حتى اصبح معظم السودان على دعوتهِ يقومون لقيامهِ ويقعدون لقعودهِ فسلمت لهُ مديريات دارفور وكوردوفان وبربر وبحر الغزال وغيرها ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة الا بعض المدن التي فيها الحامية المصرية كالخرطوم وسنار وكسلا وسواكن وبعض المدن في خط الاستواء على ان تلك الحصون لم يكن يرجى لها الفوز ومما زاد اضطراب شفيق انهُ سمع من اخبار الجواسيس ان الحكومة الانكليزية أشارت على الحكومة المصرية ان تخلي السودان وتسحب حاميتها منها فتيقن اليأس من العود الى مصر لان الحكومة اذا فازت باسترجاع جنودها فلا تصل يدها الى الأبيض لعدم وجود الحامية فيها فاخذ يندب سوء حظهِ ويأسف على ما ساقهُ الى تلك الحالة وقد كان في غنى عنها

ففي صباح يوم من ايام سنة ١٨٨٤ رأى في منامه فدوى وقد شفها السقام على بعدهِ حتى اشرفت على الموت فاستيقظ باكيًا نائحاً فتناول الصورة من جيبهِ واخذ يقبلها ويبكي بكاء مرًا حتى كاد يغمى

عليهِ وهو يشعر بما تحملته تلك المسكينة من الهموم والاحزان من اجلهِ ولم يكن يستطيع التمادي في اظهار ما تكنهُ عواطفهُ خوفاً من انكشاف امرهِ فاشتد بهِ الحزن في ذلك الصباح حتى خاف على نفسهِ فضم الصورة الى صدرهِ وجعل يندبها ويودع الحياة والآمال والقلب حتى بلل ثيابهُ بالدموع وفيما هو في ذلك سمع وقع اقدام خارج الحجرة فذعر وحاول اخفاء الصورة وكظم ما بهِ والتفت الى الباب فاذا بصديقهِ حسن قادم اليهِ وعلى وجههِ امارات السرور فاستبشر بهِ وبادر اليهِ صارخاً ما وراءك يا حسن قال ابشر بقرب الفرج يا عزيزي وانت ما بالك في هذه الحال من الكدر

فاخذ شفيق يلفق لهُ اسباباً اخفاء لحبهِ فدوى فقال اني مفارق في القاهرة اهلي وصحبي وانا اعلم انهم يئسوا من حياتي واعلم ايضاً ان ذلك اليأس قد يقودهم الى ما لا تحمد عقباهُ ثم تجددت احزانهُ وخنقتهُ العبرات فاخذ يبكي وينتحب فقال لهُ حسن خفف عنك يا عزيزي فان الفرج قد قرب باذن الله

الفصل الثاني والخمسون

غوردون والمتمهدي

فقال شفيق وماذا عسى ان يكون ذلك الفرج ونحن بعيدون عن نظر الحكومة ودون الوصول الينا خرط القتاد

قال حسن تمهل يا اخي ليس على الله امرٌ عسير فها ان الحكومة الانكليزية قد قررت ارسال غوردون باشا الى هذه الديار لاخماد الثورة وتلافي الاحوال وانا واثق انهُ يفوز باذن الله

فقال شفيق ومن قال لك ذلك وكيف وصلتك هذه الاخبار

فتبسم حسن قائلاً اتظن المهدي غافلاً عن استطلاع احوال عدوّهِ فان لهُ في نفس القطر المصري بل في القاهرة جواسيس وارصادًا من اعيان القوم يبعثون اليهِ بالكتب والاخبار عن كل احوال البلاد ففي مساء امس وصلنا رسول بكتاب من احد اعيـــان الصعيد ينبئ بعزم الحكومة الانكليزية على ارسال غوردون باشا بلا جيش لتدبير هذه المسألة

فقال شفيق كيف يمكن تلافي الاحوال وقد آمن بالمهدي اهل السودان كافة وهو لا يقبل امرًا الاّ اذا منح مطالبهُ ونيل تلك المطالب يقضي بزوال السلطة المصرية فان الرجل طامع بكرسي مصر بل بكرسي الاستانة وان شئت فقل انهُ لا يقنع الا بفتح العالم ولا سيما بعد ان ساعدتهُ التقادير في عدة وقائع . ولا يخفى عليك ان ما حل بجيش هيكس المنكود الحظ لم يكن الا تنشيطاً لمشروع هذا المتمهدي لانهُ صرح في منشوراتهِ الى اتباعهِ مرارًا ان من علامات المهدوية عدا الخال الذي على خدهِ ان النصر يرافقهُ حيثما توجه وان علماً ابيض يتقدمهُ حيثما سار لجهاد وهو الضامن لهُ الفوز وقد رأَيت ان جميع حروبهِ مع الجنود المصرية جاءَت بنتائج أَيدت دعواهُ فاذا راجعت تاريخ ظهورهِ منذ كان فقيهاً يعلم الناس الصلاة والعبادة في جزيرة أَبا كسائر الفقهاءِ حتى بلغ نفوذهُ

هذا المبلغ وانتشرت سطوته في سائر اقطار السودان رأيت ان التقادير كانت تساعدهُ وتوفق مساعيهُ تأْييدًا لدعوتهِ فاذا كانت الحكومة لم تقدر على تلافي هذه المسأَلة عند اول دعوتهِ في جزيرة ابا وهو وحيد ليس حولهُ الا بعض طلبة العلم القايلين فكيف تستطيع ذلك الآن وهل تظن ان الذي رفض المجيء من ابا الى الخرطوم وهي اول مرة دعي بها وحولهُ نفر قليل ليس فيهم محارب يقبل الآن بوفاق ما بعد ان ثبتت دعواه لدى اهل السودان اجمع

فقال حسن لا انكر عليك يا اخي ان استفحال امر هذا الرجل انما كان لاستخفاف الحكومة المصرية بهِ من اول الامر فلما ظهر بدعوتهِ في جزيرة ابا بعثت اليهِ حكمدارية الخرطوم نفرًا من العلماء يأْتون بهِ الى الخرطوم فاصابهم ما اصابهم من الاهانة فعادوا خاسرين ولم يكن ذلك ليفهم الحكومة ما يخشى من عواقب هذه الجراءة فبعثت اليهِ نفرًا قليلاً من الجند فقتل معظمهم وعادوا خاسرين وكانت الحكومة بذلك مستخفة بهِ واما هو فقام لدى عموم اهل السودان بدعوة الدين متظاهرًا بان قصدهُ الوحيد انما هو تشييد الديانة الاسلامية لانها على زعمهِ قد أُهملت بعد وفاة الصحابة وكان يمثل لهم ما حاق بهم من الاستبداد وينسب ذلك الى اهمالهم العبادة والصلوات فرأَوا في ذلك اخلاصاً وتقوى فتاقت نفوسهم اليهِ ثم لما رأَوا ما كان من فوزهِ على اوامر الحكومة ازدادوا ثقة بهِ وبدعوتهِ حتى آل الامر الى ما ترى من الاستفحال وهذا امر لا انكرهُ عليك ولكن لا يخفى عليك ان غوردون باشا لا يقلُّ اعتبارًا في عيون

اهل السودان عن المهدي لانهُ تولى حكمدارية السودان مرة واظهر من العدل والحنوّ والرأفة واللطف والدعة ما حبب الناس اليهِ حباً يقرب من العبادة فهو الذي حررهم من الاسترقاق فمنع بيع الرقيق وبين لهم المساواة بين بني الانسان فانا اثق انهُ اذا جاء الان فلا يعجز عن تلافي مسألة المهدي بوجه من الوجوه

فانغض شفيق رأسهُ وقال آه يا اخي انك ذكرتني في حديثك هذا بمسألة عرابي وحزبهِ فان قيام هؤلاء الاجناد كان على طريقة تشبه قيام المهدي تقريباً لان منح الحرية لجماعة قبل اوانها تضر بهم ضرراً لا يأتي بهِ الاسترقاق . واعلم ان غوردون باشا قد اوجب بتحرير هؤلاء السودانيين استعبادهُ لهم واستفحال امرهم كما ترى ولا اظنهُ اذا جاءهم الآن يؤثر فيهم شيئاً بعد ان بايعوا محمد احمد مبايعة مقرونة بالقسم العظيم على الطاعة والجهاد ورأوا من صدق انبائهِ في الحروب ما ايد الدعوة ولا سيما وانهُ قد استحوذ على عدة من القواد الاشداء مثل ولد النجومي وابي عنجر وابي جرجه وخلفائهِ ولد الحلو وعبد الله التعائشي ومحمد الشريف وقائدهِ عثمان دقنا الذي اتى المعجزات بحروبهِ في السودان الشرقي وغير هؤلاء من القواد العظام فاذا كنت آملاً ان تعود الى وطنك بمساعي غوردون باشا فلا اظنك تنال مراماً على اني لأعجب غاية العجب من ارسال هذا الرجل وحدهُ في هذه المهمة التي قصرت دون حلها الجيوش الجائشة لعجز الحكومة المصرية عن قهر هذا الرجل بالسيف على يد جند منظم مخاص لحكومتهِ لا كجيش هيكس باشا الذي كان معظمه من الجيوش العرابية

قال حسن لا اظنها تعجز عن ذلك ولكنها لا تستطيع ان تفعل غير ما تشير بهِ دولة انكلترا فانها هي التي اشارت عليها باخلاء السودان وارجاع الحامية من الخرطوم وغيرها ولما لم توافقها الوزارة المصرية اصرّت على وجوب الاخلاء فاستعفت الوزارة الشريفية وانعقدت الوزارة النوبارية وهي التي صادقت على اخلاء السودان فانفذت انكلترا غوردون باشا لكي يرجع الحاميات ويعيد السودان الى حكامه الاصليين الذين كانوا قبلما فتحهُ محمد علي باشا

فقال شفيق هب كل ذلك صحيحاً فما الذي يترتب عليهِ من النفع لنا اذا كان غوردون آتياً لاسترجاع الحاميات فليس هنا حاميات لاسترجاعنا معها

فقال حسن اتكل على الله واليوم خمرٌ وغداً امرٌ

قال شفيق انا لم اتكل على سواهُ في كل اعمالي وهو لا يترك عثرة في طريق المتكل عليهِ

الفصل الثالث والخمسون

﴿ المناجاة ﴾

وبعد هذا الحديث عاد حسن الى بيته وعاد شفيق الى هواجسهِ وبلبالهِ وهو غير آمل لقاء حبيبتهِ فأخرج الصورة وجعل يتأمل فيها ويخاطبها وعيناهُ تذرفان الدموع قائلاً « هل انت راجية بقائي يا منية

فؤادي · اتعلمين اني لا ازال في قيد الحياة ام تظنين اني قتلت في من قتل · لا اظن الا انك قد يئست من لقائي فبالله من لي بمن يوصل اليك اني لا ازال حياً خوفاً من ان تلقي بنفسك الى مهاوي الاحزان التي تضرُّ بهذا الجسم السماوي اللطيف » ثم سكت برهة لا يتحرك وقال « ومن ينبئني انكِ في قيد الحياة وانكِ لا تزالين على عهدي · جل اني واثق بصدق عهودك وكفى دليلاً ما فعلت بعزيز الذي نكث بعهود الصداقة واراد اخذك مني ولكن يا ترى ما الفرق بين تلك المرَّة وهذه أَلعلَّ اليأس من حياتي يغير شيئاً من محبتك لي · اما اذا كنت سأقضي نحبي في هذهِ الديار فأَودُّ ان تسليني وتتعلقي بمن يستطيع القيام بخدمتك حتى اذا علمتُ ذلك قبل المات اتوسد الثرى ولا اخشى عليك بأساً ولا دركاً

واما انتما ايها الوالدان اللذان ربياني منذ كنت طفلاً حتى دببت وشببت وانتما لا تعرفان موضعاً لآمالكما الاَّ فيَّ اهذهِ غاية آمالكما · لا اشك انكما استعظمتما المصاب فيَّ فمن لي بمن يخبركما اني لا ازال حياً ارجو العود اليكما لعلي استطيع القيام بمكافأَتكما على المشاق التي كابدتماها وتكابدانها من اجلي · آه يا والدتي الحنون كفى تسكبين الدموع عليَّ اني لا ازال حياً واذا سكبتِ الدموع دماً لم يلمك احد لانك تبكين ولدك وفلذة كبدك الذي قضيت افضل سني عمرك في تربيتهِ وتهذيبهِ وآمالك محدقة بهِ اذا غاب عنك لحظة اضطرب قلبك خوفاً عليهِ · اين ليلة فتح الخليج من هذا السفر الطويل · بالله يا أُمَّاهُ كفكفي الدمع

اني لا ازال حياً. ولكن آه من يضمن لي الحياة حتى اراكما. اما اذا حبطت آمالكما واراد الله ان لا اعود اليكما فالبسا الحداد وحلاّ الشعور واقرعا الصدور واندباني ما بقي لكما بقية من الحياة

اما انا فلولاكما ولولا تلك التي وهبت لها قلبي ما خشيت الموت لاني انما اودُّ الحياة من اجلكم ولا اخاف الموت الا لانهُ يورث لكم الشقاء والبلاء واما الميت فانهُ يدخل الراحة الابدية»

ثم انتبهَ بغتة والتفت الى ما حولهُ قائلاً مالك ياشفيق ولهذهِ المواجس انك في بلاد الحرب والقتال ولا بد لك من الصبر والجلد والحزم شأن الرجال فدع عنك هذهِ العواطف عسى الله ان يمنَّ عليك بالفرج وهو على كل شيءٍ قدير»

والقى بنفسهِ على العنقريب يريد التوسد تسكيناً لما المَّ بهِ من التعب بسبب تلك المواجس مخفيا الصورة في مكانها

الفصل الرابع والخمسون

﴿ رسل غوردون الى المتمهدي ﴾

وما لبث برهة حتى سمع صوت النقارة تضرب ضرب الاستعراض فخرج بلباس الدراويش الى ساحة خارج البلد حيث تستعرض الدراويش وهو يفكر في ما عسى ان يكون سبب ذلك الاستعراض فالتقى بحسن فسألهُ عن سبب ذلك فعضَّ على شفتهِ السفلى كأَنهُ يقول لهُ تمهل

سأخبرك بعد الآن فحنق قلبهُ وخاف ان يكون في الامر ما يخشى منه ولم يصدق ساعة انقضى الاستعراض وعادت الجيوش الى اماكنها وكذلك الامراء واما حسن فسار بجانب شفيق حتى اذا تنحيا عن الجمع قال حسن الم تشاهد الرجل الذي جاءنا اليوم بلباس غير لباس الدراويش

قال لقد رأيتهُ محاطاً بالخفراء فظننتهُ اسيرًا جيء به لبعض الاستعلامات

قال حسن انهُ ليس اسيرًا وانما هو رسول من غوردون باشا من الخرطوم

فقال شفيق متلهفاً وهل جاء غوردون وماذا يريد بهذه الرسالة

قال حسن انهُ بعث يقول للمهدي انهُ جاء لانقاذ المسلمين وفتح طريق الحج الى البيت الحرام مظهرًا رغبته في توطيد دعائم السلم والوصول الى المصالحة مع المهدي طالباً اليه ان يطلق الذين في حوزته من النصارى والمسلمين من رعايا الحكومة وقد اعطاهُ مقابل ذلك ان يكون مديرًا على كردوفان

فقال شفيق وهل تظن المهدي يجيبهُ الى طلبه

قال يا حبذا فانما سير في جملة المطلقين السراح ولكني لا اظنهُ يقبل بعد ان اتسع نطاق سطوته ونفوذه ولذلك رأيتهُ قد امر بالاستعراض ليبين للرسول قوتهُ ايهاماً لهُ

فقال شفيق لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وما تكون العاقبة في رأيك

قال اظنها بل ارجح انها وخيمة على المصريين اذ ليس اقل سياسة وتدبيرًا من ارسال هذا الرجل وحدهُ من اقاصي المغرب الى اواسط افريقية ليخمد ثورة المهدي التي جعلت السودان شعلة نور

بلغ لهيبها اقاصي افريقيا حتى مسَّ شعاعها اقطار آسيا فلا ارى الاان المهدي يرفض ذلك الطلب لانهُ قد ايقن بالفوز واعتقد رجالهُ النصر والاستخفاف بالجنود المصرية بل بالحكومة المصرية لكثرة ما اصابوا من الفوز والظفر في وقائعهم معهم كما علمت . وزد على ذلك ان السودانيين يكرهون الجنس التركي ويلقبون كل من لبس الطربوش تركياً وكانوا اذا رأوهُ ترتعد فرائصهم لكثرة ما قاسوهُ من سلطتهم ولذلك تراهم الآن ناقمين عليهم لا يثنيهم عنهم شيءٌ واذا تأملت في ما كتبهُ غوردون الى المتمهدي ترى انهُ مما يزيد طمعهُ بالنصر واستخفافهُ بعدوّهِ فانهُ بعد ان اساء الى الحكومة المصرية بقتل حامياتها وسلب حقوقها بعثت على لسان غوردون توليه كوردوفان بدلاً من ان تقتص منهُ ولكن ذلك حكم القضاء فان الله سبحانهُ وتعالى قد سمح باستفحال امر هؤلاء ولهُ الامر يفعل ما يشاء

فقال شفيق انا لله وانا اليهِ راجعون نصبر الى الغد لعلنا نصيب خيرًا باذن الله والله مع الصابرين

وافترقا وعاد كل الى شأنهِ اما شفيق فما انفك يفكر في امر كتاب غوردون وما يكون من جواب المتمهدي وبات تلك الليلة يطلب الى الله ان يجيب المهدي طلب غوردون ولما كان يتصوّر ذلك كان يخفق قلبهُ فرحاً وتطلعاً الى رؤية فدوى او مراسلتها . ثم لاح لهُ وهو في تلك الهواجس انهُ ربما يستطيع ارسال كتاب الى فدوى او والديهِ مع رسول غوردون اذا لم يسمح المتمهدي باطلاق اسراهُ

الفصل الخامس والخمسون

﴿ ارسال الكتاب ﴾

فلما كان الصباح التالي بكر الى الصلاة والمسير الى حسن فلما رآهُ ابتدرهُ بالسؤَال عما انتهت اليهِ ارادة المهدي في خطاب غوردون

فقال حسن لقد قلت لك انهُ لا يقبل وهكذا جرى بل قد جرى اكثر مما قلت فان المهدي قال انهُ لم يقم بجهادهِ رغبة في الدنيا ولذلك لا يريد التسلط على كردوفان . ويؤْخذ من مجمل كتابه انهُ يطالب الى غوردون ان يعتقد بمهدويتهِ واخيرًا قال لهُ ان النصر مقدور لهُ وان النبي (صلعم) قال لهُ ان كل من يقوم عليهِ يسقط لا محالة واصحب الكتاب بحلة الدراويش حتى اذا اقتبل غوردون الدعوة يلبس خلعتها

فقال شفيق ومتى يسافر الرَّسول قال يسافر في صباح الغد وما غرضك منهُ قال لا غرض لي وانما سأَلتك ذلك من باب العلم بالشيء

فقال حسن اسمح لي ان اسأَلك ثانية عن غرضك بالرسول واظنك قد اعتقدت صدق نيتي فاذا اخبرتني بوطرك ربما استطيع غوثك

قال شفيق آه يا اخي وتساقطت عبراتهُ على الرغم منهُ فسكت فابتدرهُ حسن بالكلام مخففاً عنهُ وقال لا اصابك الله بسوء يا عزيزي ما الذي يبكيك اخبرني قال « يبكيني تذكري والديَّ اللذين ربياني بدموعهما وتركا الدنيا من اجلي فانهما لا شك يحسبانني في عالم

الاموات وقد لبسا عليَّ الحداد وقطعا الشعور وقرعا الصدور» ولم يعد يتمالك عن البكاء ثم قال «ولا تظن فيَّ جبناً اني والله صبرت صبر الرجال واحتملت فوق ما يحملون واما القلب فلا سلطان لي عليهِ بعد ذلك »

فقال حسن اننا جميعاً في مثل هذا المصاب يا اخي فلا تذكرني بمن تركتهم ينتحبون عليَّ وهذا قضاء الله يفعل بخلقهِ ما يشاء فلك اسوة بغيرك فان في هذه البلدة كثيرين ممن اصابهم مثلما اصابك وفيهم من ترك عائلتهُ واولادهُ يتضوّرون جوعاً ويئنون على فراقهِ ويبكونهُ ظناً منهم انهُ فقد وليس من يعولهم

فتنهد شفيق وقال اوّاه يا حسن اني لفي احوال تخالف احوال اولئك واني لمتيقن ان بقائي هنا مدة بغير ان يصلهم خبر مني يقضي عليهم لا محالة فاني وحيدهم وقد علقوا آمالهم بي وكنت اذا غبت عن البيت ساعة يقلقون لغيابي ويبعثون ورائي من يفتش عني فما قولك بمجيئي الى هذهِ الديار مع حملة بادت عن آخرها ولم يصلهم مني علم ولا خبر من يوم فارقت الخرطوم ثم اراد ان يبين لهُ اشتغال بالهِ وقلقهُ على فدوى فلم يطاوعهُ ضميرهُ ضناً باسمها وحفظاً لعهدها وصوناً لسرّ الهوى فسكت

فقال حسن العلك تريد ان تبعث مع هذا الرسول رسالة الى والديك قال يا حبذا ذلك فقال انهُ امرٌ عسيرٌ جداً لان الرسول محجور عليهِ من يوم مجيئهِ ولا يباح لاحد بمخاطبتهِ في شيء ولا ادري كيف يمكننا

ارسال هذهِ الرسالة اليهِ ثم بهت مدة وقال اكتب كتابك لقد وجدت لك وسيلة لارسالهِ

قال شفيق وكيف ذلك قال ان غوردون يطلب الى المهدي بكتابهِ ان يرسل اليهِ مع ناقل رسالتهِ بعضاً من رسلهِ ليرسل جوابهُ معهم اذا اقتضى الامر اجابتهُ وهؤلاء قد تعينوا للذهاب وهم من رجال الامير عبد الحليم ولي بهم معرفة تامة فاصبر قليلاً حتى اعود فابرم اتفاقاً مع احدهم ثم اجيء اليك فآخذ كتابك واسلمهُ اليهِ حتى يسلمهُ الى رسول غوردون حال خروجهم من الأُبيض . فقال شفيق هل انت واثق بنجاح مسعاك قال نعم فقال شفيق فانا اذًا سأُهيئ هذهِ الرسالة ريثما تعود قال حسناً ولكن لا يبرح من بالك انهُ يجب عليك ان تختصر الكتاب ما امكن وتطويهُ بحيث يستطيع الرسول حملهُ في اثناء ثوبهِ او في طبقات نعالهِ اخفاءً لهُ فاحذر ان يكون اكبر من قطعة ورق بقدر نصف الكف فخرج حسن وجلس شفيق يكتب الى والدهِ يقول

« سيديَّ الوالدين . اكتب اليكما من الأُبيّض حيث قدّر لي ان اكون في عداد الدراويش في أَمن وسلام لولا البعد عنكم ولا ادري متى يتاح لي الرجوع فطيبوا قلباً حتى يأْتي الله بالفرج واكتبوا لي عما انتم فيهِ وسلموا الكتاب الى ناقل هذا ليأْتي بهِ اليَّ والسلام » من ولدكما

شفيق

ثم فكر في امر فدوى وكيف يكتب اليها وهو لا يعلم ماذا كان والدهُ قد عرف بأَمرها فخــاف اذا كان والدهُ لم يعلم بعد ان يأْول

ذلك الى ما لا تحمد عقباهُ فنكر هنيهة فلاح لهُ ان والدهُ وان يكن غير راض عن فدوى لا يهتم بأَمرها لاشتغالهِ بالفرح عند علمهِ ببقاء ولدهِ حيًّا بعد ان يئس من حياتهِ فكتب تحت ذلك الكتاب حاشية يقول فيها «يا والدتي قولي لفدوى اذا كانت ترى في حفظ العهد سعادة كما ارى انا فلتبقَ عليهِ لاني باقٍ ما بقي لي من الحياة بقية . اما اذا كانت ترى فيهِ شقاء فاني ابيح لها حل ذلك العقد خوفاً على ذلك المزاج اللطيف من معاناة الشقاء» اقول ذلك وجميع فرائصي ترتعد لاني اغار عليها حتى من خيالها . ضاقت الورقة فاعذريني»

ولم ينتهِ من هذا الكتاب الاَّ وقد بلَّل ثيابهُ بالدموع فطواهُ حتى صار بقطع نصف الريال وعنونهُ ولما جاء حسن دفعهُ اليهِ واوصاهُ ان يأخذ الرسول هذا الكتاب الى القاهرة وسلم اليهِ عشرين ريالاً نفقة الطريق على ان ينقدهُ اجرتهُ كاملة حالما يأتي بالجواب وان يسأل عن ابيهِ في قنصلاتو انكلترا لان شفيقاً كان يحسب ان والديهِ عادا الى مصر واذا لم يجد والدهُ فليأخذ الكتاب الى بيت فلان باشا (والد فدوى)

فاخذ حسن الكتاب وسلمهُ الى الرسول واوصاهُ ان يجعل طريقهُ اذا استطاع على درب الاربعين الذي يمرُّ بصحراء ليبيا على واحتي سيوة والخارجة الى اسيوط ثم عاد واخبر شفيقاً بذلك فسرَّ وجلس ينتظر ورود الجواب على انهُ لم يكن ينتظر الحصول عليهِ قبل مرور اربعة اشهر من يوم ذهابه فلنتركهُ ينتظر ورود الجواب ولنرجع الى والدي شفيق وفدوى

الفصل السادس والخمسون

﴿ والدا شفيق ﴾

اما والدا شفيق فانهما ما زالا يزيدان حزناً وشقاءً حتى كرها الاقامة في القطر المصري وكانت سعدى قد اغفلت امر فدوى ولم تطلع زوجها على شيءٍ من امرها ولكنها كانت تسترق الفرص لمشاهدتها فاذا اجتمعت بها في خلوة تتشاكيان الاحزان وتبكيان وتندبان شفيقاً

اما ابرهيم فكان يزداد كرهاً للسكن في القطر المصري ففي ليلة من ليالي سنة ١٨٨٤ كانت سعدى جالسة في غرفتها فدخل زوجها وبيدهِ صحيفة لسان الحال كان يطالع فيها في غرفتهِ وعلى وجههِ بعض الانبساط مع ما كان فيهِ من شدة الحزن فاستغربت سعدى ذلك منهُ فنهضت لمقابلتهِ وهي تنتظر ما يقول فابتدرها هو بالحديث قائلاً لقد قرب الوقت الذي يباح لي فيهِ ان اطلعك على ذلك السرّ اذ قد مات الامير عبد القادر الجزائري ولم يعد عليَّ رقيب فتعجبت لقولهِ اذ لم تفهم مرادهُ بالامير عبد القادر الجزائري واشتاقت الى سماع ذلك بكليتها فقال لها هاتي لي ذلك الكتاب فمضت لتأتيهُ به فلم تجدهُ فافتقدتهُ في كل مكان ظنت انها وضعتهُ فيهِ فلم تقف لهُ على اثر فاشتغل بالها وادرك زوجها منها ذلك فسألها فقالت انها اضاعت الكتاب فرفس الارض برجليهِ قائلاً اضعتهِ وفيهِ كل أسراري فقالت لا ادري ما الذي اضاعهُ ولعلي وضعتهُ في مكان سوف اتذكرهُ واخذت

تعيد البحث عبثاً فاشتدَّ غيظهُ حتى خرج من الغرفة وسار توًّا الى الى حجرتهِ قلقاً ولبثت هي حائرة متكدرة لكدر زوجها ولم تعد تجسر ان تفاتحهُ بشيءٍ

وفي الصباح التالي نهض ابراهيم واستدعى زوجتهُ ولما حضرت قال اعلمي يا سعدى ان المقام في هذهِ الديار لم يعد يحلو لي بل لم تعد السكنى تروق لي في المدن بعد ضياع ولدنا فهيا بنا نبيع امتعتنا ونهاجر المدن ونعتزل عن الناس فنتخذ لنا مسكناً في قرية من قرى لبنان نقضي فيها بقية هذهِ الحياة الشقية بالتنسك فوافقتهُ على رأيهِ لانها كانت اشدَّ كرهاً منهُ لمعاشرة الناس · فأعلن ابرهيم بيع ما كان في بيتهِ من الفرش وجمع ما لديهِ من المال وهاجر القطر المصري طالباً ربى لبنان واحبَّ اطلاق سراح خادمهِ احمد فأبي الا ان يرافقهما في السرَّاء والضرَّاء فسار معهما

الفصل السابع والخمسون

❊ المهاجرة الى برّ الشام ❊

اما ما كان من امر فدوى فانها ما زالت تزداد سقاماً يوماً بعد يوم حتى خاف والدها عليها اذ كان كثير التعلق بها لانها وحيدتهُ ولما آنس بها من الخلال الحميدة ولكنهُ كان من سريعي التقلب الذين لا يجيبون عن خطاب الا بالايجاب حاسبين ذلك من لطف المعاشرة

ثم تمكن فيهم حتى اصبحوا مجرّدين من الارادة

فلما رأى الباشا ما ألمّ بابنته من النحول بسبب حبها لشفيق سهل عليه كل امر يؤول الى سلواها حاسباً ذلك الحبّ من مجلبات التعاسة لهُ ولها وتردّد ذلك الفكر في بالهِ فنشأ في اعتقاده ان ساعة معرفة ابنتهِ لذلك الشاب كانت ساعة شؤم فجعل يتخذ كل وسيلة تبغض فدوى الى خطيبها واصبح ميالاً الى من يساعدهُ في ذلك فاذا اجتمع بعزيز كان يعيرهُ اذناً سامعة يعي مشوراتهِ فيها وما مشوراتهُ الا اكراه فدوى على التسلي عن شفيق بغيرهِ ولما كان يرى منها اعراضاً عن هذا الرأي كان يزداد كرهاً لشفيق وهي لا تزداد الا حباً بهِ واعراضاً عن سواه

فلما وصف لها الاطباء السفر الى برّ الشام لترويح النفس في ربى لبنان الجيدة الهواء اسرع والدها في ارسالها الى هناك وظنّ ان بعدها عن القاهرة ربما يساعدها على السلوى مع ان ذلك الفصل لم يكن يحسن قضاؤهُ في لبنان ولا في سورية لانهُ فصل شتاء سنة ١٨٨٣ لكنهُ اراد سرعة الابتعاد بأي وسيلة كانت فأخذ يهتم بأمر السفر وهي لم تكن تمانع بهِ فأعدّ ما لزم واصطحب بخيتاً واثنين آخرين من الخدم تاركاً امراتهُ في البيت مع من بقي من الحشم وركب القطار يريد الاسماعيلية على ترعة السويس ليسير منها في الترعة الى بورت سعيد ومن هناك في بحر الروم الى بيروت

فلما بلغ عزيزاً ذلك جاء لوداعهم على المحطة وقد اضمر ان يقتفي اثرهم بعد حين الى لبنان لعل التقادير تساعدهُ على نيل مرامهِ

فسار بهم القطار من الصباح الى الظهر فوصلوا محطة الاسماعيلية وركبوا الترعة الى بورت سعيد وبعد مسير يومين في بحر الروم نزلوا ميناء بيروت فأعجبهم موقعها عند سفح لبنان الشامخ الآكام الذي لم يمنع ارتفاعهُ الهائل من اكتسائهِ بالاشجار النضرة على جبال تناطح السحاب وكثيرًا ما يكون السحاب مكالاً لها . واتفق ان وصولهم كان في يوم رقّ اديمهُ واعتلّ نسيمهُ فبانت لهم قمم ذلك الجبل القديم العهد مكسوّة بالثلج الابيض الناصع وكانت كل رباهُ الخضراء قد غسلها المطر الذي لازمها اسبوعاً تاماً فأصبح لهُ ابهج ما يكون من المناظر

الفصل الثامن والخمسون

﴿ فندق بسُّول ﴾

فلما رست بهم الباخرة صباحاً باكرًا عند مينا امر الباشا الخدم ان يهتموا بانزال الامتعة واخذها الى حافة الباخرة وامسك فدوى بيدها واشار الى تلك المناظر الطبيعية يريد الهاءها بها فقال تأملي يا عزيزتي بهذهِ الآكام الممتدّة مدى النظر على شواطئ هذا البحر وسبحي الخالق العظيم الذي فجر الماء من اعلى قممها فاكتست خضرة بهيجة بين اشجار واعشاب تتخللها قرى صغيرة كل قرية على اكمة او في سفح اكمة بيوتها بيضاء متفرّقة بين الزرع كأنها احجار كريمة على ديباجة خضراء بل انظري الى هذهِ المدينة الجميلة القائمة على مرتفعات لطيفة عند سفح هذا الجبل وامعني النظر في

ابنيتها الشاهقة المختلفة الالوان وفي سطوحها القرميدية مع ما يحدق بها من الحدائق مما يجعلها بهجةً للناظرين

وكان الباشا يقول ذلك وينظر الى وجه ابنتهِ ليرى ما يكون منها فاذا هي ساكتة لا تبدي جواباً فظنها تتأمل في جمال ذلك المنظر ثم جاء الخدم يخبرونهُ انهم قد انزلوا كل الامتعة الى القوارب فنزل الى قارب نظيف خاص لركوبهم ممسكاً بيد فدوى اما الخدم فنزلوا في قوارب الامتعة فجرت بهم القوارب اما قاربهم فوصل الشاطئ قبل الجميع فنزل الباشا ووقف في انتظار وصول الامتعة ففرغ صبرهُ ولم تصل فاخذ ينظر اليهم عن بعد واذا بالقوارب واقفة في البحر لا تتحرَّك فاشتغل باله ثم مشت حتى وصلت اليهِ فنزل الخدم وانزلوا الامتعة فسألهم عن سبب تأخرهم فقالوا ان البحارة اتفقوا معهم على اجرة فلما وصلوا منتصف الطريق أخلفوا وطلبوا زيادة فيها ولم يكونوا يريدون المسير حتى يقبضوا ما يريدون ولم يسيروا حتى نالوا ما ارادوا فقال الباشا لا بأس اعطوهم ما شاؤوا وهيأ بالامتعة الى فندق بسُّول على الشاطئ فاننا نسبقكم الى هناك قالوا حسناً فصعد وابنتهُ ماشية على جاري العادة حتى التقوا بعربة فركبوا حتى نزلوا الفندق فاذا بهِ حسن الموقع لا تنفك الامواج تضرب اساساتهُ ليلاً ونهاراً فهيأ لهم صاحب الفندق حجرة لمنامهم واخرى للخدم فلما دخلت فدوى الغرفة استقبلت المرآة في صدرها فارتاعت لما رأت نحولها فألقت بنفسها على السرير وقد غلب عليها البكاء فامسكت نفسها ما استطاعت

وبعد الغسل وتغيير الثيــاب وشرب المنعشات طلبت فدوى التوسد للاستراحة من وعثاء السفر فنامت ونام والدها الى الظهر ثم استفاقوا يطلبون الطعام الى غرفتهم وبعد تناولهِ خرج الباشا ملتفاً بقباءٍ شتوي لمشاهدة غرف الفندق فقابلهُ احد خدمهِ وذهب بهِ الى غرفة الاستقبال المطلة على البحر فأشعل سيكارتهُ وجلس بجانب النافذة يسرّح نظرهُ في ذلك البحر وكان هادئاً وصوت امواجهِ يلهي الفكر عن الهواجس ويخفف الاكدار فأخذ يتأمل في سفرهِ وما هو فيهِ وما وصلت اليهِ ابنتهُ من الضعف والهزال

الفصل التاسع والخمسون

ضياع رسم شفيق

اما فدوى فلبثت في الحجرة ترتب الثياب وفيما هي تفتش في صندوقها عثرت على صورة شفيق فخفق قلبها فتناولتها واخذت تتأمل فيها وتذرف الدموع مخاطبة اياهــا قائلة « اوّاه يا حبيبي اوّاه يا منتهى أملي أهذا هو نصيبي منك اين انت الآن العلك لا تزال في قيد الحياة آه اوّاه من نائبات الزمان أما كان الاجدر بي ان اموت فداءً عنك أ أنت حيٌّ بعد » ثم سكتت صامتة تتأمل في تلك الصورة وبما في وجه شفيق من الجمال وتبكي حتى بللت ثيابها وخارت قواها فالقت بنفسها على السرير والصورة في يدها وهي لا تعلم فاستغرقت في

سنة النوم وفيما هي راقدة دخل والدها فرآها على تلك الحال فعلم انها نامت باكية فثارت فيهِ ثائرة الغيظ اذ لم يرَ فائدة من ذلك ثم لاحت منهُ التفاتة فاذا صورة شفيق في يدها فلاح لهُ ان بقاء تلك الصورة معها مما يجدد احزانها فاستخرجها من يدها وهي لا تدري واخفاها في مكانٍ وغادر الغرفة وعاد الى القاعة

فلما استيقظت افتقدت الرسم فلم تجده فأخذت تفتش عنهُ فلم تقف لهُ على اثر فجعلت تلطم وجهها وتنوح وتبكي فاذا بأبيها داخل فسألها عن سبب بلبالها فقالت لهُ انها فقدت رسم شفيق فتظاهر بمشاركتها في التفتيش عنهُ فقال لها واين كان موضوعاً قالت كان في يدي الآن قال لعلك خرجت بهِ الى مكان ونسيتهِ خارجاً قالت لم اخرج الى مكان قط قال لعلك وقفت على هذهِ النافذة فسقط منك في البحر قالت لم اقف هناك فاخذ يحاول اقناعها انهُ سقط في البحر الى ان قال وقد يمكن انك نهضت من السرير وانت غائبة عن الصواب فلم تعلمي انك وقفت عند النافذة ومع ذلك فسأبحث عنهُ واخبرك فسكنت ولكن لم يعد يهدأ لها بال وفهمت من كلام والدها انهُ يود ضياع ذلك الرسم فصبرت حتى خرج وبعثت الى بخيت واطلعتهُ على الامر فوعدها ان يفتش عنهُ ويأتي بهِ ولو كان في لج البحار

اما الباشا فخرج من حجرة ابنتهِ يفكر فيما يشغلها عن هذهِ الامور فعاد الى النافذة واذا بصاحب الفندق داخل محيياً فردَّ الباشا التحية فقال لهُ الرجل لقد شرَّفتنا يا سعادة الباشا وحلَّت البركة فهل تأمر

بخدمة قال لا تفضل اجلس فجلس متأدباً ولكنهُ شاهد ان نزيلهُ في ارتباك فأحبَّ استطلاع امره فاستخدم طرقاً مختلفة الى ان قال ولعل حضرة الهانم لم تسرَّ من نزولها في هذا الفندق لانها لا تستطيع التسلية لعدم وجود السيدات

فقال الباشا ذلك حقيقي ولا سيما وان عوائدنا لا تسمح لها بالظهور امام الرجال كما يفعل الافرنج ومن جرى مجراهم

فخاف صاحب الفندق ان ذلك ربما اورث لها مللاً فقال لهُ ولكن ذلك يا سيدي امر سهل واذا اذنت سعادتك ان تتشرَّف امرأتي بمعرفة ابنتكم لعلها تأنس بها فتجد سلوى عن وحدتها

فسرَّ الباشا لذلك وقال نعم نعم لقد نطقت بالصواب فافعل ولك الفضل فاذا شرَّفت السيدة فاني ارسل معها الخصي ليوصلها الى ابنتي ولا اشك انها تأنس بها فخرج صاحب الفندق ولما التقى بمرأته اخبرها ان عنده سيدة مصرية تودُّ الاستئناس بها فلبست احسن ما عندها من الثياب والحلى

الفصل الستون

﴿ تدبوس ﴾

وسارت مع زوجها حتى دخل على بخيت فسبقتها بخيت مطرقاً ولم يرفع اليها نظراً جرياً على عادة بلاده ومر بخيت غضر حالاً فقال لهُ اذهب يا بخيت بحضرة السيدة الى سيدتك فدوى وعرّفها بها

لعلها تستأنس بمعاشرتها في وحدتها » فلبّى بخيت طائعاً وقــال « حاضر يا سيدي » وسار بالمرأة حتى اتى باب غرفة سيدته فأوقفها خارجاً ودخل وحدهُ ليستأذنها فرآها متكئة مبهوتة لا تبدي حراكاً فخاف عليها من تلك الحالة فاخذ يلاطفها ويستعطفها ان تترك الهواجس من بالها الى ان قال وقد جاءت امرأة صاحب الفندق لتسلم عليك وتسليك وها هي خارج الحجرة فهل ادعوها اليك قالت دعني يا بخيت وشأني فاني لا آنس ببشر ولم يعد لي انيس الا الخلوة لعل خيالهُ يمرُّ بمخيلتي فذلك هو انيسي قالت ذلك وبكت فقال مالنا وللبكاء يا سيدتي فلا تجعلي هذا دأبك اذ لا فائدة منهُ واتركي الاقدار تجري في اعنتها فربما تنالين بغيتك ولو بعد حين

فقالت دعني يا بخيت انك تحبني ولكنك لم تفعل معي فعلاً تستوجب لاجلهِ محبتي فانك لم تقل امامي الا اقوالاً تدل على شهامة وغيرة ولكنها لم تأتني بفائدة تذكر ... وسكتت هنيهة ثم قالت ولكن ما الذي في يدك لعلك قادر على مقاومة الاقدار

فقال بخيت انك يا مولاتي توقدين في قلبي ناراً تحرق حشاشتي بهذا الكلام ولا اقول لك شيئاً الآن سوى اني مستعد ان ابذل حياتي في سبيل مرضاتك وليس لي مجال لاقول اكثر من ذلك لان السيدة في انتظار اذنك خارجاً فانهضي غير مأمورة وأذني لها في الدخول فانها تسليك فاذا لم تؤانسي منها تعزية فلا تعودي الى مجالستها مرّة اخرى وانما يظهر لي انها انيسة لطيفة الذات لان اهل هذهِ المدينة يتخرّجون

في اساليب المحادثة وانواع الايناس لكثرة نزول الغرباء بين ظهرانيهم

فقالت دعها تدخل. ونهضت ترتب ثوبها وتنظم غرفتها فلما دخلت المرأة قابلتها بوجه بشوش واذنت لها بالجلوس . فبادأتها المرأة بالحديث قائلة اهلاً وسهلاً بك يا حبيبتي انك لقد شرفتنا بقدومك

فاجابتها فدوى بما عهد بابناء مصر من اللطف والدعة وحلو الحديث حتى سحرتها

فدارت بينهما المحادثة على شؤون مختلفة وتخلصتا بها من حالة الهواء الى عوائد البلاد حتى وصلتا الى الملابس والحلى وكانت فدوى قد البست زندها سوارًا من ذهب مرصعاً بالياقوت والالماس فقالت لها المرأة لا شك ان هذا السوار من صنع اوربا اذ يظهر انهُ في غاية الانقان فقالت فدوى نعم وهل تريدين مشاهدته قالت ذلك واخرجته من يدها وناولتها اياهُ قائلة وهل يستطيع الصاغة عندكم ان يصطنعوا على مثالهِ

قالت ان الصاغة عندنا ماهرون كثيرًا وجميع مصاغنا انما هو من صنعهم فانظري الى هذا السوار (واشارت الى سوار في يدها) فانهُ من صنع صاغتنا فتأملتهُ فاذا هو مصنوع من الذهب المعروف بكسر جفت ومرصع ترصيعاً جميلاً

ثم اعادت اليها سوارها قائلة نعم ان صاغتنا ماهرون ولكن لا يتأتى لهم مباراة صاغة الافرنج فانظري الى هذا الدبوس (ومدت يدها الى شعرها واستخرجت دبوساً مرصعاً بالماس وناولتها اياهُ) فانهُ من صنع

اوربا على ما اظن ولا يمكن صاغتنا ان يأتوا بمثله

فتناولت فدوى الدبوس ولما نظرتهُ خفق قلبها ورجفت ركبتاها لانهُ يشبهُ الدبوس الذي اعطتهُ عربون العهد لشفيق ثم تأملتهُ فاذا هو بعينه فازداد خفقان قلبها واصفرّ وجهها وازداد ارتجافها حتى صارت تنتفض انتفاضاً وتلعثم لسانها عن الكلام وبردت اطرافها فأدركت المرأة ذلك فتعجبت منهُ كثيرًا ولم تفهم لهُ معنى لانها لم تعلم لهُ سبباً

اما فدوى فانها حاولت اخفاء عواطفها فلم تستطع لان الدموع سبقتها وارادت ان تسألها عن كيفية وصول هذا الدبوس اليها فلم يمكنها وخافت الفضيحة فأسندت رأسها الى وسادة المقعد متظاهرة باضطراب في صحتها فوقع الدبوس من يدها فتناولتهُ المرأة وشكتهُ في شعرها قائلة لا اراك الله سوءًا يا ابنتي ما هذا الاضطراب الذي قد اعتراكِ هل تأمرين باستدعاء الطبيب

قالت فدوى لا حاجة الى الطبيب الآن ولا اعلم اذا كنت احتاج اليهِ غير مرّة . قالت ذلك وهي ترتجف فنهضت المرأة تريد اطلاع زوجها على ذلك لعلهُ يخاطب والد الفتاة بشأنها فيأتيها بالطبيب فاستأذنت وخرجت

فدخل بخيت فرأى سيدتهُ على تلك الحال فسألها عن شأنها فاخبرتهُ عن امر الدبوس وقالت اريد منك ان تستطلع امر هذا الدبوس وكيف وصل الى هذهِ المرأة فقال سمعاً وطاعة وخرج وهو ليس اقل منها انذهالاً في امر ذلك الدبوس

اما المرأة فسارت توًّا الى زوجها وأحكت لهُ الحكاية الى ان قالت

يظهر ان هذه الفتاة مصابة بمرض من الامراض العصبية وقد علمت ذلك من شدة ضعفها وسرعة تأثرها فهل لك ان تخبر والدها بذلك وتشير عليه باستدعاء الطبيب لاني اضن بهذه الفتاة لما شاهدت من لطفها وجمالها الذي يغشاه الضعف والنحول

فاستصوب الرجل رأيها وقال سأغتنم فرصة مناسبة واذكر ذلك امامه

فلما كان وقت العشاء طلبوا الطعام الى الغرفة بدعوى ان السيدة لا تجالس النزلاء الغرباء على المائدة العمومية. وتغير الجو تلك الليلة وتساقطت الامطار غزيرة ففضل الباشا الرقاد باكرًا استدفاء بالفراش اما فدوى فقضت كل ذلك الليل وهي في بلبال من امر ذلك الدبوس

الفصل الحادي والستون

الدكتور ن

وفي الصباح لتالي نهض والدها فرآها في حالة يرثى لها من الضعف والاصفرار فقلق على صحتها وعزم ان يأتيها بالطبيب يستشيره بامرها فسار بعد الغداء الى قاعة الاستراحة وبعث الى صاحب الفندق فلما حضر قال له انه يريد استحضار اشهر طبيب في بيروت لمشاهدة ابنته

فقال الرجل ان في بيروت يا سعادة الباشا اطباء ماهرين

فقال الباشا انا اعلم ذلك وانما سألتك عن اشهر طبيب فيهم

فقال ان لكل طبيب شهرة في فرع من فروع الطب

قال اريد اشهر طبيب في الامراض العمومية الضعفية

قال ان في هذهِ المدينة طبيباً هو من اعرف الاطباء في هذهِ الامراض وان يكن مشهورًا على نوع خاص بامراض العين يقال لهُ الدكتور (ن) فان هذا الرجل فضلاً عن سعة اطلاعهِ في فنّ الطب وغيرهِ من الفنون قد خصهُ الله باللطف والايناس فان كلم المريض طيب خاطرهُ وخفف اوجاعهُ بلطف حديثهِ قبل ان يصف لهُ الدواء ومما يزيدهُ تمكناً من تشخيص الامراض سعة اختبارهِ فقد اقام بين اظهرنا نحو خمسين عاماً بين تطبيب وتدريس في فنّ الطبِّ فترى اهل سوريا عموماً يعتقدون في صدق تشخيصهِ اعتقادًا غريباً . وهو قادرٌ لحسن فراستهِ ان يعرف الداء بمجرَّد النظر الى المريض

فقال الباشا اليَّ بهِ حالاً

قال ولكن يا سيدي لا يمكننا ان ندعوهُ الاَّ بعد الظهر لانهُ يطبِّب الفقراء في بعض المستشفيات مجاناً

قال الباشا ولكنا ندعوهُ من المستشفى اذ لا بدَّ من انهُ يفضّل المريض الذي ينقدهُ الدرهم

فتبسَّم الرجل قائلاً لا يا سيدي انهُ بالضد من ذلك يفضّل تطبيب الفقراء على الاغنياء وهذهِ خلة قد اشتهر بها

فقال الباشا بالعجب اني لم اسمع بمثل هذهِ الشهامة قط

قال وازيدك عنهُ انهُ يطبب الفقراء ويساعدهم في الحصول على الدواء وسائر الحاجيات وكم من عائلات تنال منهُ الصدقات شهرياً مقادير معينة

فقال الباشا فاذا كان لا يمكننا ان ندعوهُ قبل الظهر فابعث اليهِ بمن يستدعيهِ بعد الظهر قال سمعاً وطاعة

فلما كانت الساعة الثالثة وقفت عربة امام باب الفندق فنزل منها شيخ بلباس افرنجي في نحو السبعين من العمر يمشي على عصا لكن من غير تحدب ولا خمول سريع الحركة قصير القامه خفيف الجسم طويل اللحية خفيفها وعلى عينيهِ النظارات فاستقبلهُ صاحب الفندق واخبر الباشا ان الطبيب قد حضر فخرج الباشا لاستقبالهِ فسار بهِ الى غرفة الاستراحة فآنس الباشا بهِ فوق ما سمع عنهُ من اللطف والدعة فأثنى عليهِ ثناء جميلاً الى ان قال اني وددت لو اكون مريضاً فأتمتع بتطبيبك ان حديثك لأشهى من الترياق فلم يجب الحكيم عن هذا المدح فراراً من مدح آخر

فبعد ان تحادثا قليلاً قال الباشا قد دعوتك يا حضرة الحكيم لأستشيرك في امر وقد جرأتني اخلاقك الشريفة ان أطلعك على سرّ لم اطلع عليهِ احداً في هذه المدينة

فقال الحكيم قل ما بدا لك

فقصَّ الباشا قصة ابنتهِ مع شفيق كما هي تماماً الى ان قال وقد وقعت في حيرة الآن لان الفتاة كلفة بذلك الشاب كلفاً شديداً ولا انكر عليك اني احبهُ ايضاً لانهُ انقذني من الموت وآنست فيهِ شهامة غريبة ولكني لا ارى فائدة من البقاء في ذلك بعد ان تحققنا ان الحملة التي سار برفقتها قد هلكت بأجمعها فلا بدَّ انهُ هلك في جملة من هلك

فقال الحكيم هل حاولتم ان تشغلوها بشأن من الشؤون

قال نعم ولكن بلا فائدة

فقال ان افضل طريقة على ما أرى ان تلتهي عنه لانها لا تزيد الأ سقاماً ما دامت تتذكر بهِ اما اذا شغلها شاغل فقد تسلوه رويداً رويداً ولقد اعجبني فيها المحافظة على الوداد ولكن ليس في اليد حيلة

فقال وكيف نشغلها عنه

قال اشغلوها بالاسفار من بلد الى آخر والسفر في جبل لبنان افضل ما يكون ولكن هذا الفصل فصل شتاء فلا تستطيعون التجوال في تلك الانحاء فامكثوا هنا ريثما ينقضي هذا الفصل ويحلو المقام على ربى لبنان فتتمتع الفتاة بهوائهِ النقي فانهُ من احسن ما خلق الله من الجبال

فقال الباشا ولكن ما العمل بهواجسها فانها لا تنفك عن الافتكار بذلك الشاب لا ليلاً ولا نهاراً وكلما زدت في تسليتها عنهُ زادت شغفاً بهِ

فاجاب الحكيم وهو يمسح النظارات بمنديلهِ الحريري تلك عادة أولي الغرام فاذا زدتهم لوماً زادوا هياماً فالاولى ان تغض الطرف عن ذلك واذا ذكرت حبيبها اذكرهُ بالحسن معها واذا انقم على الدهر الذي يقضي على المحبين بالفراق واشغلها بالامل البعيد حتى يقضي الله بما يشاء

فتأوَّه الباشا ثم قال ولله انك احسن من يعزي عن المصائب فهل لك ان تتردَّد علينا حيناً بعد حين

قال سأفعل ان شاء الله ولكن ربما كان الافضل ان تذهب بها الى زيارة منزلي قرب المنارة فانهُ في مكان اشبه شيء بالجبال يشرف

على البحر من جهة وعلى الجبل من اخرى

الفصل الثاني والستون

التفتيش عن الرسم والدبوس

وفيما هما يتحدثان كانت فدوى في غرفتها وحدها تفتش عن صورة شفيق فلم تترك مكاناً الا فتشت فيه فلم تقف للصورة على اثر فلاح لها ان ولده قد خبأها في غير الحجرة وحدثتها نفسها انه خبأها في جيبه فعزمت على التفتيش عنها عندما ينزع ثيابه للرقاد فعادت الى فراشها خائرة القوى تنتظر عود بخيت والاطلاع على امر الدبوس

فلما كان المساء عاد بخيت والدبوس بيده لما رأته فدوى خفق قلبها واسرعت اليه وخطفته من يده وجعلت تقبله وتتأمله وتبكي قائلة اخبرني هل عرفت حكايته قال كلا يا سيدتي ان الرجل لم يقل الحقيقة فاني ذهبت اليه زاعماً انك تحبين مشاهدة الدبوس لانه اعجبك صنعه وحاولت معرفة طريقة وصوله اليه فلم استطع فانه قال انه جاءه هدية من احد السياح الذين ينزلون فندقه من بلاد الانكليز

فقالت انه يقول الحق لانني شاهدته مع شفيق قبل سفره الى السودان وكيف يصل الى بلاد الانكليز فهذا لا بد من البحث عنه اني قد اشتممت منه رائحة حبيبي ومنى فؤادي فاعلم ان تبحث منه عن خبره وهل عرفت ماذا جرى برسم شفيق

قال لا . فقصت القصة عليهِ الى ان قالت ولا ريب عندي ان والدي قد اخفاهُ عني لعلي بذلك اسلو صاحبهُ ولكن آه كيف اسلوه وقد جرى حبهُ مجرى دمي في مفاصلي

فقال بخيت طيبي نفساً فاني لا انفك حتى اجد الرسم وابحث عن اصل هذا الدبوس واقلب الارض طولاً وعرضاً حتى تعلمي اني خادم امين لك فقد كفاني ما عيرتني بهِ من الاهمال

قالت ان فعلت ذلك أُسرُّ منك كثيرًا وليس لي في العالم من اثق بهِ سواك فلا تُضع املي بك والآن خذ الدبوس وارجع بهِ الى صاحبهِ والحَّ عليهِ بالسؤال ومتى علمت شيئًا جديدًا اخبرني

فخرج يفكر في وسيلة توصلهُ الى ذلك ولما خرج من الحجرة لاقاهُ سيدهُ فسألهُ عن فدوى فقال هي في خير فدخل واغلق الباب وراءهُ ولما كلمها رآها احسن حالاً من ذي قبل فاراد مسايرتها فقال لقد اطلت عليك الغيبة اليوم

قالت نعم انك لقد اطلتها يا ابتاهُ وانت تعلم اني لم آت هذهِ البلاد لأُسجن في هذهِ الحجرة

قال اعلم ذلك وقد كنت في تدبير امر للخروج الى مكان للنزهة

قالت والى اين . قال قد دعانا الدكتور ن . الشهير للمسير اليهِ في الغد الى منزلهِ في طرف المدينة حيث نقضي بضع ساعات في النزهة

قالت ومن اين عرفتهُ حتى دعانا الى ذلك

قال اني بعثت اليهِ لاستشيرهُ في امرك فطيب قلبي كثيرًا عليك

وقد آنست بهِ كثيرًا واحببتهُ للطفهِ وكرم اخلاقهِ

قالت وكيف يدعوك الى بيتهِ وهذهِ اول مرّة التقيت بهِ مع ان عوائد الافرنج لا تسمح بذلك

قال نعم ان هذا الدكتور افرنجي ولكنهُ قضى في هذهِ البلاد نحو الخمسين سنة فتخلق باخلاق اهلها والف عوائدهم واتقن درس لغتهم وحفظ كل امثالهم واساليب كلامهم فقد رأيتهُ يورد لكل معنى مثلاً من الامثال الدارجة التي تتعذر معرفتها الا على ابناء اللغة وقد رأيت ان الشيخوخة لم تغير شيئاً من شدة عزمهِ وطول اناتهِ واطف حديثهِ الذي يتخللهُ نوع من المزاح في غاية الادب والظرف وأُوكد لك انك لو جالستهِ ساعة لذهب عنك كل كدر ولكن عوائدنا لا تسمح لنا بذلك فاذا ذهبنا الى منزلهِ في الغد تعرفين امرأتهُ فلا بد ان تكون قد اكتسبت شيئاً من اخلاقهِ الرضية

قالت نذهب اليهِ غدًا حسب امرك

وقضيا تلك الليلة باحاديث متنوعة متفرقة حتى كان وقت الرقاد فذهب كل الى فراشهِ ونامت فدوى نوماً هنياً تلك الليلة على غير المعتاد فسرّت وسرّ والدها ايضاً

الفصل الثالث والستون

﴿ الطباخ ﴾

اما بخيت فسار توًّا الى صاحب الفندق والدبوس في يدهِ فسلمهُ اليهِ قائلاً ان سيدتي سرَّت كثيرًا باتقان صنعهِ وتحب معرفة المكان الذي صنع فيهِ لتصطنع مثلهُ

قال لقد قلت لك انهُ صنع اوربا وقد جاء بهِ اليَّ سائح انكليزي هدية ولما اعطاني اياهُ لم اسألهُ عمن اصطنعهُ فقال وهل تريد ان تبيعهُ لها قال لالا اقدر على ذلك لان الهدايا لا تباع ولا تشرى وياحبذا لو امكنني ذلك فاني ما كنت امنعهُ عن حضرتها

وكان بخيت قد عرف طباخ الفندق في هذين اليومين واحب كلٌّ منهما الآخر فقال في نفسهِ لأذهبن اليهِ لعلي اقف منهُ على خبر فصبر حتى انقضى وقت العشاء وسار يتمشى بجانب حجرة الطباخ فوقف لهُ وحياهُ داعياً اياهُ للجلوس فدخل وجلس على كرسي بجانب السرير فلمح على مائدتهِ زجاجة صغيرة فيها سائل ابيض بجانبها قدح صغيرة فعلم انهُ الخمر المعروفة بالعرقي ورأى ذلك الرجل قد نزع طربوشهُ المغربي عن رأسهِ وشمر عن ساعديهِ جاعلاً الآخرقة بيضاء (مريول) فوق سراويلهِ المصنوعة من الجوخ الثقيل ثم تقدَّم الى بخيت بقدح ملآن من تلك الزجاجة واعطاهُ ليشرب وفي يدهِ الاخرى قطعة لحم فتظاهر بخيت بالشرب وسكب العرقي على الارض اما الطباخ فما زال يقص حكاية

ويشرب قدحاً حتى فرغت الزجاجة او كادت

ففاتحهُ بخيت بالكلام قائلاً ان موقع هذا الفندق جميل جدًّا ولا سيما في فصل الصيف فانهُ يشرح الصدر لقربهِ من البحر

قال الرجل وهو يترنح من الخمر صدقت ولكننا نسرُّ في الشتاء لكثرة السياح فانهم يأتوننا جماعات من اقاصي البلاد

فاستبشر بخيت بذكر السياح آملاً ان يتخلص الى حكاية الدبوس فقال وما الذي يحملهم على المجيء الى هذهِ الديار في هذا الفصل البارد

قال يأتون في الاصل الى يافا ويسيرون منها الى بيت المقدس لزيارة قبر المسيح ويأتون الى هنا غالباً في اوائل الربيع فيذهبون لمشاهدة ارز لبنان المشهور بقدم عهدهِ حتى ظنَّ بعضهم ان اشجارهُ بقية من ايام سليمن

قال بخيت ولكن المتبادر يا عبود انهم يزورون مصر في فصل الشتاء لاعتدال الهواء هناك

قال نعم ويأتون من مصر في الشتاء

قال ولكنهم اذا اتوا هذهِ الديار في فصل الشتاء فلا يستطيعون التجوال لكثرة الثلوج التي تتراكم في طرق جبل لبنان فقد علمت ان طريق دمشق غير مطروقة منذ خمسة ايام

قال الرجل وقد ضاق ذرعاً انا اعلم انهم يأتون الينا في اواخر الشتاء واوائل الربيع والذي يهمنا انهم اذا جاؤوا ينفقون بيننا اموالاً طائلة فنكسب منهم كثيرًا لانهم يعطون حلوانًا كبيرًا

فقال بخيت وقد رجا قرب الوصول الى مبتغاهُ ان الحلوانات

ليست شيئاً يذكر واما الذي يستحق الذكر فهو ما ينفقونهُ في الشراء من الاسواق

فضحك عبُّود وقد مال ذات اليمين وذات اليسار ثم رفع يدهُ كأَنهُ يُقسم وقال مالي ولما يشترونهُ ويبيعونهُ فاني اعلم اني آخذ منهم حلوانات كثيرة واذا اشتروا كل المدينة فما الذي يأتي الى جيبي

فقال بخيت لقد بالغت يا صاحبي في كلامك عن الحلوانات فما هي اخبرني هل يعطونكم دراهم او ثياباً او حلًى

قال عبود يعطوننا من ذلك كلهِ

قال بخيت ولكن اظن انهم يعطون كلاً على قدر حاجتهِ فلا اظنهم يعطونك اقراطاً ولا اساور وانما يعطونك قطعة ثياب او بعضاً من النقود وانك تفضل النقود

فضحك عبود قائلاً نعم نعم هذا هو الصحيح

فقال بخيت ولكن اذا اعطوك قطعة حلى مثل دبوس رقبة مثلاً افلا تفضلهُ على الدراهم

قال وما اصنع بالدبابيس فانا لا البس ثوباً افرنجياً ولا قميصاً مكوياً وانما لبسي هذهِ السراويل وهذا المنتيان ولو اعطيتني حلة افرنجية ما لبستها وكذا لو اعطيتني قطعة حلى فاني افضل بيعها بأَي شيءٍ كان لان الذهب الرنان افضل من كل شيءٍ

قال بخيت اعذرني يا صاحبي فاني لا اصدق ذلك

فقال عبود ضاحكاً اذا كنت لا تصدق فاسأَل معلمي الخواجه بسُّول وهو يخبرك عني فقد جئت من بلاد السودان ··· آه من تلك

البلاد وسكت هنيهة كأنهُ تذكر امرًا محزنًا ثم اخذ في البكاء

فتعجب بخيت لذلك واحب اتمام الحديث ليسمع ما يعرفهُ الرجل عن السودان فقال لهُ هل تعرف بلاد السودان يا اخي

قال نعم اعرفها وازداد في البكاء فازداد بخيت تعجبًا ورغبة في استطلاع حالهِ فقال وما اصابك في تلك الديار حتى تبكي عند ذكرها

فتغيرت حالة الرجل من السكر المضحك الى الهدوء والرزانة وقال اني اصبت فيها ببلية عظمى قبح الله المتمهدي واعمالهُ فقد قطع رزقي وحرمني من سيدي وملاذي

فقال بخيت وهل كنت ساكنًا في تلك البلاد ام ذهبت اليها مؤخرًا

اجاب وهو يمسح دموعهُ بطرف ثوبهِ قد ذهبت اليها من مصر لاني كنت اذهب كل سنة الى القاهرة في فصل الشتاء لمرافقة السياح فلما كانت سنة ١٨٨٢ مضى فصل الشتاء ولم اصب سائحًا لان محل كوك احتكر السياح كافة وتكفل بارسالهم على ان يقوم بكفايتهم وكان يرسل معهم تراجمة وخدامًا من عندهِ فلم يعد لنا نفع يذكر فلما مضى فصل الشتاء ضاقت بي الحيل وعولت ان اعود الى بيروت فسمعت بسير حملة هيكس باشا لمحاربة المتمهدي الملعون فوفق الله لي احد ضباط تلك الحملة لاسير معهُ خادمًا فرافقتهُ يئسًا وما زلت معه حتى اتينا الخرطوم وبعد ان مكثنا هناك برهة جاءني يومًا وعليهِ ثياب غير ثيابهِ الاعتيادية كأنهُ قد تنكر فقلت وما هذا يا سيدي قال «اني يا عبود مسافر في مهمة الى الأبيض حيث يقيم المتمهدي ولا

استطيع ان آخذك معي لاني ذاهب متنكرًا وليس معي الا هذا الخبير السوداني فامكث انت هنا وهذهِ ثيابي باقية عندك ريثما اعود» ولكن آه يا سيدي انهُ لم يعد قط فلبثنا في الخرطوم حتى سمعنا بمذبحة هيكس وجيشهِ ولم يعد يطيب لي المقام فجمعت ما كان عندي وفي جملتهِ ثياب ذلك الضابط وجئت بها قاصدًا هذهِ الديار عن طريق بربر فرأيت خطرًا بمروري الى سواكن وانهُ لابدَّ لي من التنكر وتخفيف حملي فطرحت ما كان معي من الثياب في تلك المدينة ولم ابقِ الا بعض الاشياء الخفيفة الحمل والغالية الثمن

الفصل الرابع والستون

السودان الشرقي

واخذت بالمسير في الصحراء تارة امرُّ بسهل متسع قليل الاعشاب والاشجار وطورًا اصعد في جبل وعر السلوك وآونة امرُّ بحرجات كثيرة الوحوش حتى خفت على نفسي ان اذهب فريسة لها وكنت تارة اعطش وطورًا اجوع واما الطريق فلم اكن اعرفها ولكني اصطحبت اعرابيًّا من بربر كان سائرًا الى سواكن واظنهُ كان ذاهبًا بمهمة سرّية ارسلهُ فيها حسين باشا خليفة مدير بربر ولما قطعنا نحو نصف الطريق في بضعة ايام علمنا ان الطريق الى سواكن مقطوعة لا يمكننا سلوكها لظهور دعاة المهدي فيها تحت قيادة عثمان دقنا الذي اصبح ألدَّ عدوّ

للاتراك ومن شابههم على كونهِ تركيّ الاصل . فضاق بخيت ذرعاً لطول القصة واراد ان يبتدره بالكلام لاستطلاع ما يهمهُ ولكنهُ خاف ان يغضبهُ فبقي صامتاً وهو على مثل الجمر فأتمَّ الرجل حديثهُ قائلاً

فلما سمعنا ذلك وقعنا في حيرة اما رفيقي فكان يسهل عليهِ التنكر لقرب حالهِ ولغتهِ من هؤلاء واما انا فعظم الامر عليَّ وتوسلت الى الرجل ان يدبر لي وسيلة اخلص بها من تلك الورطة فأعطاني بعض ثيابه وعلمني من الكلام السوداني فوق ما كنت اعرف حتى اذا وقعنا في مشكل ندعي انه من أهل تلك الجهات لقائمين بدعوة الامام المهدي

فما زلنا سائرين حتى صرنا على مقربة من سنكات وكان صديقي قد اخبرني انها محاصرة وفيها حامية من الجنود المصرية والعدو محدق بها من كل الجهات وان الحكومة المصرية ارسلت نجدة تحت قيادة رجل انكليزي يقال لهُ بكر باشا لانقاذها. فقلت ان دخولي مدينة سنكات افضل من الاستمرار على المسير الى سواكن فربما القى حتفي في الطريق لاني علمت ان عثمان دقنة قد مدَّ سطوة المهدي ودعوتهُ الى اقصى تلك الانحـاء

فلما صرنا على مقربة من سنكات ونحن في يشبه لباس الدراويش سألت رفيقي عن رأيهِ فوافقني على دخول سنكات فصبرنا حتى سدل الليل نقابهُ وسرنا حتى اقتربنا من الحصون فنادينا الامان فأمنونا فدخلنا البلدة واخذ العساكر يسألوننا عن حالنا فأخبرناهم بما عرفناه وبتنا تلك الليلة قرب الحصون وذهبت في الصباح التالي

الى البلدة فاذا هي ليست كبيرة وابنيتها من الاجر تخللها بيوت من القش ولكني شاهدت اهلها في ضنك شديد من قلة المؤونة لانقطاع السابلة عليهم من كل الجهات فكان كل من شاهدني يسألني عن المهدويين وعن مذبحة هيكس

الفصل الخامس والستون

﴿ بطل سنكات ﴾

وفيما انا اجول في البلدة جاءني جندي يدعوني الى مقابلة توفيق بك محافظها فذهبت اليهِ واذا هو جالس على مقعد في ديوانهِ مقطب الوجه فلما دخلت حييت فأذن لي في الجلوس واخذ يسألني عما سمعته عن حملة باكر باشا فقلت اني لم اسمع الا انها جاءت لانقاذكم من هذا الحصار فتنهد توفيق بك وهزَّ رأسهُ وجعل يخاطب نفسهُ قائلاً « اجاؤُا الينا بنساءٍ ام برجال » ثم نهض عن المقعد وجعل يتمشى في ارض الديوان فتعجبت لذلك ولكني لم اجسر على سؤَالهِ عن السبب حتى عاد الى المقعد وأشعل سيكارتهُ واعطاني سيكارة فتناولتها وقد راعني منظره ووددت الخروج من الغرفة فقال يخاطب ضابطاً بجانبهِ « قد جاء باكر باشا بجنود لا نقذنا ثم علمت انهم امروا بالاسراع الى انقاذ حامية طوكر فلما وصلوا آبار التيب نزل عليهم العصاة وأمعنوا فيهم قتلاً ونهباً وقد سمعت ان الجنود والضباط لم يحسنوا الدفاع وليس ذلك فقط بل انهم تربعوا على الصعيد

واخذوا يصيحون ويولولون كأنهم نساء والعرب تعمل السيف فيهم ولقد ساء ذلك باكر باشا كثيرًا وكانت النتيجة انكسار النجدة وعودها وازدياد الحصار علينا فلا حول ولا قوّة الاّ بالله العليّ العظيم »

فأخذ ذلك الضابط يخفف عنهُ ويهوّن عليهِ فقال لهُ اني لا اخاف الموت من اجل نفسي ولكني اخشى العار الذي يلحق بحكومتي لاهمالها انقاذ حامية هذهِ البلدة التي دافع اهلها دفاعاً حسناً وكم من كتاب جاءنا من عثمان دجنا يعدنا مواعيد حسنة اذا سلمنا ولم نجبهُ الا بالتهديد والوعيد

قال ذلك وجعل يدخن سيكارته كأنهُ يلتهمها التهاماً وقد اتقد غيظاً ثم نهض عن المقعد وعاد الى التمشي اما انا فازددت رهبة من غضبهِ حتى لم اعد استطيع النهوض للانصراف فلبثت صامتاً

فقال لهُ الضابط تمهل يا سيدي ان الفرج قريب والحكومة لا تهمل امرنا لاننا اولادها

فرفس الارض برجلهِ قائلاً كيف نصبر وعن قريب يحل بنا ما حلّ بهيكس ولكن ذاك معذور لبعدهِ عن مراكز الحكومة ولانهم لم يكونوا يعرفون مقرّهُ اما نحن فمكاننا معلوم وقد اصبحنا في حال لا تطاق من الضيق الجوع فان اهل البلد ياكلون الجلود ولحم الكلاب والخيل والجمال لقلة المؤنة وماذا تريد منهم اكثر من هذا الصبر على عهود الحكومة ومصلحتها . امـا بخيت فخفّ قلقهُ على معرفة حال الدبوس لاشتغالهِ بهذهِ الحكاية الغريبة وكان قد سمع عن مقتل توفيق بك قريباً

فقال عبود فعجبت يا اخي لاخلاص هذا الرجل للحكومة وعظم شهامته وصرت اقول في نفسي انهُ اذا انحاز الى العصاة فلا يلام لانه اضطرَّ اضطرارًا ثم خرج البيك من الغرفة فخرجتُ وقد تحقق عندي تفاقم الخطب واستفحال امر العصاة وفي اليوم التالي جمع توفيق بك ضباط مجلسهِ في جلسة حافلة حضرتُها

فقام فيهم قائلاً « ها ان العصاة قد احاطوا بنا من كل ناحية والحكومة بعثت الى نجدتنا حملة لم تصلنا والبلد في جوع مدقع ولا ازيدكم علماً بماذا ياكلون وبماذا يشربون فالآن اما ان نلبث في الحصار فنموت جوعاً واما ان نخرج مستقتلين وندافع عن انفسنا وحكومتنا حتى يقضي الله بما يشاء وهو خير الحاكمين فاذا قتلنا عن آخرنا فذلك خير لنا من التسليم لقوم طغام يكذبون على الله ورسولهِ ويدَّعون المهدوية زورًا على اننا لو هان علينا التسليم ما افدنا شيئاً اذ ان عثمان دقنا لا يبقينا في قيد الحياة فما رأيكم »

فبهت الجميع وكأنهم قد سحروا بكلام محافظهم المملوء شهامة وحزماً فقالوا الرأي لك

قال « الرأي عندي ان نفتح ابواب البلدة غدًا بعد ان نخربها ونخرج بسلاحنا مستقتلين فاذا لاقانا العدوّ قاتلناهم الى آخر نسمة من حياتنا باسم خديوينا توفيق باشا حتى يقضي الله بيننا وبينهم ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون »

اما انا فوقعت يا اخي في حيرة وليس لي ارب في القتال لاني

لست جندياً ولا اعرف الدفاع فندمت على دخولي سنكات وكذلك رفيقي محمود فاجتمعت بهِ وتعاهدنا على ان نفرَّ من المدينة تلك الليلة الى معسكر العدوّ كما كنا قبلاً ثم نذهب من هناك الى سواكن

فلما كان منتصف الليل لبسنا المرقعيات وخرجنا نريد معسكر عثمن دقنا فدخلنا مولولين مستنجدين وقلنا اننا تهنا عن الطريق فمررنا بجانب سنكات فأَطلقوا علينا الرصاص ولم نَنجُ الا بعد الجهد والعناء فطيبوا خاطرنا وبتنا تلك الليلة وفي الصباح التالي تركنا المعسكر وسرنا حتى اتينا سواكن ولم نبلغها حتى بلغنا خروج توفيق ورجالهِ قانطين فهجم العصاة عليهم ولم يبقوا مخبرًا منهم فأَسفت على ذلك البطل اسفي على ذلك الضابط وركبت البحر من سواكن الى السويس وبالاختصار وصلت الى هنا منذ برهة يسيرة جدًّا وانا لا انسى ذلك الرجل ولطفهُ وفضلهُ قبح الله العصاة واعمالهم وتراني قد علقت الخمرة من ذلك الحين تسلية لي عن فقد ذلك الرجل الشريف

اما بخيت فكان اثناء تلك الحكاية كأَنهُ اذان صاغية وقد توسم فيها خيرًا فلما أَتمَّ صاحبهُ الحديث قال لهُ والله ان حكايتك لفي غاية الغرابة ولكننا كنا في سياق حكاية الهدايا والحلوانات فقلت انك جئت من بلاد السودان بأَشياء لم تذكرها

قال لقد جئت من هناك بما معي من ثياب الضابط المتقدم ذكره وفي جملتها دبوس مرصع فبعتهُ لصاحب هذا المنزل بمبلغ قليل اذ انهُ لاينفعني فأَخذ قلب بخيت في الخفقان ولكنهُ استدرعبودًا بالسؤَال عن اسم

معلِّمهِ المشار اليهِ فقال ومن الغريب انهُ ضابط انكليزي ولكنهُ كان يعرف العربية كواحد من المصريين واسمهُ كبتن شفيق (اي يوزباشي شفيق) فازداد خفقان قلب بخيت وكاد يطير من الفرح لاكتشافهِ سرّ الدبوس ولكنهُ اسف لتذكرهِ ضياع ذلك الشاب فبهت برهة وعبود ينزع الخرقة (الوزرة) عن وسطهِ لانتهائهِ من الشغل ثم قال لهُ بخيت وهل سمعت شيئاً بعد ئذٍ عن ذلك الضابط

قال لو كنت سمعت عنهُ شيئاً ما برحت السودان قبل ان التقي بهِ

قال بخيت ولكنك تقول انهُ لم يسر برفقة الحملة فمن الممكن ان يكون حياً بعد

قال عبود آه لو اعلم انهُ حيٌّ فاذهب للتفتيش عنهُ لاني لا انسى فضلهُ ولطفهُ فقد كان يحبني ويعدني بمستقبل حسن عندهُ

ولم يزد بخيت على هذا الحديث فنهض لوداع عبود وفي يدهِ قطع من النقود جعلها في يدهِ قائلاً ان الباشا مسرور منك وقد اوصاني ان اكرمك فتناول عبود الدراهم وقبلها قائلاً ايحيَ رأس الباشا وليطل الله عمرهُ

ثم خرج بخيت وهو في بحار من الهواجس وود لو استطاع ان يسير توًّا الى سيدتهِ يطلعها على ما سمعهُ ولكنهُ سمع الساعة تدق عشر دقات فعلم انها تكون في الفراش على انها ان لم تكن فيهِ فلا بدَّ من ان يكون والدها عندها فلا يستطيع اطلاعها على شيءٍ فسار الى حجرتهِ على ان يغتنم فرصة في اليوم التالي ويقص عليها القصة

الفصل السادس والستون

زيارة المنارة

اما فدوى فباتت تلك الليلة وهي تفكر بالدبوس وامرهِ وامر رسم شفيق وضياعهِ ورقدت تنتظر ما يجيئها بهِ بخيت من النبإِ الجديد

اما الباشا فلم يكن همهُ الا التبكير الى زيارة المنارة ترويحاً لنفس فدوى بالمناظر الجديدة والمحادثة مع زوجة الدكتور

فلما اصبح الصباح تناولوا الطعام ولم يفارق الباشا الحجرة حتى كانت الساعة العاشرة فبعث خادمهُ يأتيهِ بعربة فلما جاءت كانت فدوى قد لبست ثيابها استعدادًا للمسير جاعلة اليشمك اللطيف على رأسها وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة محلولة من طرفها وارختها على ظهرها وكانت هيئتها في غاية الجمال والوقار على ما فيها من النحول

فركب الباشا وابنتهُ في العربة وركب بخيت بجانب السائق وساروا قاصدين رأس بيروت فسألوا السائق اذا كان يعرف منزل الدكتور ن · فقال وهل في هذهِ المدينة من لا يعرفهُ فانهُ والد للفقراء وذوي الاسقام

وبعد مسير نصف ساعة وصلت العربة الى طريق طويل خارج المدينة ينتهي ببناء فيهِ المنارة التي تهتدي بها السفن الى مينا بيروت وشاهدوا على يمينهم قبل وصولهم الى المنارة باباً كبيرًا عارياً من كل زينة فدخلت العربة الى بقعة محاطة بسور وفي صدرها باب آخر وقفت العربة عندهُ فانتصب خادم من خدمة المنزل عليهِ لباس اهل لبنان

من السراويل المصنوعة من البفتا المصبوغ بلون بارودي زاهٍ وعلى رأسهِ طربوش تونسي قصير عليهِ عمامة صغيرة من نسيج ملوّن يقال لهُ كوفية فلما وقفت العربة جاء الخادم وفتح الباب واستقبل الباشا ودخل بهِ في رواق يحفهُ من الجانبين حوضان مزروعان باعشاب وانجم من النبات وفي نهاية ذلك الرّواق باب خشب بدرابزون يؤدي الى حديقة تشرف على البحر والمنزل كلهُ على مرتفع اشبه بتل كبير

فلما وصلوا الى آخر الرّواق دخل الخادم في باب صغير على يمينهِ اتصل منهُ الى مكتب الدكتور وانذرهُ بمجيء الضيف وسار في طريق أُخرى الى اليسار مرصوفة بالرخام يتصل منها الى باب المنزل الحقيقي واخبر امرأة الدكتور بمجيء سيدة تركية وكان قد ادرك ان هذهِ السيدة لا تقابل الرجال

فخرج الدكتور واستقبل الباشا ودخل بهِ مكتبتهُ وجاءت امرأتهُ وهي قصيرة القامة خفيفة العضل مثل زوجها واستقبلت فدوى بكل ترحاب ودخلت بها غرفة الاستقبال فتأَملت فدوى في ذلك البيت فاذا هو متقن الفرش ولكنهُ بسيط يشهد بسلامة ذوق صاحبهِ وقد اعجبها على نوع خاص لطف السيدة امرأة الدكتور لانها كانت تنتظر ان تقابلها مثل ما يقابل الافرنج من لم يسبق لهم معرفة بهِ

اما هذهِ فقابلتها ورحبت بها كأَنها تعرفها من زمن مديد وامرت بالقهوة وسائر معدّات الترحاب وبعثت الى بناتها وعرفتهنّ بالسيدة فدوى وجلس السيدات يتحادثن باحاديث مختلفة حتى كادت فدوى

تنسى كل احزانها وهواجسها

اما الباشا فدخل مكتبة الدكتور فاذا هي كما يليق ان تكون مكاتب العلماء العاملين ولكنهُ رأى الدكتور في لباس لم يكن ينتظر ان يراهُ فيهِ وهو لباسهُ الافرنجي المعتاد ولكنهُ كان ملتفاً فوقهُ بعباءة سوداء من ملابس البدو وعلى رأسهِ بدل البرنيطة عراقية من المخمل زرقاء اللون مزركشة بالقصب تتدلَّى منها طرَّة من القصب

فلما جلسا اخذ الدكتور يرحب بضيفهِ ترحاباً عظيماً وامر لهُ بالقهوة والنارجيل واخذا يتجاذبان اطراف الحديث فرأى الباشا في الدكتور اطلاعاً تاماً في احوال السياسة واحوال سورية خصوصاً

فمضى نصف النهار ولم يشعر الباشا بهِ لاستئناسهِ بضيفهِ فلما دقت الساعة ١٢ همَّ بالذهاب فأمسكهُ الدكتور ودعاهُ الى الغداء ولم يتركهُ حتى تغدَّى عندهُ فمدَّت مائدة للسيدات وأُخرى للرجال وكان كل ذلك مما يزيد تعجب الباشا بسعة اطلاع الدكتور على اخلاق الشرقيين وعوائدهم

ولما جلسوا على المائدة قال الباشا اعذرني يا حضرة الدكتور اذا تطفلت في سؤالك عما رغبك في عوائد الشرقيين فرأيتك قد تخلقت بجميع اخلاقهم حتى ان طعامك هذا نفس طعامهم فهل جعلتهُ كذلك مراعاة لضيوفك ام تلك عادتك في بيتك

فقال الدكتور ان تلك عادتي في سائر ايامي فاني قد جئت هذهِ الديار واقمت فيها واتخذتها وطناً لي واحببت اهلها محبتي لاولادي لأَعيش معهم واقضي باقي هذه الحياة بين ظهرانيهم ولا انسى محبتهم لي واكرامهم

اياي فلا غرو اذا احببتهم محبة الوالد لاولادهِ فانهم يحبونني محبة الاولاد لوالدهم فاذا قضيت بينهم فكأني قضيت في وطني وبين اهلي واخواني

فقال الباشا اعجب بك من رجل كريم النفس فقد بلغني عن محبة اهل هذهِ البلاد لك مثل ما بلغني منك عنهم

فأطرق الدكتور واغضى عن الاجابة ثم اراد تغيير الحديث فسأله عن فدوى وماذا جرى بها بعد ما كلمهُ عنها فأخبره انها كانت مستريحة قليلاً ويظهر لي الآن انها آنست بكم ونسيت هواجسها

فقال الدكتور اذا كان منزلنا يفيدها فمرحباً بها فلتقم عندنا ما شاءت فأثنى الباشا على الدكتور واعتذر عن عدم استطاعتهِ ذلك

وبعد تناول الغداء وشرب القهوة استأذن الباشا في الانصراف فالحّ عليهِ بالبقاء فاعتذر فودعه وهكذا فعلت امرأة الحكيم بفدوى وخرج الاثنان وركبا العربة وركب بخيت وسارت بهم عائدين الى الفندق

الفصل السابع والستون

طنوس العربجي

وكانا في اثناء الطريق يتحادثان بما لاقياه من حسن الوفادة وفيما العربة سائرة وصلت بهما الى القرب من بناء كبير عرفا انهُ مدرسة طبية وهناك حرنت الخيل ولم تعد تمشي فأخذ السائق يحاول تمشيتها فلم يستطع ولم تزدد الا حروناً فتحوّلت فدوى ووالدها منها

وقال الباشا لبخيت ادفع لهُ الاجرة وهات لنا عربة اخرى

فلما سمع السائق ذلك تقدم نحو الباشا وهو يترنح بمشيهِ قائلاً لماذا لا تركبون في عربتي

فقال الباشا لان خيلها وقفت ولم نعد نأمن من الخطر

فقال مغضباً لعل عربتي لا تنفع شيئاً الان

قال الباشا لم اقل لك انها لا تنفع وانما قلت اني صرت اخشى ان يكون علينا خطر فيها بعد ان رأيت الخيل قد حرنت

قال ولكن خيلي ليس احسن منها في كل بيروت

قال الباشا آمنّا وصدّقنا كل ذلك ولكن اعذرنا اذ لم يعد يمكننا الركوب ومع ذلك فهذهِ اجرة العربة واذا كانت لا تكفي فاطلب ما تريد لندفعهُ اليك

قال انا لست محتاجاً الى دراهمك ولا اريد ان تتصدّق عليّ وانما اريد ان تعلم ان عربتي وخيلي من احسن ما في بيروت

فقال الباشا نعم اقرّ واعترف بذلك

قال فلماذا لا تركب معي إذَنْ

قال لاني لا أُريد وكان الباشا قد اغتاظ منهُ واراد ضربهُ ثم تذكر ما كان قد سمعهُ عن سائقي العربات هناك فخاف ان تعود العاقبة عليهِ وبالاً وهو بعيد عن المدينة ولا وصول لهُ الى البوليس فلم يرَ أفضل من ان يتحوَّل عنهُ ولا يجيبهُ تاركًا بخيتًا يخاطبهُ وبعد اللتيا ولتي تنازل ذلك السائق عن حقوقهِ وتركهم فقال الباشا لبخيت جئنا

بعربة فانتا نتمشّى في هذهِ الطريق امام هذهِ المدرسة حتى تعود الينا قال سمعاً وطاعة وسار ولبث الباشا وفدوى يتمشيان امام سور المدرسة ويتأملان في ذلك البناء الجميل الذي يزينه موقعه لان المدرسة قائمة على تلٍّ صغير مشرف على البحر. وفيما هما يتمشيان امطرت السماء على غير انتظار وتلك حالة الهواء في شهر شباط (فبراير) حتى قيل في امثالهم ان شباط ليس عليهِ رباط فاضطر الباشا ان يأوي بابنتهِ الى ملجإٍ فدخل باب المدرسة فوصل اولاً الى بناية القسم الاستعدادي ودخل بهما ملجأً تحت سقف ينتظران مجيء بخيت بالعربة فمضى نصف ساعة ولم يأتِ فقلق لغيابهِ وتعجب الباشا لذلك التأخر لانه كان يظن ان العربات في بيروت لا تنفك تجول في الشوارع خارج المدينة وداخلها كما في مصر

وكان البوّاب قد جاءهما بكرسيين فجلسا ينتظران عود بخيت بفروغ صبر حتى دقت ساعة المدرسة اربع دقات وضرب جرس الانصراف واذا بالتلامذة والاساتذة خارجون من القسم الطبي والعلمي افواجاً ثم سمع صوت جري عربة خارج الباب فخرج فاذا هي عربة وليس فيها بخيت فسأل عنها فقيل له انها عربة الدكتور (ت) احد اساتذة المدرسة فأراد العود الى فدوى فلاقاه رجل في لباس افرنجي اشيب الشعر كثيف شعر اللحية على عينيهِ النظارات فحيّاه فردَّ الباشا التحية فرحب بهِ وسأله عن غرضهِ فاخبره بما كان فقال ربما يتأخر رسولكم اكثر من ذلك اذ لا بد له من النزول الى المدينة لاجل العربة فهذهِ عربتي

تحت امركم فاركبوها الى حيث انتم ذاهبون وكان ذلك الشيخ الدكتور ت فامتنع الباشا في بادئ الرأي عن وجوب الدعوة خجلاً لكنهُ قبِلَ اخيرًا

ولم يكن الدكتور قد شاهد مع الباشا احدًا سواهُ ولذلك كان يريد الركوب معهُ فلما رآهُ ينادي ابنتهُ امتنع عن الركوب معهما فركب الباشا وابنتهُ وقال للسائق خذنا الى فندق بسُول على البحر والتفت الباشا الى الدكتور شاكرًا فسارت العربة حتى أتيا الفندق فلمْ يشاهدا بخيتاً فقلقا عليهِ وعلى الخصوص فدوى لانها كانت تنتظر الاختلاء بهِ لتسأَلهُ عما عرفهُ من امر الدبُّوس

فالحَّت على والدها ان يسعى في البحث عنهُ وهو لم يكن اقل قلقاً عليهِ فسار الى صاحب الفندق وأطلعهُ على ذلك فقال لعلهُ تاهَ عن الطريق ولا يلبث ان يظهر فقال لا اظنهُ تاه لانهُ لو قال للسائق اوصلني الى منزل الدكتور ن لاوصلهُ

الفصل الثامن والستون

ضيف ثقيل

وباتا تلك الليلة وفدوى تناجي نفسها راجية ان يعود بخيت بخبر الدبُّوس فلما كان الصباح جاء احد خدم الفندق يدعو الباشا لمخاطبة شرطي جاء يطلبهُ فخرج فاذا بأحد الشرطة وبيدهِ ورقة فلما تلاها فهم منها ان بخيتاً محجور عليهِ في السجن فلبس ثيابهُ وسار

برفقة الشرطي الى السراي قرب حديقة الحميدية ودخل توًّا على مأمور الشرطة فوقف لهُ واحترمهُ واجلسهُ الى جانبهِ فاستخبرهُ الخبر فقال ان خادمك واحد المصريين تشاجرا امس وجيء بالاثنين الى المخفر فسأَل عن اسم الآخر فقال يدعى عزيزًا فاستغرب الباشا ذلك لتذكرهِ عزيزًا صاحبهُ مع علمهِ انهُ كان في مصر فقال للمأمور انهما ابناء بلد واحد وتقدم اليهِ ان يتخلَّى عن قضيتهما اذا تصالحا فوعدهُ بذلك وامر باحضارهما فحضرا فاذاهما بخيت وعزيز فلما رأَى الباشا عزيزًا سلَّم عليهِ وقال لهُ ما سبب خصامك قال التقيت بخادمك هذا — وكان بخيت في حالة الغيظ من عزيز فقال لهُ تأَدَّب يا فتى انك والله لمستحق القتل فأَسكتهُ المأمور ريثما يتم الرجل حكايتهُ — فقال عزيز التقيت بهِ مساءَ امس وهو مسرع نحو المدينة فناديتهُ لأَسأَلهُ عن سعادتك فلعنني واهانني فترفقت بهِ فازداد فجورًا فسمعنا الشرطة فقبضوا علينا وساقونا الى السجن

فقال الباشا لا بأْس ياولدي ان ذلك لم يحصل الا سهوًا اذ ربما لم يعرفك بخيت فابتدرهُ بخيت قائلاً كلاَّ يا سعادة الباشا اني عرفتهُ ولولا ذلك ما اهنتهُ لانهُ مستوجب فوق الاهانة

فقال الباشا اسكت يا بخيت فقد جئت الآن لأُصلحكما وأُخرجكما من السجن فقال بخيت اني أُفضل السجن يا سيدي اذا كان هذا الخائن فيهِ معي لكي يتأَدَّب فانتهرهُ الباشا اما عزيز فما زال ساكتًا مظهرًا التأَدب والاصغاءَ الى كلام الباشا فسكت بخيت. فقال الباشا لقد تصالحا لانهما من

بلد واحد وكلاهما من خاصتي فليأمر حضرة المأمور باطلاق سراحهما فقال المأمور ليكن كما تأمر سعادتك فخرجا من السجن واما بخيت فكان يرتجف ويرتعد لشدَّة تأثرهِ لانهُ كان يودُّ قتل عزيز لو لم يدركها الشرطي وسار الجميع قاصدين الفندق والباشا يرحب بعزيز ويسأَلهُ عن سبب مجيئهِ فقال يعلم الله يا سعادة الباشا اني لم يعد يهدأ لي بال منذ برحتمونا ولم ارَ سبيلاً للاطمئنان الاَّ بالمجيء الى هنا ومشاهدتكم فعسى ان تكون السيدة فدوى بخير فقال انها بخير ان شاء الله

وكان بخيت كل الطريق ينظر الى عزيز نظرة الغدر ونفسهُ تحدثهُ بقتلهِ لولا احترامهُ لسيدهِ وكان عزيز قد ادرك ذلك فأَخذ يتزلف الى الباشا ويظهر لهُ الود والاخلاص والقلق على صحة فدوى فلما اقتربا من الفندق سأَلهُ الباشا عن محل نزولهِ فقال اني لم اختر منزلاً وقد قيل لي ان هذا الفندق من افضل فنادق بيروت وكنت قد وصلت امس ووضعت امتعتي في قهوة بقرب المينا على امل الخروج للتفتيش عن منزل فالتقيت بخادمك وجرى ما جرى

فقال ابعث من يأْتيك بالامتعة وتعالَ الى هنا ودخلا

اما فدوى فكانت في انتظار عود والدها فسمعت صوتهُ في الدهليز المؤدّي الى غرفتها ولما فتحت الباب لاستقبالهِ والاستفهام عن بخيت وقعت عينها على عزيز فارتعدت فرائصها وخفق قلبها واتقدت النار في فؤادها فعادت الى الحجرة واغلقت الباب وراءها والقت بنفسها على المقعد خائرة القوى من شدة التأثر قائلة ما الذي اتى بهذا الخائن الى

هذهِ الديار قاتلهُ الله ما اثقلهُ وما اكثر فضولهُ

ثم فتح والدها الباب وقد ادرك ما بها ودخل بخيت معهُ وسلما عليها فأسرع بخيت الى تقبيل يدها اما هي فشغلت نفسها عن التأَثر وخاطبتهُ قائلة ما الذي جرى لك يا بخيت فقد اقلقتنا بغيابك فقال لا اقلقك الله يا سيدتي انها حادثة عرضت وانقضت بسلام قال ذلك وحرق اسنانهُ وهزَّ رأسهُ خيفة من سيدهِ فأَدركت ان في المسأَلة سرًّا فصبرت على استطلاعها ريثما تختلي بهِ

وجلس الباشا يقص القصة عليها وهي مصغية الى ما يقول حتى وصل الى ذكر عزيز فامتقع لونها وظهرت عليها امارات الغيظ فلحظ والدها ذلك منها فقال ضاحكاً ما الذي غاظك من حديثي يا حبيبتي قالت لم يغظني شيءٌ وانما عجبت لهذا الاتفاق

فقال انهُ اتفاق عجيب والرجل قد جاء من مصر غيرة علينا وقد سأَلني عنك كثيرًا فازدادت هي غيظاً حتى لم تعد تقدر على اخفاء ما بها فقالت وما الذي حملهُ على افتقاد من لم يخطر لهم في بال

فضحك والدها قائلاً أَلا تزالين حاقدة عليهِ يا عزيزتي

قالت نعم يا سيدي ولن ازال ما بقيتُ حية

فقال يا للعجب وقد عهدتك سليمة القلب وانت في صحة فكيف وانت في مرض فهلاَّ صفحت واخلصت النية

قالت وفي اي شيء

قال في امر هذا الفتى فاني لم اعد ارى منهُ من يوم تلك

الحكاية الا اخلاصاً ومحبة

فازداد اضطرابها لتذكرها الايام الغابرة وارادت التكلم فلم تستطع وغلب عليها البكاء فألقت نفسها على الفراش واخذت في البكاء

فحاول والدها اسكاتها فلم يستطع فاغتاظ منها ونسي محبته لها وانتهرها قائلاً كفى يا فدوى كفى ما اصابك الا تزالين مشغوفة بحب الاموات ومفضلة اياهم على الاحياء

فلم تزدد الا بكاء وعويلاً فكلمها ثانية فلم تجبه فازداد غضبه فتركها وخرج مغلقاً الباب وراءه

الفصل التاسع والستون

﴿ احياء الامل ﴾

فلما خلت فدوى بنفسها اطلقت لعنان بكائها واخذت تخاطب نفسها قائلة

« اوَّاه من الدهر الخؤون الذي بقي لهذا النذل رجلاً يسعى بها الينا وبعث ذاك الملاك الى اقاصي البلاد حيث لا نعلم له مقرًّا فهل يا ترى التقي به بعد هذه المشاق وهل تراه عيني آه آه ثم آه » واخذت تلطم وتبكي حتى كاد يغمى عليها ثم عادت الى مناجاة نفسها قائلة « اني وحبك لا ازال على حبك حيًّا كنت او ميتاً فانك عندي بجميع احياء هذا العالم فكيف بمثل هذا الخائن النذل اين عينك تراه وتبصره يفعل . تبًّا لك ياخائن

هذه الديار قاتلهُ الله ما اثقلهُ وما اكثر فضولهُ

ثم فتح والدها الباب وقد ادرك ما بها ودخل بخيت معهُ وسلما عليها فأسرع بخيت الى تقبيل يدها اما هي فشغلت نفسها عن التأثر وخاطبتهُ قائلة ما الذي جرى لك يا بخيت فقد اقلقتنا بغيابك فقال لا اقلقك الله يا سيدتي انها حادثة عرضت وانقضت بسلام قال ذلك وحرق اسنانهُ وهزَّ رأسهُ خيفة من سيدهِ فأدركت ان في المسأَلة سرًّا فصبرت على استطلاعها ريثما تختلي بهِ

وجلس الباشا يقص القصة عليها وهي مصغية الى ما يقول حتى وصل الى ذكر عزيز فامتقع لونها وظهرت عليها امارات الغيظ فلحظ والدها ذلك منها فقال ضاحكاً ما الذي غاظك من حديثي يا حبيبتي قالت لم يغظني شيءٌ وانما عجبت لهذا الاتفاق

فقال انهُ اتفاق عجيب والرجل قد جاء من مصر غيرة علينا وقد سألني عنك كثيرًا فازدادت هي غيظاً حتى لم تعد تقدر على اخفاء ما بها فقالت وما الذي حملهُ على افتقاد من لم يخطر لهم في بال

فضحك والدها قائلاً أَلا تزالين حاقدة عليهِ يا عزيزتي

قالت نعم يا سيدي ولن ازال ما بقيتُ حية

فقال يا للعجب وقد عهدتك سليمة القلب وانت في صحة فكيف وانت في مرض فهلاَّ صفحت واخلصت النية

قالت وفي اي شيءٍ

قال في امر هذا الفتى فاني لم اعد ارى منهُ من يوم تلك

الحكاية الا اخلاصاً ومحبة

فازداد اضطرابها لتذكرها الايام الغابرة وارادت التكلم فلم تستطع وغلب عليها البكاء فألقت نفسها على الفراش واخذت في البكاء

فحاول والدها اسكاتها فلم يستطع فاغتاظ منها ونسي محبته لهـا وانتهرها قائلاً كفى يا فدوى كفى ما اصابك الا تزالين مشغوفة بحب الاموات ومفضلة اياهم على الاحياء

فلم تزدد الاَّ بكاءً وعويلاً فكلمها ثانية فلم تجبهُ فازداد غضبهُ فتركها وخرج مُغلقاً الباب وراءَهُ

الفصل التاسع والستون

احياء الامل

فلما خلت فدوى بنفسها اطلقت العنان لبكائها واخذت تخاطب نفسها قائلة

«اوَّاه من الدهر الخؤون الذي ابقى لهذا النذل ارجلاً يسعى بها الينا وبعث ذاك الملاك الى اقاصي البلاد حيث لا نعلم لهُ مقرًّا فهل يا ترى التقي بهِ بعد هذه المشاق وهل تراهُ عيني آه آه ثم آه» واخذت تلطم وتبكي حتى كاد يغمى عليها ثم عادت الى مناجاة نفسها قائلة «اني وحبك لا ازال على حبك حيًّا كنت او ميتاً فانك عندي بجميع احياء هذا العالم فكيف بمثل هذا الخائن النذل اين عينك تراه وتبصره يفعل . تبًّا لك ياخائن

يا غادر · واما انت يا ابتاه فما الذي هاج غضبك على ابنتك ووحيدتك التي كنت تقسم بحياتها ولا ترضى الحياة الآ من اجلها اتريد مني ان ابدل ذلك الملاك بهذا الشيطان ام تريد ان اسلو ذاك الشهم رب المروءة والنخوة رب المحبة والوداد واتمسك بهذا النذل الكاذب الخادع المنافق · ان الحياة بعد ذلك لم تعد تحلو لي · · · · » وفيما هي في الكلام سمعت الباب يطرق طرقاً خفيفاً فاصاخت واذا بخيت يقول لا تخافي يا سيدتي اني عبدك بخيت وفتح الباب ودخل وهو يستشيط غيظاً فامسك بيدها واجلسها واخذ يخفف عنها فانتهرتهُ قائلة دعني وشأني يا بخيت فلم يعد لي مطمع بالحياة بعد ان صارت الكلاب تدخل عرين الاسود فهل مات ذلك الاسد · من لي بمن ينبئني بمقامهِ حياً او ميتاً فافديهِ بروحي وعند ذلك اما ان احيي املي او اصرم اجلي واتخلص من العار

فاسكتها بخيت بلطف قائلاً طيبي نفساً يا سيدتي لعل وقت الفرج قد دنا وقد قيل

ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فُرجت وكنت اظنها لا تُفرج

فالتفتت اليهِ مصغية وقد سكتت بغتة وقالت لهُ هل عندك خبر جديد اخبرني

قال ان عندي خبرًا جديدًا اخبرك بهِ متى سكن روعك واصغيت الى ما اقول فمسحت دموعها وقالت ها انا ذا قد اصغيت فقل ما عندك

فقال اسمعي يا سيدتي ان هذا الخائن اذا بقي حياً الى الغد فلن يبقى الى ما بعدهُ ولو ساعدتني الاقدار لسقيتهُ كأس المنون امس

ولكن ابشري سوف اذيقهُ تلك الكأس عاجلاً او آجلاً . آه من الانذال واما المسألة الثانية وهي الاهم فقد عرفت شيئاً جديدًا عنها مما يختص بالدبوس

فقالت مسرعة قل حالاً ماذا عرفت

قال قد عرفت انهُ دبوس سيدي

قالت ذلك عرفناه من قبل ولكن كيف وصل الى هذه المرأة

قال قد عرفت الرجل الذي جاء بهِ اليها

قالت واين هو هل هو بعيد من هنا

قال كلاّ يا سيدتي بل هو قريب جدًا بل هو في هذا الفندق

فوقفت فدوى على قدميها بغتة وقالت اين هو اخبرني ومن هو وماذا قال عن شفيق

قال يا سيدتي هو الطباخ وقد قال ان سيدي شفيقاً لم يسر في حملة هيكس باشا بل ....

فانتفضت فدوى واشتدت عزائمها ومالت بكليتها الى بخيت وامسكتهُ بيدهِ وهزتهُ وقد لاحت على وجهها امارات السرور قائلة اين ذهب اذًا قل حالاً

قال قد ذهب يا سيدتي في مهمة سرية الى الأبيض

فقالت وهل هو حيٌّ بعد

قال لا نعلم عسى ان يكون حياً

فاخذت فدوى تثب في ارض الغرفة كأنها اصيبت بجنة وهي

تقول حبيبي شفيق سندي فلذة كبدي هل انت حيٌّ بعد· قل يا بخيت قل عن الأبيض بيض الله وجهك ونصرك على عدوّك

قال بخيت قارعاً صدره آمين ان شاء الله وامسك فدوى بيدها واجلسها وقد اغرورقت عيناه بالدموع لما رأى من تلهف سيدته وقال اجلسي يا سيدتي فاحدثك فجلست وقص عليها الحكاية كما هي

فلما استوعبتها وتأملتها جيدًا قالت ما رأيك يا بخيت

قال الرأي اولاً ان اقتل هذا الخائن ثم اقول لك ماذا افعل

فقالت اقتله لا بارك الله فيهِ ولكن ···· وسكتت برهة

فقال بخيت لكن إيه·· انه مستوجب القتل حرقاً فلا درّ دره من خائن غادر

فقالت لا يا بخيت لا نقتله ان شفيقاً اوصى ان لا نقتله فهل نخالف الوصية

فوثب بخيت عن الارض وحملق بعينهِ وقال كيف لا نقتله وقد فرح بمقتل شفيق

قالت لا لم يفرح وانما ···

قال كيف لم يفرح وقد كتب اليك يوم سمع بمذبحة هيكس باشا يقول في جملة قولهِ من عاش بعد عدوّهِ يوماً فقد بلغ المنى

قالت ومتى كان ذلك وكيف فاخبرها

فسكتت برهة ثم قالت ان اخلاق شفيق لتأبى قتله مع ذلك واما الامر الجدير بالاهتمام فانما هو التفتيش عن شفيق واذا قدّر لنا الظفر بهِ فاني اصفح عن هذا الخائن اكراماً له

فقال لا بل نقتله ليذهب فداءً عنه

الفصل السبعون

واذا تألفت القلوب على الهوى   فالناس تضرب في حديد باردِ

وفيما هما في الحديث سمعا وقع اقدام فعرفا ان الباشا قادم وتظاهرا بالسكون فوصل الباشا مقطب الوجه فرأى ابنتهُ حمراء العينين فازداد غضبهُ فامر نجيناً ان يخرج خارجاً ففعل فنظر الى ابنتهِ شزرًا ولحيتهُ تنتفض في وجههِ ويداهُ ترتعشان حتى كادت السيكارة تقع من يدهِ من شدة التأثر قائلاً وما هي نهاية الامر معك يا فدوى اتريدين ان تلبسيني ثوب العار في هذه الديار

قالت حاشا يا سيدي لا البسك الله عارًا وكيف تقول هذا القول

قال اقولهُ لاني رأيت انك تريدين عصيان اوامري والانقياد الى الاهواء ومغازلة الاموات

فقالت لا تقل هذا يا ابتاه فانك بذلك تزيد اشجاني وتهيج احزاني وتسوّد قلبي

قال وماذا — الا تزالين راجية قيامة الاموات على هذه الارض

قالت ان آمالي لا تزال حية وان تكن الحياة فيها ضعيفة

فنهض عن الكرسي بغتة وصرخ باعلى صوتهِ قائلاً يا للعجب لهذه الآمال الكاذبة الا تصدقين انهُ مات حتى تريهِ رأي العين

فاجابتهُ وقد اغرورقت عيناها بالدموع قائلة لا تقل مات يا ابتاه بل قل انهُ حيٌّ يرزق باذن الله

فقال هل اذا قلت ذلك يقوم من بين الاموات

فقالت قد قلت لك ان آمالي لا تزال حية والله على كل شيء قدير وهب انهُ لا سمح الله غير حي فماذا تريد مني

قال اريد ان تطيعي اوامري

قالت اني رهينة كل اوامرك ما خلا ....

قال لا تقولي ما خلا .. ويظهر انك لا تزالين على غيك وعقوقك وليست هذه شيم من تربى تربيتك. فسكتت ولم تجبهُ واشتغلت بمسح دموعها بمنديلها فابتدرها هو بالكلام قائلاً وما رأيك الآن الا تزالين على ما انت عليهِ

قالت اني لا ازال ابنتك الحقيرة وروحي بيدك الأ.... فغضب الباشا وانتهرها قائلاً قلت لك دعينا من الاستثناءات وعليك بترك الحقد والتمسك بالاخلاص

فقالت ها اني قد اخلصت وهل تظن اني اريد بهذا الرجل سوءا حاشا لله ولكن ماذا يترتب على هذا الاخلاص

قال متى تأكدت اخلاصك اخبرك ماذا يترتب عليهِ في فرصة اخرى فانهضي الآن واغسلي وجهك وخففي روعك ودعي عنك الهواجس انها مجلبة للسقام. الى متى تعلقين آمالك بحبال الهواء واني لاعجب من هذا العناد بعد ان سمعت بإذنك عند ما سألنا شفيقاً عن مذهبهِ ووطنهِ فلم يقدر ان يحقق لنا ما اذا كان مسلماً او غير مسلم ولا ما اذا كان من الشام او مصر فافرضي انهُ حيٌّ فهو ليس من أمثالنا ولا

يجب ان نعلق بهِ آمالنا

فكان هذا القول في قلب فدوى كالسهام ولم يزدها الا ولعاً بشفيق ولكنها نهضت وغسلت وجهها وهي عالمة بما يضمر والدها وقد اغضت عنهُ اختصاراً للمقال وتخلصاً من القيل والقال واضمرت في باطن سرّها الاصرار على عزمها مهما حال دون ذلك من الاهوال

الفصل الحادي والسبعون

﴿ المانيتزم او النوم المغناطيسي ﴾

فلما رأى منها ذلك انبسط وجههُ ظاناً انها وافقتهُ وقد تجدَّدت آمالهُ بالاستيلاء على اموال عزيز وخرج اليهِ فاذا هو في انتظاره في غرفة الاستقبال فلما رآهُ وقف احتراماً لهُ ولما رآهُ منبسط الوجه استبشر بنيل مبتغاهُ ولكنهُ لم يفاتحهُ بشيءٍ

اما الباشا فلم يمكنهُ اخفاء عواطفه فقال يظهر انها لانت ولكنني لا اصدق مواعيدها لانها لا تزال تذكر ذلك الشاب

فقال عزيز مراوغاً لا يمكننا تعنيفها على ذلك لان محبتهُ تمكنت من قلبها وهو شاب قريب من القلب ولكن ما الحيلة فقد مات وعلينا ان نسعى الى تعزيتها وتسليتها عن محبتهِ لئلاَّ تضرَّ بصحتها

فقال الباشا لقد نطقت بالحق اذ لا فائدة من محبتهِ متى صار في عداد الاموات ولكني لا اعلم كيف ابغضهُ اليها

فقال عزيز لقد خطر لي الآن طريقة تريحنا جميعاً فهل اعرضها على سعادتك

قال قل ما بدا لك

قال قد قرأت في بعض المجلاَّت العلمية عن علم حديث يقال لهُ علم التنويم المغنطيسي وهو نوم اصطناعي يستخدمهُ بعض الاطباء اليوم ويقولون في منافعهِ اقوالاً غريبة فهم ينومون المريض باللمس والتكبيس ويزعمون انهُ اذا نام يسأَلونهُ عن مرضهِ فيشرح لهم حقيقتهُ وعلاجهُ شرحاً وافياً وقد قالوا ان النائم على هذهِ الكيفية يتنبأُ بالغيب ويكتشف المجهولات وهم لا يؤكدون ذلك وانما يؤَكدون خاصة أُخرى لا شك فيها وهي ان المنوِّم يتسلط على ارادة المنوَّم تسلطاً مطلقاً حتى كأَنهُ عضو من اعضائهِ يعمل ما يأْمرهُ بهِ فاذا نوَّم شخص شخصاً وقال لهُ وهو نائم اذا صحوت فابغض فلاناً وأَحب فلاناً فعل ولو كان يحب ذاك محبة شديدة ويبغض هذا بغضاً شديدًا وهو لا يعلم السبب ولا يدرك ان ذلك التغيير انما كان بطريق التنويم

فتعجب الباشا لذلك وقال أَحقيق هذا يا عزيز ومن هم المنوّمون

قال هذا امر لا شك فيهِ واما المنوّمون فهم في الغالب من الاطباء وقد قل من يستطيع التنويم من اطبائنا لانهُ فنٌّ حديث قلما تعاطاهُ ابناء هذهِ البلاد اما في بلاد الافرنج فهو كثير الانتشار

قال وهل يخضع كل انسان لسلطان المنوّم قال لا وانما النساء اكثر قبولاً لهُ من الرجال والعصبيات اكثر من سواهنَّ

قال الباشا فتكون فدوى اذًا من اقبلهنَّ لهُ وهذهِ وسيلة تكفينا

مؤونة المشقة و ياليتنا عرفناها قبل الآن ولكن على من نعتمد في التنويم هنا

قال قلت لك ان الذين يعرفونهُ قليلون ولكن يمكننا سؤال الاطباء الماهرين عنهُ

فلاح للباشا ان الدكتور ن افضل الجميع لذلك فقال لعزيز ان طبيباً من اشهر اطباء هذهِ المدينة قد عرفتهُ واحببتهُ واظنهُ اعرف من الجميع بهذهِ الامور

قال عزيز ومن هو

قال الدكتور ن الشهير

فعرف عزيز ان هذا الرجل تمنعهُ استقامتهُ عن استخدام التنويم لعلمهِ ان استخدامهُ لهذهِ الغاية ممنوع شرعاً وعرفاً لما يتأتى عنهُ من الاضرار فقال ان هذا الطبيب على شهرتهِ لا يستطيع التنويم لانهُ شيخ طاعن في السنّ ولا بد للمنوّم من ان يكون شاباً قويّ البنية لكي يمكنهُ التسلط على المنوّم فاذا شئت مرني فأُدبر طبيباً يكون وافياً بالمطلوب

قال الباشا فافعل

فسرَّ عزيز لنجاح مسعاهُ واخذ يفكّر فيمن يوافقهُ على هذهِ الفعلة الشنعاء ثم نهض مستأذناً ليذهب ويأتي بأمتعتهِ الى ذلك الفندق فأذن لهُ وبقي الباشا وهو ليس اقل فرحاً بهذا الاكتشاف من عزيز

الفصل الثاني والسبعون

سفير الهوى

اما فدوى فلبثت بعد خروج والدها تفكر في امرها وتدبر وسيلة لنجاتها فدخل عليها بخيت فاخبرته بما تم لها مع والدها فكاد يتميز غيظاً وقال لها ما لنا ولهم انك ما دمت محافظة على عهود شفيق لا اخاف عليك شرّاً باذن الله واما شفيق فقد دبرت وسيلة للتفتيش عنه

فقالت وكيف ذلك

قال اني اتفقت مع عبود الطباخ ان يذهب الى السودان ويأتينا بالخبر اليقين باسرع ما يمكن من الوقت ودفعت اليه شيئاً من النقود سلفاً ولم اخبره كنه الامر ولكني قلت له اني ساعطيه كتاباً يوصله اليه حيثما يراه

قالت ولكن اين يفتش عنه ان السودان بلاد واسعة

قال نعم ولكن مركزها مدينة الخرطوم التي قد ذهب اليها غوردون باشا مؤخراً لانجاز مسألة السودان فمتى وصل اليها عبود يستطيع منها الخبر

قالت لقد احسنت السياسة بورك فيك

اما عبود فكان قد عثر على صورة شفيق في مكان فحفظها عنده ليتذكر بها سيده فلما طلب اليه بخيت الذهاب في تلك المهمة استبشر بالفوز واخذ يعد معدات السفر ولكنه الحّ على صاحب الفندق ان

يبيع الدبوس لبخيت فباعهُ اياهُ بمضاعف ثمنهِ واكرم بخيت عبوداً بمال كثير فخيل لهُ ان نجم سعدهِ قد تسلط ونجوم نحسهِ قد ادبرت ولبث في بيروت بضعة ايام ينتظر اعداد الكتاب الى شفيق

اما فدوى فكتبت الى شفيق كتاباً هذا نصهُ

يا شقيق الروح ومنى القلب

اكتب اليك هذا الكتاب من بيروت غير عالمة بمحط رحالك ولا ما اذا كانت الاقدار تعدُّ لي اياماً انسى بها ما قاساهُ هذا القلب من العناء وما عانيتهُ في حبك من المشاق فهل تسمح لي الايام برؤيتك بعد طول الغربة · وكنت قد يئست من بقائك (وا لهفاه) في عالم الاحياء حتى ظفرت بناقل هذا اليك فقص عليَّ قصة جددت آمالي واحيت ما بقي فيَّ من رمق الرجاء فاذا تحقق لي هذا الامل فلا يكون على وجه هذه البسيطة اكثر سعادة مني واما اذا ذهبت مساعيَّ ادراج الرياح فلا البث ان اعلم بفشلهِ حتى الحق بك عاجلاً اذ ان ذلك خير لي من معاناة الوجد الذي كاد يذهب برشدي بعد ان ذهب بصحتي واتخلص من شر هو اعظم ما أتخوَّفهُ ذلك اني اخشى الوقوع فيما نصبهُ لي ذاك الذي لم ترضَ الاجهاز عليهِ فتركتهُ لي عثرة وشركاً يتبعني حيثما توجهت وينصب لي الشراك حتى اوغر قلب والدي عليَّ ولا ادري ما الذي سلطهُ على قلب ذلك الوالد حتى جاء يتهددني في سلواك ويشير عليَّ باستبدالك بمن لو خيِّرتُ ما اخترت غير الموت على رؤيتهِ

فاذا وصل اليك كتابي بادر الى انقاذي من مخالب الموت والعار هذا اذا لم يدركني المحظور قبل وصولك والسلام

كُتب في فندق بسُّول ببيروت غرة مايو سنة ١٨٨٤ الداعيـــة الباقية على عهدك

فدوى

ثم ختمت الكتاب وبعثت بهِ مع بخيت فسلمهُ الى عبود واوصاه بالاسراع فاسعتفى هذا من الفندق وسار في باخرة قصدًا الديار المصرية ليسير منها على النيل الى الخرطوم لعلمهِ ان طريق سواكن لم يعد يمكنهُ سلوكها لاستفحال امر عثمان دقنا فيها فوصل القاهرة في شهر مايو سنة ٨٤ فركب القطار الى اسيوط ومن هناك اكترى جملاً سريع الجري وسار على البرّ الغربي في عطمور الاربعين قاصدًا دنقلا ومديرها يومئذ مصطفى بك ياور فوصلها في اواخر يونيو (حزيران) فاذا باهل المدينة في هرج ومرج واستعداد الى حرب فسأل عن السبب فقيل لهُ انهم سائرون لمقاتلة الدراويش في الدّبة وكان عبود يظن ان الطريق الى الخرطوم آمنة فلما سمع الخبر وقع في حيرة. ثم اخذ يطوف في الاسواق لتحقق الامر فدخل وكالة شاهد فيها بعضاً من التجار السوريين فتقرَّب من احدهم واستطلعهُ كنه الخبر فاكد لهُ اياهُ واخبرهُ ان الطريق من هناك الى الخرطوم لا يستطيع رجل او جماعة قليلة ان يقطعها لان الدراويش قد انتشروا فيها والخرطوم في حصار شديد. فارتبك في امره فقال لهُ التاجر وما غرضك من الخرطوم قال اني افتش عن سيدي

هناك قال لا يمكنك الوصول اليهِ كما هي ولا سيما اذا لم تفز رجالنا بقتال العصاة اما اذا فازوا فقد تنفتح الطريق واملي ان مصطفى بك يقوى على أولئك لانهُ رجل من الاولياء الانقياء اذا أُطلق عليهِ الرصاص لا يخترق لحمهُ واذا سار الى حرب فلا يستصحب من السلاح الا حربة قصيرة في يد والسبحة في اليد الاخرى ولا يكفُّ عن الصلاة والدعاء ما طالت المعركة

وفيما هما في الحديث اذا بجماعات الجند يسيرون فعلم انهم يريدون الدَّبة ورأى وراءهم فارساً نحيف الجسم قصير القامة عليهِ الجبة والقفطان وفي ركبهِ جماعة من الحشم فسأل عنهُ فقيل لهُ انهُ المدير ذاهب في رجالهِ لمقاتلة العصاة

فالتفت عبود الى صديقهِ التاجر قائلاً وما رأيك الآن قال الرأي عندي ان نلبث هنا لنرى ماذا يكون من اخبار الحرب واني ادعوك الى منزلي لتقيم عندي الليلة وما بعدها حتى تعلم ماذا يتم فامتدح عبود تلك الشهامة واستأنس بذلك التاجر لانهُ ابن وطنهِ وكان قد هاجر الى دنقلا مع والدهِ صغيرًا واما التاجر فكان اكثر استئناساً بهِ

فسارا بهِ الى بيتهِ وعبود ينقم على ذلك التأخر خوفاً من حبوط مسعاه فلما وصلا المنزل اذا بهِ بيت حقير مبني بالطين بابهُ صغير لا يدخلهُ الانسان الاَّ ساجدًا فبات تلك الليلة بعد ان تناول العشاء وهو يفكر في امرهِ واصبح وهو في شاغل وبعد مضي بضعة ايام وصلت الاخبار بانتصار المدير على العصاة فظن ذلك الانتصار كافياً لاخماد الثورة وفتح

الطريق وحملتهُ العجلة على ان يسرع الى المسير في اقرب الطرق الى الخرطوم واستشار صديقهُ فاشار عليهِ ان يتربص قليلاً وقال لهُ « قد بلغني ان الحكومة الانكليزية اقرت على ارسال حملة الى الخرطوم لانقاذ غوردون وستمر بدنقلا فتسير برفقتها » فاجاب عبود انهُ لا يستطيع صبرًا فقال لهُ اذا كان لا بد من سفرك فاقرب طرق الخرطوم من هنا طريق في الصحراء جنوباً ماؤُها قليل فقال لا بأس اني اسير فيها . فاستحضر لهُ خبيرًا يرافقهُ فجعل عبود ثيابهُ واوراقهُ كلها في حصير صغير صنع السودان يقال لهُ برش ولف البرش عليها وربطهُ وشدهُ الى رحل الجمل وركب وسار مع خبيرهِ ولكنهُ لم يكد يبعد عن دنقلا مسيرة يوم حتى ادركهُ جماعة من العرب سلبوهُ ثيابهُ وكل متاعهِ ولم ينج من الموت الاَّ بالجهد فعاد الى دنقلا وقد فقد الرسم والكتاب في جملة الامتعة فاخذ يندب سوء حظه وقد ندم على ما فعل لانهُ لم يصغِ الى رأي صديقهِ فلما عاد اليهِ عنفهُ على عملهِ واشار عليهِ ان يتربص الى مجيء الحملة فيسير برفقتها

الفصل الثالث والسبعون

﴿ مسير الدراويش الى الخرطوم ﴾

فلنترك صاحبنا عبودًا في انتظار الحملة ولنعد الى شفيق في الأُبيض حيث تركناهُ ينتظر الفرج من عند الله فلبث حتى اذا كان ذات صباح

علم ان المهدي امر باستعراض جيشهِ استعراضاً عاماً

وفي صباح الغد حضر الجميع الى ساحة متسعة خارج البلدة حيث استعرضت الجنود ثم جاء المهدي وخلفاؤُهُ وامراؤُهُ فوقف المهدي بعد الصلاة للخطبة في الجماهير فسأَل شفيق حسناً عن سبب هذا الجهاد فقال ان الحملة سائرة لمحاصرة الخرطوم فلما انتصب المهدي للخطابة صمت الناس واطرقوا اصغاء لقول زعيمهم

فافتتح كلامهُ بالفاتحة ثم اخذ يستحث الناس على الجهاد ويغريهم بالقتل والاستشهاد ولما اتمَّ خطبتهُ اخذ الدراويش في الدعاء والتكبير وقد هاجت عواطفهم واصبحوا لا يخافون الموت

ولما انتهى الاستعراض وبلّغت الاوامر بالسفر الى جهات الخرطوم لنصرة الدراويش المحاصرين لها وتشديد الحصار عليها عاد المهدي الى مجلسهِ بعد ان وكل قيادة الحملة الى الامير ولد النجومي على ان يتولَّى القيادة العامة لجنود المهدي التي هناك بعد وصولهِ الى جهات الخرطوم وكان من قوّاد المهدي في حصار الخرطوم الامراء ابو جرجه وولد البصير حمد المهدي والامير الفضل والامير عبد القادر ولد ام مريم والامير مصطفى بن الفقي الامين وشيخ الأُبيض وغيرهم وجميع هؤلاء تحت قياة ولد النجومي

اما شفيق فاجتمع برفيقهِ حسن وسأَلهُ عما سيكون من امرهِ فقال انك ذاهب برفقة هذه الحملة الى حصار الخرطوم وهذا ولد النجومي رئيس الحملة سيسافر بعد غد فتسير انت بصحبتهِ كاحد الكتبة

فقال شفيق وكم عدد هذه الحملة المسافرة قال عشرون الفاً فقال وهل هذه هي القوة التي ستحاصر الخرطوم فقال حسن اعلم يا اخي ان معظم الدراويش الآن محيطون بالخرطوم وام درمان وقد بدأُوا بحصارها منذ عودنا من محاربة هيكس اي قبل ان يأتي غوردون الى السودان ولكن المهدي اراد تعزيز القوّة المحاصرة حتى يضايقوا المدينة ويأْخذوها بالتسليم جوعاً وغوردون فيها

فقال شفيق وهل انت ذاهب معنا الى هناك قال لا لان الاوامر لم تصدر الي بذلك بعد وياحبذا لو اتيح لي الذهاب معك واني اهنئك بهذا السفر لانك ستكون قريباً من بلادك وربما اتيح لك الخروج من معسكر الدراويش ودخول الخرطوم فتدخل في حوزة الحكومة المصرية وتتخلص من هذه المرقعية

ففرح شفيق بذلك ورأى باباً للفرج وذهب الى حجرتهِ واخذ في الاستعداد لطريقة يتخلص بها من هذه العبودية ثم سافرت الحملة بعد الغد يتقدمها النقارات والفرسان وفيهم الامراء ثم المشاة وجميعهم في لباس الدراويش المتقدم ذكره ووراء الجميع النساء والاولاد وكان شفيق قد اعتاد طعام الدراويش اما طعام السفر فقاصر على الذرة اليابسة فكل رجل يحمل جراباً فيهِ قدر من الذرة كلما جاع اكل منهُ شيئاً وقل بينهم من يحمل سقاءً ولو كان طريقهم في الصحراء لانهم يصبرون على العطش . واما شفيق فلم يكن كذلك فقاسى في سفرهِ هذا عذاباً اليماً من العطش والجوع . وكان قد ودع صديقهُ حسناً يوم خروجهم من الأُبيض

فلما ابعدوا عنها اياماً اشتاق اليهِ والى مجالستهِ لانهُ كان تعزية كبيرة لهُ في تلك الديار وما زالت الحملة سائرة في البر تمر تارة بصحراء وطوراً بغابات واخرى في جبال حتى وصلوا الى جوار الخرطوم فبعث ولد النجومي الاخبار الى رجال المهدي في الجهات المجاورة فاخذوا في الاجتماع من سائر النواحي حتى زاد عددهم على مئة الف ففرقهم ولد النجومي فرقاً وارسل كل فرقة الى مركز في جوار الخرطوم

الفصل الرابع والسبعون

﴿ حصار الخرطوم ومجيء الانكليز ﴾

موقع الخرطوم عند نقطة اجتماع البحرين الازرق والابيض اللذين يتكوَّن منهما النيل وبين ملتقى هذين البحرين والنيل جزيرة مثلثة يقال لها جزيرة توتي فالخرطوم واقعة على مقابل ضلع المثلث الجنوبية يحدها من الشمال النيل الفاصل بينها وبين الجزيرة والبر الآخر ومن الغرب البحر الابيض ومن الجنوب البر وعليهِ سور موصل بين البحرين بحيث اصبحت الخرطوم محصنة من جهتين بالنيل ومن الثالثة بالسور وكان شفيق قد شاهد هذا السور لما مرَّ بالخرطوم المرة الماضية ولكنهُ علم عند وصولهِ هذه المرة انهم حفروا حولهُ خندقاً كبيراً في غيابهِ حتى اصبح منيعاً والسور المشار اليهِ قائم على مسافة من المدينة بحيث يكون بينهُ وبينها خلاء

فلما وصلت قوات ولد النجومي الى جوار الخرطوم شدد عليها الحصار فبعث فرقاً من رجالهِ الى البر المقابل لها من الشمال وفرقاً الى البر الآخر المقابل لها في الغرب وبقي هو في فرقتهِ وراء السور بالقرب من محلة يقال لها كلاكلا وشددوا الحصار على الخرطوم وعلى ام درمان على البر الغربي مقابل الخرطوم حتى اصبح غوردون واهل الخرطوم في ضيق عظيم وقد لبسوا لباس الجوع والخوف

اما شفيق فكان يستطلع احوال اهل الخرطوم فعلم انهم في ضيق وانهم ينتظرون نجدة من انكلترا لانقاذهم فمضى الشهر والشهران والثلاثة ولم تأتِ تلك النجدة حتى اصبح اهل الخرطوم في يأس وامسى شفيق قليل الرغبة في الفرار الى الخرطوم خوفاً من ان يفر من بلاء فيقع في اعظم منهُ فانهُ اذا دخل الخرطوم فلا يقدر على شيء ينفعها بهِ ولكنهُ يجعل نفسهُ عرضة للقتل اذا ظفر المهدي بالمدينة وهو الظافر بها اذا لم تسرع الحملة الانكليزية بالمجيء فوقع في حيرة لا يدري أيسير الى الخرطوم ويعرض نفسهُ للخطر والجوع ام يبقى مع الدراويش ويحارب حكومتهُ واخوانهُ

وبعد قليل جاء المهدي من الأُبيض وانضمَّ الى جنودهِ في الخرطوم فاصبحت قوَّة المهدويين عظيمة حتى لم يعد عند شفيق ريب بسقوط المدينة اذا لم تأتِ الانكليز لنجدتها وعليهِ نزع من فكرهِ امر الفرار في الاحوال الحاضرة ولكنهُ أَحب مشورة صديقهِ حسن وكان قد جاء الى هناك فقال لهُ ما رأيك بالفرار الى الخرطوم فضحك حسن

قائلاً والله لو آنست من الفرار نفعاً لكنت اول الفارّين ولكنني اؤكد لك ان الخرطوم لا تستطيع المقاومة طويلاً لانها في ضيق من قلة المون كما قد علمت واذا كان الانكليز لم تأت اخبارهم بالمجيء حتى الآن فلم يعد يرجى منهم مساعدة فالخرطوم لا تلبث ان تسقط في ايدي جماعتنا فالافضل ان تكظم ما بك لنرى ماذا يأتي بهِ الغد

فصبر شفيق نفسهُ منتظرًا باباً للفرج وفيما هو جالس يوماً يفكر جاءهُ حسن ضاحكاً وقال لهُ ما الذي يهمك الآن في هذه الغربة قال يهمني ان اعرف ما جرى باهلي الا تظن وقت رجوع الجواب من القاهرة قد آن قال حسن بلى وهذا هو الرسول قد عاد فاسأَلهُ عما تشاء فلما خلا بهِ قال الرسول اني سأَلت في قنصلاتو انكلترا عن والدكم فلم ينبئني عنهُ منبئ وانما علمت انهُ باع امتعتهُ وفرشهُ وهاجر الديار المصرية ولا يعلمون الى اين توجه فلم استطع تسليم الكتاب اليهِ فذهبت الى بيت الباشا فقيل لي انهُ في بر الشام فوجدت امرأتهُ في البيت فدفعت اليها الكتاب ولم تعطني جواباً فاخذ شفيق يندب نفسهُ ويبكي وهو قلق على والديهِ وعلى فدوى لا يدري مقرهم

واخبرهم الرسول ان الحكومة الانكليزية اعدت حملة تبعث بها لانقاذ غوردون باشا والخرطوم فسرَّهُ مجيء الحملة واستبشر ولكن الكدر غلب عليهِ على انهُ تجلد وعاد الى حسن وشكرهُ على تلك المنة واعطى الرسول اجرتهُ فالتفت اليهِ حسن قائلاً ما وراءك يا شفيق قال ان ورائي خبرًا يسرك وخبرًا يسوءني قال قل ماذا عسى ان

يكون ذلك قل اقولهُ لك على شرط ان تحفظهُ سرًّا لانهُ لم يبلغ احدًا غيري في جميع السودان حتى ولا غوردون نفسهُ فقال حسن انك يا اخي ماسٌّ صدق اخلاصي لك وهل تعهد بي غير الاخلاص قال لا ولذلك اخبرك ان الجنود الانكليزية قد خرجت من مصر قادمة على النيل لانقاذ الخرطوم فما ترى

فبهت حسن وصرخ قائلاً هل ذلك صحيح قال نعم ونحمد الله ان وقت النجاة قد دنا فما العمل قال شفيق لم يعد لي صبر على الذهاب الى الخرطوم فقال حسن ولكن تمهل يا اخي ان في التأني السلامة وفي العجلة الندامة

فقال شفيق اتخاف بعد الآن والانكليز قادمون لانقاذنا ونحن نعلم ان المهدي نفسهُ يقر بعدم استطاعتهِ التغلب على الخرطوم اذا وصلها الانكليز فالرأي ان نفر الى الخرطوم ونلتجئ الى غوردون لعلنا نفيدهُ في شيءٍ فقال لهُ حسن اما انا فلا استصوب العجلة في هذا الامر

قال شفيق اما انا فالارجح انني اخرج من هذا المعسكر الى الخرطوم في هذين اليومين فلم يوافقهُ حسن على ذلك ثم رأى الاصوب ان يتربص بضعة ايام

الفصل الخامس والسبعون

﴿ مجيء الانكليز لانقاذ غوردون ﴾

وبعد يسير علم المهدي بوصول الحملة الى كورتي واهتمامها بالقدوم في صحراء البيوضة الى المتمة وشندي ومنها الى الخرطوم فبعث من رجاله حملة تحت قيادة موسى ود حلو وابي صافيه لتقطع عليهم الطريق عند آبار ابي طليح وراء المتمة بمسافة يوم حتى يمنعوهم من الوصول الى النيل فبلغ ذلك شفيقاً فسر وابتهج لتحقق امر الحملة ومجيئها ولكنهُ تربص ليعلم ماذا يكون من امر الملتقى بين الفريقين هناك ليتحقق لديهِ ظنهُ

فلما كان يوم عشرين يناير سمع اطلاق المدافع في معسكر المهدي فتعجب اذ لم يكن يعلم بما يوجب ذلك لانهم بعيدون من الخرطوم والدراويش ليسوا في حال حربية فسار الى صديقهِ حسن وفيما هو في الطريق اليهِ مرَّ بجماعات من الدراويش يتعجبون من امر ينظرون اليهِ فتقدم اليهم فاذا بجماعة منهم في ايديهم برانيط انكليزية وآخرون يقلبون قطعاً اخرى من ثياب الانكليز وآخرون غير ذلك من اسلابهم فاوجس خيفة حتى كاد يتحقق لديهِ ان المهدويين فازوا بالانكليز وجاؤوا باسلابهم فلما وصل الى صديقهِ سألهُ عن السبب فقال لهُ ان صاحبنا المهدي علم بانكسار رجالهِ في ابي طليح والمتمة فاراد ان يوهم من معهُ خلاف ذلك فامر باطلاق مئة مدفع ومدفع وهي علامة النصر ايهاماً لرجالهِ ان رفاقهم في ابي طليح فائزون واما هذه الاسلاب فلا عبرة بها اذ قد يترك

الانكليزي كل ثيابهِ في ساحة الحرب ولا يبالي

فقال شفيق وما قولك بعد هذا يا حسن قال اني صرت مائلاً الى رأيك ولكنني سمعت ان المهدي جمع خلفاءهُ والمقربين من الامراء في هذا الصباح للشورى وفي المساء نعلم ماذا يكون من اجتماعهم

قال شفيق كيف يمكنك ان تعرف ذلك اذا كانت الشورى سرية

قال ان لي بينهم صديقاً حميماً لا يخفي عني شيئاً فاذا اتيتني في صباح الغد اخبرك بماذا يتم فقال شفيق حسناً ومضى

وفي الصباح التالي جاء شفيق وقد صمم في باطن سرهِ على الفرار من معسكر المهدي الى الخرطوم فلما التقى بصديقهِ استطلعهُ الخبر فقال لهُ اجلس لاخبرك بما تم في اجتماع امس

فجلس شفيق وجلس حسن بجانبهِ يقص عليهِ قال

« اجتمع المهدي امس بخلفائهِ المعلومين وبالمقربين من رجالهِ ولما استتب بهم الجلوس قرأوا الفاتحة ثم قال لهم المهدي « جاءتني الحضرة في الليل العابر وقد جمعتكم لاقص عليكم ما قالهُ لي (صلعم) فقد امرني بالهجرة الى الابيض لان الانكليز قوم لا نقوى على قتالهم فاذا كان غوردون وهو فرد منهم قد دافعنا شهوراً فكم يفعل الآلاف منهم وقد ظفروا برجالنا المحنكين في ابي طليح افلا يستطيعون غلبتنا فماذا ترون» فوافقهُ الجميع في رأيهِ الاَّ الامير محمد عبد الكريم فانهُ اعترض على الهجرة قائلاً اننا نهاجم الخرطوم مهاجمة اليأس فان ظفرنا بها فلا يعود الانكليز ولا غيرهم يستطيعون الوقوف امامنا واذا ظفروا بنا فان الهجرة مستدركة لا تفر

من امامنا » وارفضّ المجلس مرجحين رأي عبد الكريم على ان يعودوا الى الاجتماع مرة اخرى »

فقال شفيق ها قد تحققنا حبوط مسعى المهدي ولم يعد لدينا ما يمنع انحيازنا الى حامية الخرطوم

فقال حسن ان لديَّ موانع تحول دون مرافقتي اياك واما انت فسر بحراسة الله فانك تلاقي صدورًا مفتوحة واذا قدر لنا الاجتماع ثانية فانا لا نفترق بعد ذلك باذن الله

الفصل السادس والسبعون

الخرطوم اثناء الحصار

فلما كانت الشمس في الهاجرة وقد اجتمع الجميع الى الصلاة ولَّى شفيق وجههُ الخرطوم وسار يريد باب المسلمية من ابواب السور فلما بعد عن معسكر المهدي رفع عصا عليها منديل ابيض فلما رآهُ حامية الخرطوم من السور علموا انهُ آتٍ مسالمًا فتحوا لهُ الباب فانذهل لما شاهد من متانة ذلك السور وعمق خندقهِ وكانوا قد حفروه اثناء غيابهِ وعرضهُ نحو ١٧ مترًا وعمقهُ عشرة امتار فقال في نفسهِ ان مثل هذهِ الحصون لا يمكن ان تتخطاها العربان. وسار به الحرس الى فرج باشا قومندان الحصون وكان اسود اللون طويل القامة فلما رأى شفيقاً في لباس الدراويش سألهُ عن امرهِ فقال انهُ يريد مواجهة غوردون باشا فاخذهُ وسار بهِ

الى المدينة وبين السور والمدينة خلاء والسور يشبه قوس دائرة محيطاً بجانب من المدينة ينتهي طرفهُ الواحد في البحر الازرق والآخر في البحر الابيض طولهُ زهاء ستة اميال وبينهُ وبين المدينة ميلان او اكثر . فساروا بشفيق شرقاً قاصدين سراي الحكومة على البحر الازرق حيث يقيم غوردون فنظر شفيق الى جانبيهِ عند دخولهِ السور فاذا بالجنود متفرقة جماعات واسلحتهم منصوبة ثلاثاً ورباعاً على طول ذلك السور والرجال بين متوسد خائر القوى وضائرين جوعاً وقد علت وجوههم علامات الضعف واليأس فلما رأوا شفيقاً استبشروا بقدومهِ ظناً منهم انهُ انما جاء لمخابرة سرّية ربما كان فيها خير لانهم كانوا يزعمون ان المهدي بعد ان علم بمجيء الجنود الانكليزية اصبح راغباً في الصلح و التسليم ولكنهم كانوا في ريب من امر المدافع التي اطلقت الليلة الماضية لعلمهم ان مثل ذلك العدد من المدافع لا يطلق الاَّ لانتصار فتقاطر جماعة منهم ينظرون الى شفيق وهم بين سوداني وباشبوزوق وجندي مصري وغير ذلك فرأوا على وجههِ امارات البشر وانهُ ليس على شاكلة رجال المهدي الاَّ بلباسهِ فاحبوا للحال ان يسألوهُ عن امره فانتهرهم الضابط السائر بصحبتهِ وامرهم ان يرجعوا وكانوا قد وصلوا القشلاق في وسط تلك الساحة فدخل بعضهم القشلاق وعاد البعض الآخر الى السور . اما شفيق فما زال سائراً حتى دخل المدينة فاذا بها قليلة الناس لتقلد اهلها السلاح واشتراكهم في الدفاع ولم يرَ اسواقاً مفتوحة ولا احداً مارًّا فيها ما خلا بعض الفقراء المطروحين في الشوارع يتضورون جوعاً في حال النزاع هذا يئن وحولهُ اطفالهُ

يكونهُ وامرأتهُ تلطم وجهها وتندب حظها وهي لا تستطيع النهوض لشدة الضعف· وشاهد في يد بعضهم (عرناس) ذرة مجردًا من الحب يحافظ عليهِ محافظتهُ على اعز ما عندهُ وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار لئلا يختطفهُ احد من يدهِ فلما رأى شفيقاً بلباس الدراويش والخفر الى جانبهِ نظر اليهِ منادياً « اما تخافون الله وانتم مسلمون ان تضايقونا هذه المضائقة وتمنعونا من المؤن فاذا كان صاحبكم هذا مهدياً فكيف يستحل دم المسلمين » · فضحك شفيق ولم يجب ببنت شفة ولكن قلبهُ كاد يقطر دماً لما عاينهُ في تلك المدينة من الضيق وخاف ان يتهوَّر بعض اهلها لضيقهِ فيرميه ببندقة او سهم فلازم الخفر

فلما جاؤُا السراي سألوا الخفر عند الباب عن الحكمدار فقيل لهم انهُ سار لتفقد قلعة بوري عند الطرف الشرقي للسور وانهُ ربما يسير من هناك على محاذاة السور لتفقد حاميتهِ ثم ينعكف الى الغرب لتفقد قلعة موكران على ضفة النيل غربي المدينة· فاضطر شفيق الى الانتظار هناك ريثما يعود ولكنهُ سأل عن وقت عودتهِ بالتقريب فقيل لهُ انهُ يكون هنا نحو الغروب لان اعيان المدينة سيجتمعون اليهِ الليلة · فقال شفيق اذًا انتظرهُ حتى يعود فسلمهُ الخفر الى خفر السراي فادخلوهُ الى غرفة جلس فيها ينتظر عود غوردون وهو يفكر بالحالة التي وصلت اليها حامية تلك المدينة ويعجب لتأخر الحملة الانكليزية الى ذلك الوقت ولكنهُ قال في نفسه ان الذين احتملوا الحصار ... لا يصعب عليهم حملهُ اياماً قليلة · وكان ينتظر الفرج القريب لانهُ علم ان جيش المهدي خائف

من الانكليز وعوّل ان يطلع غوردون على مقاصد المهدي . ثم تصوّر انهُ نجا من تلك الاخطار وعاد الى القاهرة فاضطرب فؤادهُ لتذكرهِ خبر الرسول بسفر فدوى الى بر الشام لتغيير الهواء فخطر رسمها في بالهِ فمد يدهُ الى جيبهِ ليستخرجهُ فسمع وقع اقدام كثيرة ولغطاً فاصاخ اذنيهِ فاذا بجماعة يسأَلون عن غوردون باشا بعضهم يتكلم العربية وبعضهم الفرنساوية وبعضهم لغات اخرى فدنا الى نافذة تشرف على صحن السراي فاذا بجماعة من الاعيان على معظمهم اللباس الافرنجي فتأملهم جيداً فعرف اكثرهم وفي جملتهم المستر بوَر مكاتب جريدة التيمس وكان قد جاء بصحبة حملة هيكس وبقي في الخرطوم بعد مسير الحملة والمدير احمد بك علي ياالله ونيقولا ليونتيدس قنصل دولة اليونان وابراهيم بك فوزي وفتحالله جهامي احد التجار السوريين وكان قد تقلد مصلحة النقل والحمل والدكتور نقولا بك مفتش صحة السودان العام وغير هؤلاء ممن لم يعرفهم وسمعهم يتضجرون من تلك الحالة ويتذمرون فيما بينهم من ابطاء الحملة الانكليزية في الوصول اليهم فعلم من مجمل حديثهم انهم آتون للمفاوضة في وسيلة يتصلون بها الى نتيجة نهائية

وفيما هو ينظر اليهم اذ جاءهم رجل في لباس رسمي علم من ملامح وجههِ انهُ يوناني النزعة وتأكد بعد ذلك انهُ جرياجس بك باشكاتب غوردون فاستقبل هؤلاء الاعيان وقادهم الى القاعة ينتظرون قدوم الباشا

الفصل السابع والسبعون

﴿ غوردون باشا واهل الخرطوم ﴾

فلبث شفيق في ذلك المخفر حتى كان الغروب فسمع وقع اقدام افراس فعلم ان غوردون قد عاد ثم لحظهُ مارًّا في صحن السراي مطرقاً عابساً لا يلتفت يمنة ولا يسرة وقد اراد الصعود الى القاعة فابتدرهُ شفيق وخاطبهُ بالانكليزية فالتفت بغتة فلم يرَ احداً في لباس الانكليز فناداهُ ثانية فنظر اليهِ فلم يتحقق صورتهُ لان الظلمة كانت قد سدلت نقاباً رفيعاً فقال لهُ من انت قال اني من ضباط الجيش الانكليزي فاختلج قلب غوردون لان لفظ «الجيش الانكليزي» كان نصب عينيهِ ليلاً ونهارًا وقد اقلق افكارهُ وملَّ من انتظار مجيئهِ فتقدم الى النافذة وامر بالنور فجيء بهِ اليهِ فتأمل الرجل فاذا هو بلباس الدراويش ولكن صورتهُ غير سودانية فامر باخراجهِ وان يلحق بهِ فسار الاثنان فلما دخلا القاعة وقف الحضور احتراماً فجلس غوردون وجلس الجميع وليس فيهم وجه باسم وهم ينظرون الى شفيق ولباسهِ

فابتدرهم غوردون بالخطاب قائلاً لا تعجبوا لهذا الرجل ولباسهِ فانهُ حملٌ في ثياب الذئاب فنزع شفيق العمامة والطاقية عن رأسهِ فبان من تحتها انهُ ليس درويشاً

فقال لهُ غوردون ما اسمك وما الذي جاء بك الى هنا قال اسمي شفيق وقد جاء بي الى هنا بواعث الاقدار واحكي لهم الحكاية من اولها

الى آخرها فلما وصل الى المدافع التي اطلقها العصاة وما دار بين المهدي وامرائهِ رفس غوردون الارض برجلهِ والتفت الى من حولهُ من الجلوس قائلاً الم اقل لكم يا سادتي انهم لم يقصدوا بتلك المدافع الاّ ايهام رجالهم خلاف الواقع تشجيعاً لهم وقد عرفت ذلك من الامرأة التي كنت ارسلها لاستطلاع اخبارهم فها ان الانكليز منتصرون وعما قليل يكونون هنا

فانقشع عن وجه الجلوس بعض العبوسة واخذوا ينظرون الى شفيق نظرهم الى رجل جاءهم رحمة وجعلوا يسأَلونهُ عن حركات المهدي وقواتهِ فاخبرهم بكل شيءٍ الى ان قال اما هؤلاء العربان فعلى جانب عظيم من البسالة والاقدام لا يبالون بالموت وهم متعاقدو الايدي مرتبطو القلوب لا شيء يثنيهم عن القتال واذا قال المهدي فانهم ينزلون كلامهُ منزلة الوحي ولا سيما اذا ادّعى الحضرة كما اخبرتكم الآن اما اذا صبرتم على دفاعهِ فانهُ لا يقوى عليكم لانكم تعلمون مما قدمتُ انهُ في خوف واذا لاقى مقاومة شديدة يخور عزمهُ ويعود على اعقابه الى الأبيض

فقال قنصل اليونان من لنا بالدفاع ولكن من اين لنا ذلك واهل المدينة ينطرحون في الاسواق عشرات يتضورون جوعاوهل نلومهم اذا ارادوا الخروج الى العدوّ فان الحامية نفسها لا مؤونة عندها على ما سمعت

فقال فتحالله جهامي ناظر يا سعادة الباشا اننا لم نسمع بحصار مثل هذا الحصار ولم نفهم ما معنى هذا الابطاء أيحلُّ في قضاء الله ان نكون

في مثل هذهِ الحال من الضنك والخطر ونجدتنا تأْتي الينا ماشية مشي العروس فلا يأْتي الدواء من العراق حتى يكون العليل فارق

ثم قال ابرهيم بك فوزي اننا يا سعادة الباشا انما جئناك لنستفهم منك عما علمت من امر الحملة فقد ضاقت نفوسنا وخارت قوانا وهلكت اولادنا ونساؤنا وانحطت ثقتنا واصبحنا في حال لم يصل اليها قبلنا ولن يصل اليها احد بعدنا اتظن اننا اذا هاجمنا العرب نستطيع دفاعهم وعلى من يكون اعتمادك أعلى حامية حصونك الذين لا طعام لهم الاَّ الذرة ولا ياكلون منها الاَّ ما يسدُّون بهِ رمقهم ام على اهل المدينة وقد ذهب بعضهم الى معسكر العدوّ ومات بعضهم من الجوع ولم يبقَ الاَّ افراد لا فرق بينهم وبين الاموات من شدة الضنك فقد اشتد بهم الجوع حتى اكل بعضهم الكلاب والقطط والجلود والجرذان ومضغوا سعف النخل ام اعتمادك على الحملة الانكليزية التي قد مرَّ عليها ستة اشهر ونحن نسمع بقرب وصولها ولم تصل ولا اظنها ستصل فما رأيك

فالتفت اليهم غوردون لفتة الاستعطاف وعلامات التأْثر ظاهرة على وجههِ وقال لهم ما الذي تريدونهُ مني مروني فافعل ولا الومكم اذا قلتم اني كاذب او مماطل بوعودي عن مجيء الحملة ولكني اقسم لكم بالشرف اني لم اكذب بشيء مما قلتهُ واقولهُ لكم لاني افضل الموت على التفوُّه بغير الصحيح ولكن هذهِ هي الاخبار التي وصلتني ها اني اخلي لكم مركزي وليتقدم من اراد منكم الى مكاني ولنرَ ماذا يفعل فاني اؤكد لكم انهُ لا يستطيع احسن مما فعلت لاني بذلت كل ما بوسعي

ولا يخفى عليكم اني مساويكم بنفسي وقد قيل من ساواك بنفسهِ ما ظلمك ولكن مهلاً سادتي فاننا قد صبرنا كثيرًا ولم يبق الا القليل والجنود الانكليزية في المتمة وستكون هنا بعد يومين وننسى هذهِ الاتعاب

فلما سمع شفيق ذلك الحديث ازداد كدرًا لحالة تلك المدينة حتى كاد يندم على مجيئهِ اليها وتركهِ الخلاء الواسع ولكنهُ تذكر قدوم الانكليز وقرب وصولهم فسكن روعهُ ونظر الى غوردون فاذا بهِ قد نزع الطربوش عن رأسهِ وقد خفَّ شعرهُ وشاب ما بقي منهُ وقطب وجههُ واسند خدَّهُ الى كفهِ وهو غارق في بحار الهواجس وجميع من في القاعة سكوت. ثم وقف الجميع وانصرفوا وعاد غوردون بعد ان ودعهم الى القاعة فوقف لهُ شفيق احترامًا فنظر اليهِ نازعًا طربوشهُ بيدهِ اليسرى وخاطبهُ وقد اخذ منهُ الضجر كل مأخذ قائلاً «أرأيت عمرك مثل هذا الاهمال هاقد مرَّ عليَّ اكثر من ستة اشهر وانا انادي بأعلى صوتي مستنجدًا اصحابنا في لندرا ان يبعثوا بنجدة لانقاذ حاميات السودان فبعد ان شبعوا من المحاورة والجدل في برلمانهم اقرُّوا على ارسال النجدة ولكني لا اظنها تصل قبل ان يصل الينا الموت فان اهالي الخرطوم بعد ان كانوا يحترمون مقالي احترامهم لكلام منزل اصبحوا لا يصدقونني لكثرة ما وعدتهم واخلفت اعتمادًا على وعود اصحابنا في لندرا فهل تصل تلك الحملة ونرى رجلاً منهم في الخرطوم» ثم رمى بطربوشهِ الى المقعد وجلس مطرقًا ويدهُ في جيبهِ ثم تناول سيكارة من علبة بجانبهِ واشعلها وجعل ينفخ بها فهاب شفيق غضب ذلك الرجل ولبث صامتًا

لا يفوه ببنت شفة

ثم نظر اليه غوردون قائلاً « دع التقادير تجري في اعنتها » وامر بعض الحشم فجاء شفيقاً ببدلة فغيَّر ثياب الدراويش ثم حضر الطعام فتناولاه وتناوله معهما كبار الموظفين ولم يفه احد منهم بكلمة اثناء الطعام لان كلاً منهم كان مفكرًا بما قد احدق بحياته من الخطر

الفصل الثامن والسبعون

﴿ رسم شفيق في سراي الخرطوم ﴾

وبعد العشاء بيسير سار كلٌّ الى فراشه وفي الصباح التالي سأل شفيق عن غوردون فقيل له انه على سطح السراي يراقب حركات العدوّ بالنظارات وكان ذلك شغله في معظم النهار فينظر تارة الى العدوّ وطورًا الى النيل يترقب عود البواخر وكان قد ارسلها لملاقاة الحملة الانكليزية في جهات شندي أمل ان تكون قد جاءته بنفر من العساكر الانكليزية ليتحقق امله بنقاذ حامية الخرطوم وحبوط امر المتمهدي فلم يجسر شفيق على الصعود اليهِ ومخاطبته فعاد الى حجرة رقادهِ ولبث مدة ثم خرج منها الى غرفة الاستقبال فشاهد فيها بعض الكتب والجرائد الانكليزية فاخذ يقلب فيها شاغلاً نفسه ريثما ينزل غوردون فلاحت منه التفاتة الى رسم فوتوغرافي بين الجرائد والاوراق فخفق قلبه لما رآه لانه رسمه الذي اعطاه تذكارًا لفدوى وعليهِ علامته بخط يده وزاد

تعجبهُ كونهُ مقطوع الرأس بطرف مدية فاخذت ركبتاهُ ترتجفان وقلبهُ يخفق حتى كاد يغيب عن الوعي وهو لا يصدق انهُ في يقظة لانهُ شعر لدى مشاهدتهِ تلك الصورة كأنهُ على مقربة من حبيبتهِ فاخذت بهِ الهواجس والقلق وجعل يفكر في كيفية وصول ذلك الرسم الى ذلك المكان وما معنى قطع رأسهِ وبقي واقفاً مطرقاً مدة والصورة في يدهِ حتى سمع الجنرال غوردون يخاطبهُ مسلماً فانتبه فاذا هو قد نزل من السطح والنظارات بيدهِ فبهت شفيق ثم ردَّ التحية محنياً رأسهُ احتراماً ولكنهُ لم يستطع اخفاء ما كان فيهِ من الاضطراب والرسم لا يزال في يدهِ على انهُ تجلد خوفاً من ظهور دلائل الوجد والغرام على وجههِ لانهُ ليس في حال تتيح لهُ ذلك اما هو فنسي نفسهُ وما هو فيهِ من الخطر وود لو انهُ طير ليطير الى حيث هي فدوى ليشاهدها ولم يخطر في باله حالة الخرطوم من الخطر وقد نسي ما دار في مساء امس من الحديث

اما غوردون فحمل تلك المظاهر في شفيق على خوفهِ من سقوط الخرطوم بعد ان سمع ما سمعهُ في الامس فابتدرهُ بالكلام قائلاً لا تجزع يا عزيزي ان قضاء الله سبحانهُ وتعالى لا مفرَّ منهُ ولا يجب ان تعوّد نفسك الخوف وانت في شرخ الشباب

فتجلد شفيق وحاول التبسم ثم قال اني ياسيدي لا خوف عليَّ طالما كنت والجنرال غوردون في حال واحدة اذ لست افضل منهُ . فقال غوردون ولكن يا ولدي لا يخفى عليك اني قد امسيت شيخاً وقد انقضت ايامي واما انت فلا تزال في اول حياتك وربما تكون عازباً

عاقدًا على فتاة وتودُّ البقاء من اجلها فعاد قلب شفيق الى الخفقان ولم يمكنهُ الجواب لتلعثم لسانه ولكنهُ حاول الاجابة فسبقتهُ العبرات رغماً عنهُ وكان يود اخفاءها في تلك الحال اخفاء مؤبدًا لئلاً يظن بهِ الجبن

فظنهُ غوردون يبكي خوفا من وقوع القضاء فقال لهُ تأمل يا ولدي بما يقاسي الانسان من الاخطار في هذا العالم ومن جميعها ينجيه الله

فتنهد شفيق تنهدًا عميقاً وسكت ولم يكن غوردون لينتبه الى عواطف شفيق لان الاهوال أنستهُ عواطف الشبان وكل ما يتعلق بها اما شفيق فأراد ان يسأل عن الرسم وسبب وصولهِ الى تلك الغرفة لكنهُ لم يجسر على اطالة الكلام لعلمهِ ان ذلك الرجل في شاغل اهم من ذلك كثيرًا فصمت واذا بغوردون قد جلس على المقعد واشعل السيكارة واخذ ينفخ بها ويتلاهى بنفض رمادها باصبعه وينقلها من يد الى اخرى ولا يكاد يمص منها مصة حتى يثنيها ويكررها مرارًا حتى امست تلك القاعة تعج بالدخان عجيجاً كل ذلك وغوردون على المقعد جاعلاً رجلاً فوق اخرى وقد نزع طربوشهُ والقاهُ جانباً وهو في قلق لا يستقر في مكان فبعد ان جلس دقيقة على هذا الطرف من المقعد انتقل الى الطرف الآخر يتكئ تارة على اليمين وطورًا على اليسار لكثرة بلبالهِ وقلقهِ وكان وجهه قد اعتاد العبوسة فلم يعد يعرف الابتسام الا اغتصاباً واما شعرهُ فابيضَّ بغير اوانهِ وخفَّ عن ذي قبل وقد نحل وجههُ حتى ظهرت فيهِ ثنيات الشيخوخة

فهاب شفيق منظرهُ ولم يجسر على مخاطبتهِ في شيءٍ لكنهُ جلس

الى مقعد مقابل لمقعدهِ يقلب صفحات كتاب كأنهُ يفتش عن شيء ولكنهُ كان تائه الافكار سابحاً في لجج الهواجس التي تراكمت عليهِ بين خطر وقلق وارتباك من امر ذلك الرسم فمضت عدة دقائق والاثنان صامتان لا ينطقان اما غوردون فكان اذا انتهت سيكارة اشعل غيرها وهو لا يهدأ في جلوسهِ لحظة وفيما هما في ذلك دخل جندي يقول ان بورديني بك في الباب (احد تجار المدينة وقد اظهر شهامة عظمى في ذلك الحصار) فقال الباشا دعهُ يدخل

فدخل الرجل وعليهِ الجبة والقفطان وعمامة وهمَّ الى يد الباشا ليقبلها فرآهُ في تلك الحال من القلق فاضطرب فؤادهُ ولم يعد يجسر على مخاطبته مع ما كان لهُ من الدالة عليهِ اما غوردون فحالما شاهد الرجل نزع طربوشهُ عن رأسه مغضباً ورمى بهِ الارض قائلاً

« ماذا اقول الآن فاني اذا قلت قولاً لا يصدقني احد فكم أنبأتهم بوصول النجدة ولم تصل فلا بد انهم يظنون بي سوءا ورياء فدعني أدخن هذهِ السكاير (واشار الى صندوقين ملآنين من السكاير على مائدة امامهُ) » وكان بورديني بك هذا قد جاء يدعو الباشا الى جلسة يقررون بها قراراً نهائياً بشأن الدفاع فرأى ان الباشا لا يستطيع وهو في هذهِ الحال من الغيظ ان يحضر الجلسات فتركهُ وانصرف فازداد الباشا رهبة في قلب شفيق وود الخروج من حضرتهِ ريثما يسكن روعهُ ولكنهُ لم يستطع النهوض ولا رفع نظرهِ من الكتاب . ثم رأى الباشا ناهضاً فنهض هو فاذا بهِ قد حمل النظـارة المقربة وصعد الى

سطح السراي ليراقب حركات الاعداء وكانوا محدقين بالمدينة من جهاتها الاربع فعاد شفيق الى غرفتهِ والرسم في يدهِ يعيد النظر اليهِ المرَّة بعد الاخرى ويفكر في كيفية خروجهِ من يد فدوى ووصولهِ الى ذلك المكان فصبر نفسهُ ريثما يبدأ بال غوردون بمجيء الانكليز ويسألهُ عنهُ

وما زال كذلك الى وقت الغداء فتناولوهُ وبعد الغداء اخذ يفكر بالخطر المحدق بالمدينة ولاح لهُ ان يحافظ على بدلة الدراويش لعلهُ يحتاج اليها في تنكر او تستر فتفقدها وجعلها في مكان يعلمهُ

الفصل التاسع والسبعون

سقوط الخرطوم

وقضى تلك الليلة بين هاجس وخائف يراقب حركات غوردون فاذا هو قد قضى نصف ذلك الليل ساهرًا يكتب وعند نصف الليل رقد شفيق ولكنهُ لم تكد تأخذهُ سنة النوم حتى سمع اطلاق المدافع فنهض مذعورًا في الساعة الثالثة بعد نصف الليل فاذا بأهل السراي يتراكضون فسأل عن الباشا فقيل لهُ انهُ على سطح السراي يطلق المدافع على الاعداء فصعد اليهِ فاذا هو في لباس النوم يطلق القنابل والعدو هاجم على الاسوار

وشاهد بعد قليل جماهير العصاة وقد دخلوا السور من باب المسلمية وامتلأت الساحة منهم وما زال غوردون يطلق القنابل عليهم من

السطوح مقدار ساعة حتى اقتربوا كثيرًا فلم يمكنهُ تصويب المدافع عليهم ورأى شفيق اعلام المهدويين تخفق في وسط الجماهير فتحقق لديهِ ان قد قضي الامر فعمل الفكرة في كيفية المحافظة على حياتهِ اكراماً لفدوى وليس حباً منهُ في الدنيا فاسرع الى بدلة الدراويش وجماها عليهِ بعد ان تحقق ان الدفاع لا ينفعهُ شيئا ونزل من السراي فشاهد جماهير العصاة عند باب السراي يريدون الدخول ثم تقدم اربعة منهم ودخلوها فالتقوا بغوردون عند رأس السلَّم وقد لبس ثيابهُ وتقلد سيفهُ وحمل الروفلفر بيدهِ فهجم عليهِ احدهم ونادى باعلى صوتهِ «آه يا ملعون اليوم يومك» وطعنهُ طعنة بحربة القتهُ صريعاً وعملوا رفاقهُ مثل عملهِ اما هو فلم يبدِ اقل مدافعة وكان ذلك قبل شروق الشمس فسقط غوردون صريعاً يخبط بدماه فلم يستطع شفيق النظر اليهِ فترك السراي ونزل الى الشوارع كانهُ واحد من الدراويش ينادي نداءهم ويتظاهر بمظاهرهم وكان كثيرون منهم يعرفونهُ ولم يعلموا انهُ فرَّ من معسكرهم فظنوهُ على دعوتهم اما هو فكان يحجب الدماء ما استطاع بغير ان ينفضح امرهُ وبعد ان نزل من السراي بقليل رأى درويشاً حاملاً رأس غوردون يريد ايصالهُ الى المهدي على ان المهدي كان قد امر بابقاء ذلك الرجل حياً ولكن اجلهُ عاجلهُ فمات شر موتة ودامت المذبحة ست ساعات ولم يكف الدراويش عن القتل حتى امرهم المهدي فكفوا

اما شفيق فلم يكن يأمن على حياتهِ لعلم الاكثرين بامرهِ فتحقق لديهِ انهُ اذا علم اميرهُ او المهدي بفراره يقتلهُ لا محالة فاغتنم انشغال

الدراويش بالنهب والقتل وطلب شاطئ النيل فركب خشبة سابحة وجعل يجذف برجليهِ فساعدهُ المجرى فسار نازلاً وهو لا يعلم لنفسهِ مقصدًا فشاهدهُ الدراويش من الشاطئ فاستغشوه فرموهُ بالسهام والبنادق فاخطأوهُ حتى اذا كان على مسافة من الخرطوم اصابهُ سهم في فخذهِ وما زال سابحاً حتى اتى جزيرة قبالة حِلة يقال لها حلفايا فنزل تلك الجزيرة والتجأ الى ظل شجرة وكان الليل قد سدل نقابهُ فلم يعلم بهِ احد ولكنهُ كان في خوف عظيم لانتشار الدراويش في تلك الجهات وقضى كل ذلك الليل ساهرًا يفكر في وسيلة لنجاته من بلاد قد مد فيها الدراويش رواقهم واما جرحهُ فقد كان طفيفاً فلفهُ بعمامتهِ ولما اصبح تظاهر بمظاهر الدراويش

الفصل الثمانون

كتاب فدوى

وكان قد اسود لون جلدهِ من معاناة الحرّ واتقن اللهجة السودانية جيدًا وعرف اصطلاحات الدراويش في حديثهم وصلاتهم وسائر احوالهم فاخذ يجول في الجزيرة حافياً والسبحة في عنقهِ يكرر الشهادة والدعاء لنصرة الدراويش وابادة الكفار وقد خارت قواهُ من التعب والسهر والجوع فوصل الى مكان اشتمَّ فيهِ رائحة السودان وهي رائحة خاصة باهل السودان يشتمها الانسان عن بعدٍ فتقدم نحوها فوصل الى بيت

صغير فيهِ ثلاثة من اهل تلك القرية فحياهم بتحيتهم المعتادة فردوا التحية ودعوهُ فجلس اليهم فاذا هم يعدون الطعام وقد جعلوا على النار قدرًا فيها قليل من الماء فسألوه عن حالهِ فقال انهُ ممن جاؤا للجهاد في سبيل الامام المهدي وقد أُصيب برصاصة في رجلهِ اثناء هجومهِ على المدينة فلم يعد يستطيع الجهاد فقالوا والله انك لقد نلت اجرًا ويا حبذا لو كان مثل تلك الاصابة لنا

ثم قال واحد منهم والله ان النصارى (يريد الانكليز) لا يعرفون كرامة سيدنا الامام المهدي ولو عرفوها ما تكلفوا المشقة والمجيء من اقاصي الدنيا لكي يعودوا بالفشل

فقال شفيق ان هؤلاء لا يعرفون كرامة احد ولذلك فان الله قد اوقعهم في شرّ اعمالهم ولم يعودوا يقدرون على المجيء الى هنا بعد سقوط الخرطوم

فقهقهَ الرجل ثم قال وهب انها لم تسقط اتظنهم يستطيعون المجيء اليها ألا تعلم ما فعل بهم سيدنا الامام

قال وماذا فعل

قال لقد رصدهم

قال وكيف ذلك

قال يظهر انك لم تسمع الخبر وهو ان اميرنا كان في السنة الماضية سائرًا في رجالهِ الى الدّبة نجدة للدراويش فعثروا في الطريق على جاسوس من جواسيس الترك آتيًا الى غوردون فاخذوا منهُ متاعهُ ونجا هو فوجدوا في جملة متاعهِ صورة من صور عساكر النصارى الذين تتولى

امورهم حرمة فلما رجعنا دفعوا الصورة الى الامام فاخذها وصلَّى ثم قطع رأسها بسيفهِ فقطعت رؤوس الكفار كافة ثم بعثها الى غوردون في الخرطوم ليعلم هذا ان الذين هم قادمون الى انقاذهِ سيصيبهم مثل ما اصاب تلك الصورة

فادرك شفيق من خلال تلك الحكاية ان تلك الصورة انما هي صورتهُ وفهم معنى قطع رأسها ولكنهُ لم يفهم كيف جيء بها الى السودان ولا من جاء بها فاخذت منهُ الهواجس كل مأْخذ حتى خاف ان يظهر عليهِ ذلك فتدارك الامر بالدعاء للمهدي وكرامتهِ

وكانت القدَر قد غلى ماؤُها فجاء احدهم بقصعة من الخشب قد تلبَّدت عليها الاوساخ حتى صارت كأَنها مدهونة بدهان اسود واستخرج رفيقهُ من ثنيات ثوبهِ ورقة بيضاء ملفوفة وفتحها فاذا فيها شيءٌ من الويكة (فتات ورق البامياء الجاف) واخذ منها شيئًا جعلهُ في ذلك الماء وجعل يحركهُ بأُصبعهِ وهي ليست اقل قذارة من القصعة حتى صار مزيجًا لزجًا واستخرج كلٌّ منهم رغيفًا من خبزهم الاسمر المابَّد واخذوا يغمسون في ذلك المزيج وياكلون ويلحسون اصابعهم بعد كل لقمة

اما شفيق فكان قد اعتاد ذلك الطعام فتناول رغيفًا وفعل مثلما فعلوا

وفيما هو ياكل لاحت منهُ التفاتة الى الورقة التي كانت فيها الويكة وحالما وقع نظرهُ عليها خفق قلبهُ ووقفت اللقمة في حلقومهِ فحقق نظرهُ فيها فاذا هي مكتوبة بخط يشبه خط فدوى فتناول الورقة باسلوب لطيف وقد امسك نفسهُ عن التأَثر وتأَملها فتحقق لديهِ ان

الخط خطها واذا هو كتابها اليهِ وبما ان الورقة كانت خالية ولم يعد لها عوز عند اصحابهِ حفظها في يدهِ ثم اخفاها في ثيابهِ ولم يعد يستطيع طعاماً من شدة التأثر فتظاهر بذهابهِ في حاجة فلما خلا بنفسهِ فتحها واخذ يقرأ ويبكي وهو في حيرة لا تناق ذلك لهُ في ذلك اليوم واستخرج صورتهُ لانها كانت لا تزال محفوظة عندهُ وفهم من ذلك الكتاب ان فدوى في بيروت تقاسي مرّ العذاب في انتظارهِ وقد قنطت من رجوعهِ ونظر الى تاريخ الرقعة فعلم انها خرجت من يد فدوى منذ عشرة اشهر وكانت يومئذ قانطة من مجيئهِ فكيف بعد هذهِ المدة

فاخذ يبكي ويتحرّق لعدم استطاعتهِ الوصول اليها او ربما لا يستطيع النجاة من تلك الديار كل حياتهِ فتصوّر لهُ حال فدوى واخذت ركبتاهُ ترتجفان وقلبهُ يكاد ينفطر ولولا تعوده الاخطار والمشاق لاغمي عليهِ ولكنهُ تجلد وعاد الى رفاقهِ متظاهرًا بما اشغلهم عن ملاحظة حالهِ وقضى معهم بقية ذلك النهار ثم احبَّ الاعتزال عنهم ليتمكن من البكاء خوفاً من وقوع الريب فيهِ ففارقهم الى منعزل في الجزيرة بعيد وجلس كل ليلهِ يتذكر فدوى ويبكي ويندب سوء بختهِ وما وصل اليهِ وكيف انهُ مغلول لا يستطيع الوصول اليها فكان اذا تصوَّر ما قد يلمُّ بها بسبب تأخرهِ من القنوط تدب فيهِ الحمية خوفاً من ان يكون سبباً لموتها وقد لعن عزيزًا الخائن وندم على ابقائهِ حياً فقضى ذلك الليل في تلك الهواجس

الفصل الحادي والثمانون

﴿ باخرة ولسن ﴾

وفي منتصف اليوم التالي (٢٨ يناير سنة ١٨٨٥) شاهد باخرة قادمة على النيل فوقها العلم الانكليزي فعلم انها قادمة لانقاذ غوردون من الخرطوم فقال بنفسهِ سامحكم الله على ابطائكم لقد ذهبت اعمالكم ادراج الرياح ورأى ان نزولهُ الى تلك الباخرة آمن له من البقاء هناك فنظر اليها من الجزيرة فاذا هي تجرُّ وراءها صندلاً ملآن بالعساكر الباشبوزوق السودانيين فاشار الى من فيها اشارة علموا منها انهُ من جندهم فاقتربوا بالباخرة من الجزيرة ودلُّوا لهُ خشبةً صعد بها اليهم وهو لا يصدق فاجتمع اليهِ كل من فيها من الجنود الانكليزية ينظرون الى لباسهِ وهيئتهِ ويعجبون ثم ذهبوا بهِ الى ضابط انكليزي قصير القامة خفيف شعر العارضين نحيف البنية هادئ الطبع وفهم من كلامهم انهُ السير شارلس ولسن رئيس قلم مخابرات الحملة النيلية التي جاءت لانقاذ غوردون فخلا بهِ وسأله عن حالهِ فقصَّ عليهِ القصة بالاختصار فلما تحقق انه من رجالهم سأله عن الخرطوم فأحكى له ما كان واشار عليهِ ان لا يصل اليها لانها في قبضة العصاة فلم يصغِ الى مقالهِ فسارت السفينة والدراويش يضربونها من الجانبين حتى وصلت الخرطوم فتحقق السر شارلس قول شفيق لانهُ رأى اعلام المتمهدي تخفق فوق السراي والقشلاق والاسوار واماكن أخرى ثم اطلقت عليهم الخرطوم عدة قنابل

لم تأت بضرر فعرج السير شارلس قاصدًا المتمة حيث كان معسكرهم

اما شفيق فجلس الى شرفة من شرفات الباخرة وهي تخترق عباب النيل يتذكر ما مرَّ عليهِ من الاهوال اثناء السنتين الغابرتين ويشكر الله على ما وصل اليهِ ثم خطر لهُ ضياع الدبوس ولكنهُ لم يكن يحسبهُ بالشيء المهم في جانب وصولهِ الى فدوى والتقائهِ بوالديهِ . وبعد مسيرة يومين وصلت بهم الباخرة الى شلال السبلوكا وهو الشلال السابع فاصطدمت بصخر كبير فانكسرت وأوشكت ان تغرق فصاح الناس البدار البدار الى النجاة من الغرق فهرول شفيق في جملة المهرولين الى الصندل ونزل اليهِ والرصاص يتساقط عليهم من ضفتي النيل فحملوا في ذلك الصندل ما استطاعوا حملهُ من الناس والمتاع وجرُّوهُ الى الشاطيء فاذا هم على جزيرة يقال لها جزيرة ود حبشي فخاف شفيق حبوط آمالهِ لانهُ علم انهم في ارض العدوّ المحيط بهم من كل الجهات

ولا سيما لما رأى السير شارلس في حالة الخوف الشديد وقد احاط رجالهُ بزريبة من الشوك لم تكن تغني عنهم شيئًا ثم علم انهم بعثوا ضابطاً في قارب صغير يسير الى المتمة لاعلام الحملة بذلك الامر حتى يسرعوا الى انقاذهم

ولبثوا على هذهِ الحال والخطر يزداد كل يوم حتى مضى ثلاثة ايام او اربعة وفي مساء اليوم الرابع رأوا عن بعد باخرة قادمة من جهة المتمة فعلموا انها آتية لانقاذهم فاستبشروا بالنجاة وشاعت ابصارهم اليها حتى اقتربت من الجزيرة ولكنهم لم يكادوا يتحققون فوزهم حتى سمعوا اطلاق المدافع من جهات العدوّ ثم علموا بالاشارات ان الباخرة اصيبت

بقنبلة في آلتها البخارية فتعطلت فتحقق شفيق حبوط مسعاهُ وايقن بهلاكهِ وهلاك كل من كان معهُ

وبقيت الباخرة تحت الترميم بقية ذلك اليوم ومعظم الليل والنار تتساقط عليها بين قنابل ورصاص حتى قيض الله لهم اصلاحها فركبوها فسارت بهم حتى اتت المتمة فاذا بمعسكر الانكليز هناك على ضفة النيل الغربية في محل يعرف بالقبة وقد ايقنوا بالفشل بعد سقوط الخرطوم فودَّ شفيق ان يكون ذلك السقوط حاملاً لهم على الاسراع الى الانسحاب نحو القاهرة لانهُ اصبح شديد القلق على والديهِ وحبيبتهِ ثم علم بعزم الحملة على ذلك فسرَّ وبعد بضعة ايام انسحبت الحملة راجعة في طريق صحراء البيوضة قاصدة كورتي لتسير من هناك في النيل الى مصر

وقد علم شفيق ان المسافة في الصحراء ١٤ يوماً فقطعوها بعد شق الانفس مارّين بابي طليح وجكدول

فلما وصلوا كورتي لم يكن يصدق انهُ وصل واخذ ينتظر ورود الاوامر بالانسحاب الى مصر ولكنهُ علم من التلغرافات الواردة من لندرا ان الحكومة الانكليزية قرّرت بقاء الجيش هناك لقضاء فصل الصيف حتى يعودوا في الشتاء القابل الى فتوح السودان فاصبح النور في عينيهِ ظلاماً ولكنهُ ما انفك ساعياً حتى اذن لهُ بنوع استثنائي ان يسير وحدهُ الى القاهرة فاخذ ما يحتاج اليهِ وسار تارة يركب جملاً وطورًا قارباً قاصدًا القاهرة فوصلها في اواخر شهر مارس سنة ١٨٨٥

فلنتركهُ يفتش عن والديهِ ولنرجع بالقارىء الى بيروت لنرى ما تمّ لفدوى

الفصل الثاني والثمانون

﴿ عود الى بيروت ﴾

اما فدوى فانها بعد ان استولت على الدبوس واستوثقت من ذهاب عبودلبثت في بيروت على مثل الجمرتأخذ والدهابااللين وتعده باطاعةاوامره بكل ما يريد وكان والدها قانعاً بوعودها وكان يلح على عزيز ان يأتي بالمنوّم فكتب الى صديق لهُ في باريس بشأن ذلك فطال انتظاره ولكنهُ كان مطمئن الخاطر لاعتقادهِ ان شفيقا اصبح في عالم الاموات وانهُ طالما كان الباشا راضياً عنهُ فهو المالك لما يريد على انهُ لم يتمكن في كل مدة اقامتهِ في الفندق من مشاهدة فدوى لحظة واحدة

وورد الى الباشا ذات يوم كتاب من امرأتهِ في مصر في طيهِ كتاب شفيق الذي بعث بهِ من الأبيض وفيهِ الخبر ببقائهِ حياً فلماقرأ الباشا الكتاب خاف حبوط مسعاه في الاستيلاء على ثروة عزيز اذا عاد شفيق حياً ولكنهُ اخفى ذلك الخبر عن ابنتهِ لئلا تتشبث بهِ وترفض عزيزاً ثم خاف ان يطول وعدها بالقبول فيأتي شفيق قبل زفافها على عزيز وخشي اذا الح عليها بالاقتران ان تنفر منهُ وتعود الى عزمها السابق فوقع في حيرة وبعد التدبر مدة لاح لهُ ان يسعى اولاً في مرامهِ الاساسي وهو ان يضع يدهُ على اموال عزيز قبل الاقتران فخلا بهِ يوماً ودار بينهما الحديث في شؤون مختلفة تطرق منها الباشا الى مسألة الاقتران بفدوى وكان يخاطب عزيزاً بلسان القريب ويدعوهُ تارة ابنهُ وطوراً

صهرهُ وعزيز فرح بتلك الالقاب فقال الباشا في جملة قولهِ طالما كنا يا ولدي جسمين في شخص واحد لانك ستكون صهري بمنزلة ولدي وانت الوارث لكل اموالي اذ ان فدوى وحيدة لي فما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي فلماذا لا نضم ممتلكاتنا بعضها الى بعض ونجعلها ملكاً واحداً فاما ان اضم مالي الى مالك واكتب لك بذلك صكًّا او ان تضم مالك الى مالي وتكتب لي بهِ صكًّا

ففرح عزيز بذلك الخطاب الدال على تمكن محبتهِ من قلب الباشا الى هذا الحد وايقن بزوال كل مشكلة من طريقهِ وكان يودُّ ان يكون هو المستولي على المالين ولكنهُ لم يجسر على التصريح بذلك حياءً منهُ ونظرًا لشدة وثوقهِ بنيل بغيتهِ التي قضى السنين الطوال سعياً وراءها وقاسى الاهوال العظام من اجلها وبانهُ هو الوارث الشرعي عند ذلك لكل ما هو للباشا فاراد ان يظهر لهُ وثوقهُ بهِ بمحبتهِ وبصدق مواعيدهِ فقال لهُ اني يا عماه وما املك في قبضة يدك لانك بمنزلة والدي ففرح الباشا لنجاح سعيهِ ولكنهُ قال واذا شئت فاني مستعد ان اسجل كل ما هو لي باسمك وان اعطيك صكًّا بهِ

قال عزيز حاشا يا عماه اذ لا يليق ذلك والولد ليس لهُ مال بحياة والده وها اني اكتب لك الصك منذ الساعة وكان الباشا قد اعد الورق والدواة حتى لا يكون ثم مانع اومؤخر فاستخرج الورق ووضعهُ على المائدة فلم يرَ عزيز بدًّا من كتابة الصك قياماً بقولهِ وجاءَ بشاهدي عدل يشهدان على قولهِ

فلما تمت كتابة الصك تناولهُ الباشا وجعلهُ في جيبهِ فرحاً لتحقق امانيه اما عزيز فحالما وضع الصك في يد الباشا شعر بخطإهِ وجهالتهِ ولكنهُ لم يجسر على استرجاعهِ حياءً فلبث صامتاً يفكر بحالتهِ بعد كتابة ذلك الصك فاذا هو صفر اليدين لا يملك شيئاً ولكنهُ عاد فتذكر انهُ سيكون عما قليل قريناً لفدوى فتعود هذه الاموال واموال الباشا جميعها اليهِ فسكن جاشهُ نوعاً وازداد تعلقاً بفدوى لان جميع ما يملك من المال والعقل والجسد اصبح معقودًا بناصية الاقتران بها

ولبث عزيز ينتظر مجيء المنوّم من اوروبا حتى طال امد الانتظار

فمضى الشهر والشهران والثلاثة وفدوى لا تنفك عن النحيب والتعلل بارسالية عبود حتى كان يوم من ايام شهر مارس فدخل بخيت غرفتها وهي سبحة في ابحر الهواجس فلما رأتهُ قالت

ما وراؤك يا بخيت

قال ما ورائي يا سيدتي الا كل خير

قالت قل

قال قد ورد عليَّ كتاب من عبود يقول انهُ لا يستطيع التقدم الى الخرطوم الآن لانها تحت الحصار ولكنهُ باق في انتظار الحملة النيلية الذاهبة لانقاذ حامية الخرطوم فيسير برفقتها

قالت وما ظنك بهِ هل يفلح اني يا بخيت لم اعد استطيع صبرًا ولا انا راجية خيرًا من هذا الرسول ولكن عسى ان يكون الامر خلاف ما اقول ويأتي بشفيق فاكون اول السعيدات واما اذا لم يأتِ فاني ... وبكت

فقال خففي عنك عسى ان يفتح لنا الله على يد هذا الرجل وكل آت قريب

قالت عسى ان شاء الله

فقال بخيت آه لو كنَّا قتلنا عزيزًا اما كنَّا تخلصنا من احد الويلين

فقالت وما الفائدة لهُ او الخوف لنا من بقائهِ حيًّا فانهُ غير بالغ مني مأرباً وشرف شفيق وعهدهِ اما اذا جاءنا ذلك الرسول بالخبر الخير فاني لا اعبأُ بمقاصد والدي ولا مقاصد ذلك الخائن فانهُ اولى الناس بي شرعاً وعرفاً .. آه اين انت يا شفيق واخذت تتأوه وتتحسر فاراد بخيت اطالة الحديث فخاف مجيء والدها فاستأذنها وخرج

الفصل الثالث والثمانون

﴿ اليأس ﴾

اما والدها فانهُ لم يعد واجساً من بقاء شفيق حيًّا لانهُ نال مبتغاهُ من عزيز اما هذا فما زال معللاً نفسهُ بالآمال منتظرًا مجيء طبيبهِ من اوربا ليحبب فدوى بهِ بالاستهواء

اما هي فانها ما برحت واجسة على شفيق وهي لا تصدق انهُ يعود سالمًا فرأت في بعض الليالي مناماً ازعجها كثيرًا وذلك انها رأت شفيقاً مضرجاً بدماهُ في صحراء السودان والنسور حائمة عليه تاكل من جثتهِ فاستيقظت مرعوبة باكية وكتمت ذلك عن والدها وانتظرت حتى

اتى بخيت وقصت عليهِ الحكاية وهي تبكي الى ان قالت فأتني بسمّ اتجرّعه واقضي نحبي ووراءهُ لعلّي التقي بهِ في العالم الاخر قبل ان يدرك مني ذلك اللعين وطرًا

قال بخيت لا بأس عليك يا سيدتي فانهُ والله غير مدرك مسمارًا في نعلك وبخيت في قيد الحياة

قالت وهي تلطم وتندب ادرك او لم يدرك فان الحياة لم تعد تحلو لي فلا اريد الحياة في ارض لم تحفظ لي حبيبي اما في العالم الآخر فاني اكون آمنة عليهِ فاذهب حالاً وأتني بالسم والاّ خنقت نفسي بيدي وجعلت يدها في عنقها فأمسكها بخيت وحاول تسكين ما بها فلم يستطع لان عواطفها تسلطت على عقلها واي تسلط واخذت تلطم وتثب كمن اصيب بجنة وقد حلت شعرها وقطعتهُ واوغلت في البكاء حتى بللت ثيابها

فوقع بخيت في حيرة واخذ في البكاء معها ثم لاح لهُ ان يتظاهر بموافقتها فقال ها اني افعل ما تريدين ولكن خففي عنك الآن لئلا يأتي سيدي ويراك على هذهِ الحال

فابتدرتهُ قائلة لم اعد احسب حساباً لاحد لاني لست مالكة رشدي ولا انا خائفة من شيءٍ وساكون عما قليل في جملة من مضت عليهم الاجيال في القبور

فبكى بخيت آسفاً على ذلك ولكنهُ تجلد خوفاً على سيدتهِ واخذ يخاطبها بأساليب مختلفة ويصبرها لبينما يأتي الرسول فلم تكن تصغى

الا اذا كلمها عن الموت

فقال لها سأذهب لآتي لك بالسم ولكن امهليني بضعة ايام لان الصيدليات لا تبيع السموم بغير امر الطبيب ولا بدَّ لي للحصول عليهِ من تدبير وسيلة افلا تصبرين بضعة ايام

قالت اسرع في استجلابهِ ما استطعت لان الموت افضل من حياتي واذا كنت حية بعد حبيبي فاني اموت كل يوم الف موتة

فقال اجلسي وامسحي عينيك فها اني ذاهب لاسعى الى مرامك فجلست وقد خارت قواها ثم القت نفسها على السرير وسار بخيت يدبر وسيلة لنجاة سيدتهِ من هذهِ الورطة

الفصل الرابع والثمانون

الرجاء

وعاد بخيت بعد قليل يعود فدوى فاذا بها على السرير كأنها نائمة فجعل يلهي نفسهُ بتقليب اوراق كان نسيها سيدهُ على المائدة فوقع نظرهُ على ورقة مكتوبة بيد شفيق فتأملها فاذا هي الورقة التي ارسلها من الأبيض الى والديهِ ينبئهم ببقائهِ حياً فاخذ يرقص طرباً كأنهُ اصيب بجنة ولكنهُ خاف على سيدتهِ من صدمة الفرح الشديد فسكَّن عواطفهُ وتقدم نحوها فافاقت ونظرت اليهِ فاذا في وجههِ امارات البشر فنهضت حالا وسألتهُ عن سبب انبساط وجههِ وكانت لا تستطيع التكلم من

شدة الضعف ولكن امارات وجه بخيت جعلتها تنتعش فالحت عليهِ ان يخبرها بما عنده

فاخذ يمهد لها الخبر لئلا يضرَّ بها بغتة فقال ليس عندي الا الخير واما انت يا سيدتي فاتكلي على الله وهو يمنحك كل ما تريدين

قالت قد اتكلت عليهِ وانت تعلم ذلك غير اني ارى مماتي اقل شقاء لي من حياتي ولذلك فاني قد فضلت الممات

قال وهل تحققتِ يقيناً ان سيدي شفيقاً غير حي قالت ان ما علمتهُ يقرب من اليقين

قال كلاَّ يا سيدتي بل الارجح بقاؤهُ في قيد الحياة

فانتفضت فدوى عند سماعها ذلك وقالت ما تقول يا بخيت هل سمعت شيئاً جديداً بهذا الشأن

قال هبي اني لم اسمع شيئاً فان قرائن الاحوال تدلك على ذلك

قالت وايُّ القرائن فاني لا ارى قرينة واحدة

قال اول القرائن انكما تحبان احدكما الآخر محبة عظيمة وقد وقعتما في ضيق وخطرٍ مرارًا وانقذكما الله فذلك دليل على انهُ سبحانهُ وتعالى يريد بقاءكما لتتمتعا ببقية حياتكما بالرغد والقرينة الثانية اننا لم نسمع خبرًا صريحًا بقتله او موته وكل ما لدينا من الاخبار سلبيٌّ واما القرينة الثالثة ... وسكت والورقة في يدهِ لم ترها فدوى

فابتدرتهُ بالسؤال عن القرينة الثالثة

فقال ان القرينة الثالثة هي هذا الكتاب الصغير وفتح يدهُ فحالما

شاهدت فدوى خط شفيق شهقت وارتدت اليها قوّتها وهمّت الى الورقة فاختطفتها وقلبها يخفق وفرائصها ترتعد واراد بخيت منعها فلم يستطع فقرأَت تلك الورقة وعيناها تكادان تطيران من اللهفة ولم تتم القراءة حتى امتلأَت عيناها بدموع الفرح والحزن وصاحت ببخيت ويلك هل تظن انهُ لا يزال حياً قال الارجح يا سيدتي انهُ حي باذن الله لان الذي انقذهُ من مذبحة هيكس باشا لا يتخلى عنهُ في غيرها

فظهر على وجهها علامات الارتياح وطاب خاطرها وبهتت مدة تتأمل بكتاب شفيق وتعيد قراءَتهُ ثانية وثالثة ورابعة وهي لا ترفع نظرها منهُ فتجددت آمالها وقالت لبخيت ما العمل الآن وما الرأي

قال الرأي ان ننتظر الفرج من عند الله فانهُ على كل شيءٍ قدير

قالت وماذا نعمل بهذا الثقيل الذي قد سلطهُ الله على افكار والدي حتى صمم على تبليغهِ مرامهُ ولكن ... فابتدرها بخيت قائلاً قد قلت لك يا مولاتي انهُ غير بالغ مسمارًا من نعلك ولسوف ترين من بخيت ما يسرك

قالت افعل ما بدا لك ولكنني لا ارى الاَّ ان والدي مائل الى موافقتهِ في قصدهِ

فضحك بخيت ضحكة اغتصابية كأَنهُ تذكر امرًا اغضبهُ وقال بل قد صمم وتمَّ اتفاقهما ولكنهُ غير بالغ شيئاً طالما كنتُ حياً ولو اتى بمنوّمي العالم ثم انتبه وعضَّ انملهُ كأَنهُ فرط منهُ لفظ في غير اوانهِ

فقالت لهُ فدوى وما معنى هذا الكلام ومن هم المنوّمون فاحب

كتمان ذلك فالحت عليهِ حتى خاف غضبها اذا لم يخبرها فقال لها ان في الاطباء اليوم فئة يستخدمون التنويم المغنطيسي

قالت نعم اسمع بهم وما بعد ذلك

قال ومن خواص ذلك التنويم استهواء النائم في كل ما يريدهُ المنوّم فاذا حببهُ او بغضهُ بشخص في حال النوم يفيق وهو على ما اراد منوّمهُ وقد علمت من ثقة ان ذلك الخائن قد بعث الى بلاد اوروبا يستقدم طبيباً ينومك ويستهويك حتى تحبيهِ

فنهضت عن السرير الى ارض الغرفة قائلة حاشا لله ان جميع منوّمي العالم لا يمكنهم ان يحببوني بهذا النذل الخائن واذا مت فان ترابي لا يحبهُ ولا يمكن ان يحبهُ

فقال لن فعل الاستهواء غريب يا سيدتي ولكنني اعلمك انك تستطيعين رفض النوم لان والدك سيدّعي ان ذلك الطبيب انما جاء لتطبيبك فتظاهري انك بخير لا تحتاجين الى طبيب وذلك كاف والافضل على ما ارى ان تطلبي السفر من هذه المدينة لترويح النفس فان الاطباء قد اشاروا بذلك في الشتاء ولم تكن الطريق مفتوحة لكثرة الثلوج واما الآن فقد جاء الربيع وان الجولان في لبنان لما تتوق اليهِ النفس وينشرح لهُ الصدر واظنك اذا أظهرت السلوى والاذعان لا يعود ثم داع لاستجلاب المنوّم

قالت لقد نطقت بالصواب فارجع هذا الكتاب الى ما بين اوراق والدي لئلا يعلم باطلاعنا عليهِ واخرج خارجاً وانا ادبر امر سفري

فخرج وجلست هي في غرفتها باهتة تردد في ذاكرتها امر ذلك الكتاب ولما تتصوَّر شفيقاً حياً تكاد تطير من الفرح وقد احسَّت بعد تجدد آمالها انها احسن صحة

فلما كان وقت الغداء جاءَ والدها ليتناولهُ معها وكان قد قضى نصف ذلك النهار مع عزيز فلما رأَى فدوى كذلك سرَّ كثيرًا واستبشر برضاها ولما جلسا الى المائدة اخذا في اطراف الحديث فقال الباشا اراك اليوم والحمد لله في صحة جيدة

قالت نعم يا ابتاه واني اشكر الله على ذلك ولكنني اشعر باحتياجي الى الخروج من هذا الفندق ومنْ هذه المدينة

قال لقد صدقتِ وانا ارى كما رأَيتِ فالى اين تريدين الذهاب.

قالت اسمع الناس يطنبون بجودة هواء لبنان ولا سيما في اوائل الصيف فالافضل ان نسير الى احدى القرى حيث يمكننا الاقامة في فندق او منزل بضعة اشهر فمتى انقضى الصيف نعود الى بيروت ولي شديد الامل ان تكون صحتي جيدة جداً باذن الله

فاستغرب الباشا ذلك منها ولم يراجعها قط وخيل لهُ ان ذلك التحسن في صحتها ناتج عن سلواها شفيقاً فازداد سروره

الفصل الخامس والثمانون

﴿ قرية عاليه ﴾

فسار بعد الغداء توًّا الى عزيز وعلى وجههِ امارات البشر فقص عليهِ ما دار بينهُ وبين ابنتهِ فقال عزيز وقد رقص قلبه في صدره وانا ماذا افعل قال اما مسيرك معنا في عربة واحدة فلا يليق ولكن يمكنك ان تتبعنا بعد بضعة ايام فاننا ذاهبون الى قرية عاليه وهي على مسافة ثلاث ساعات في العربة من هنا وموقعها في سفح جبل عال تشرف على بساتين وغياض

ثم امر الباشا بخيتاً ان يهيئ ما يلزم للسفر وبعد يومين سار الباشا وابنتهُ وبخيت في عربة حتى وصلوا قرية عاليه فاتخذوا لهم مكاناً في بيت لبعض اهل القرية

اما فدوى فلما اشرفت على ربى لبنان تعجبت من ارتفاعها وخصبها على كونها صخرية واما عاليه فاعجبتها وتحسنت صحتها فيها كثيرًا وكانت تخرج مع والدها او مع بخيت الى الكروم خارج القرية فيأكلون ما حضر من الفاكهة ويروّحون النفس باستنشاق الهواء النقي الذي ليس لهُ مثيل في العالم

فلم يمض شهران حتى احست فدوى بتحسن بيّن في صحتها واما عزيز فانهُ لحق بهم واتخذ لهُ مكاناً بالقرب من بيت الباشا حتى يطمئن قلبهُ على فدوى وهو لا يطمع مع ذلك بمشاهدتها ولكنهُ كان يعلل

النفس بمواعيد والدها ورأى بعد مشورته ان لا حاجة الى التنويم لانها اخذت تسلو شفيقاً وتميل اليهِ فبعث الى اوربا يؤخر مجيء المنوّم

اما فدوى فكانت تسلي نفسها ما استطاعت بالذهاب الى الكروم والينابيع مع والدها او بخيت غير ان افكارها ما انفكت قلقة على شفيق

ففي ذات يوم من ايام سبتمبر كانت قد خرجت مع بخيت للنزهة في بعض الكروم ولما استقرَّ بهما المقام على صخر مرتفع مشرف على عدة آكام يكسوها الكرم والتين والمشمش وغيرها وقد مالت الشمس الى الزوال واصبح منظر تلك التلال مع ما تشرف عليهِ من سواحل بحر الروم عن بعد شاسع منظرًا بديعاً تزينهُ اشعة الشمس المائلة الى الاصفرار ويكلل البحر عند الافق الشفق المتعدد الالوان التي لا يقوى اشهر مصوري العالم على تقليدها

فأَخذت تتأَمل في تلك المناظر البديعة فمرَّ في خاطرها الزمن الماضي وتذكرت شفيقاً واحواله وما تخافه عليهِ من الخطر فبهتت مدة وقد ملأَ الدمع عينيها وازداد بها الوجد حتى بكت فلحظ بخيت منها ذلك فاخذ يشغلها بالاحاديث والآمال فقالت لهُ آه يا بخيت ان هذا القلب لم يعد يمكنهُ الاحتمال فها قد اصبحتُ كريشة في مهب الريح لا تستقر على حال فلا ادري اذا كان ذلك الحبيب ... آه وسكتت ثم قالت لا اعلم يا بخيت اذا كان لا يزال حيًّا وما انا في يأْس من حياتهِ بعد ان قرأْنا ذلك الكتاب ولكن التردّد صعب بل هو اصعب الحالات . وزد على كل ذلك ان هذا النذل الذي قد نضب ماء الحياء

من وجهه لا يزال يميل اليَّ بعد ان عرف اني لا اقدر ان اراهُ ولا يمكن ان اميل اليهِ او اقبل بهِ فكيف يمكنني ان ارى شخصاً يترصد خروجي ودخولي ويسترق النظر اليَّ وانا لا اطيق النظر اليهِ والانكى من كل ذلك ان والدي قد وافقهُ على قصدهِ واخشى ان يغريهُ على التعجيل في انهاء ذلك الامر فنقع في بلاء اعظم ويظهر انهُ اطمأَن ولم يعد في عجلة من الامر اما اذا عاد الى العجلة فاعود الى قصدي السابق وافضل الموت على حياتي مع من لا احبهُ وهو لا يُحب الذي أُحبهُ وترقرقت الدموع في عينيها

فابتدرها بخيت قائلاً طيبي قلباً يا سيدتي وتحققي ان الفرج قد صار قريباً اما امر الاقتران فشيءٌ يسهل تأْجيلهُ طالما كنت تظهرين لسيدي انك لا تكرهين ذلك النذل الخائن اما اذا رأَى منك كرهاً له فانه يعجل في الامر انتقاماً منك واعلمي وحياة رأْسك وشرفك وعفافك ان قتل عزيز اسهل لديَّ من شرب كأْس ماء ولا يتعجب ضميري قط لانه مستوجب لاكثر من القتل ولكنني لا ارى داعياً للتعجيل عليهِ طالما كنا لا نخشاه وهو لا يتجرأُ على النظر اليك فلا حاجة بنا ان نعرض بانفسنا لانتقام الحكومة او لغضب سيدي الباشا اما اذا رأَيت الحاحاً يوجب اقل كدر لك فاني اقتلهُ ولو كان داخل القلاع والحصون ولا ابالي اذا قضيت بعد ذلك

فقالت لا تذكر القتل امامي اني لا استطيع تصورهُ قالت ذلك وتنهدت . ثم قالت والامر الذي يهمنا الآن انما هو الالتقاء بمنى فؤَادي ومهجة

كبدي آه من الدهر الخؤون وبكت ...... ثم قالت والتخلص من هذا الانسان الذي لا اقدر ان احبهُ والله يعلم ذلك

ففكر بخيت قليلاً ثم قال ليس لنا يا مولاتي الاَّ ان نشغل سعادة والدك بالاسفار من مكان الى آخر فانهُ عند ذلك يؤجل امر الاقتران لبعد عودنا الى القاهرة ونحن لا نعود من هنا الا متى علمنا ما انتهى اليهِ امر سيدي شفيق

الفصل السادس والثمانون

كشف السرّ

فقالت فدوى بورك فيك يابخيت لقد نطقت بالصواب فهيّا بنا نعود الى المنزل لان الشمس قد اغربت فنهضت وفيما هما في الطريق لحظ بخيت على طريق العربة المؤدّية الى القرية رجلاً عرفهُ من ملابسه انهُ ساعي البريد قادماً من بيروت فأنبأَ سيدتهُ فقالت اليك بهِ لعل لنا معهُ كتباً من والدتي فاسرع اليهِ فلما التقى بهِ عرفهُ الساعي فقال لدي كتب لسعادة الباشا وهمَّ الى (الجزدن) ودفع اليهِ كتابين فاذا باحدهما اكثر سماكة من الآخر كأن فيهِ اكثر من كتاب فقالت لهُ فدوى لعل لي في هذا الكتاب كتاباً خاصاً بي ومتى وصلنا الى والدي نعلم الحقيقة ولما وصلا البيت لقيا الباشا وقد فرغ صبرهُ في انتظار البريد فاخذ الكتابين وجلس وابنتهُ في الحجرة وفضَّ اول كتاب وقرأَهُ ثم

فضَّ الآخر واذا في طيه كتاب آخر ورقهُ قديم وكانت فدوى اثناء قراءة الكتاب صامتة تنظر الى ما يبدو من والدها فاذا بهِ وهو يقرأُ قد ظهر على وجههِ علامات التعجب فخفق قلبها ورغبت في استطلاع الامر لكنها لم تشأ ان تقطع قراءة والدها ثم رأتهُ قد تناول الكتاب الآخر القديم وفتحهُ واخذ يقرأُ فيهِ وهو في اندهال فلم تعد تستطيع صبرًا فاخذت تخطر في الحجرة فادرك والدها منها ذلك فتظاهر بانشغالهِ في امر مهم خارج الغرفة وخرج ثم عاد وقد اخفى احد الكتابين فأدركت فدوى ان في الكتاب الآخر ما يهمها فصبَّرت نفسها ولكنها سألت والدها عن الاخبار فقال ان والدتك في خير وهي تود المجيء الى هنا . فقالت ولماذا . قال لقضاء فصل الصيف والذهاب الى دمشق لمشاهدة والديها

فقالت فدوى حبذا مجيئها فاني استأنس بها في هذه الديار فهلاَّ الححت عليها بالمجيء قال سأكتب اليها بشأن ذلك

اما فدوى فما برحت تفكر بالكتاب الذي اخفاهُ والدها عنها ولم تعد تعلم كيف تصبر نفسها فبعد العشاء وذهاب الباشا الى غرفة منامهِ خلت ببخيت واخبرتهُ الخبر فقال لها طيبي نفساً فان عليَّ بتلك الورقة واطلاعك عليها

قالت اريد منك ذلك عاجلاً

قال عليَّ بهِ الليلة ان شاء الله وسآتيك بالكتاب في اثناء هذا الليل

قالت سر وفق الله مسعاك

ومضى بخيت واستلقت فدوى على فراشها للرقاد وجفنها لم يغمض قط وكانت اذا سمعت صوتاً تظن بخيتاً قادماً فمضى نصف الليل ولم يأت وفي نحو الساعة الثانية بعده سمعت وقع اقدام في الغرفة وكان النور فيها ضعيفاً فانتبهت وجلست واشعلت شمعة فناولها بخيت الورقة فدنت من الشمعة واخذت تقرأ فاذا فيها

«اعلمي يا امرأتي العزيزة ان حكاية ذلك الصندوق وذلك الشعر الملوّث بالدماء حكاية قد كتمتها عن جميع المخلوقات نيفاً و ٢٣ سنة وقد كنت عازماً على كتمانها الى ان يقضي الله بما يشاء على ان الحاحك وسفرنا في البحور الآن حملاني على كتابة هذا اليك حتى اذا اصابني سوء في البحر او البر فتقرئين هذه الورقة وتعلمين حكايتي واصلي وفصلي

اما اصلي فمن دمشق في بلاد الشام ولدتُ من والدين لم يولد لهما سواي الّا ابنة وربينا في رغد ودلال حتى كانت حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ التي جرت على اثر حوادث لبنان المفجعة التي ذبح فيها نصارى حاصبيا ودير القمر وغيرهم ذبح الاغنام في سراي كل من تينك المدينتين على علمٍ من الضابطة ورجال الحكومة

اما حادثة دمشق التي اورثت لي هذا التشتت فسببها محاولة مسيحي دمشق السير على مقتضى التنظيمات الخيرية التي سنها السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦ بشأن البدلية العسكرية واصرار واليها احمد باشا اذذاك على تكليفهم خلاف ذلك حتى تفاقم الخطب وكتب الى ديوان الاستانة يشكوهم فوردت عليهِ الاوامر مؤذنة بتأديبهم فجمع اليهِ مشائخ

المدينة وعلماءها في القلعة واستفتاهم في تأديب اولئك العاصين فافتوهُ الاّ قليلاً منهم

ففي صباح الاثنين الواقع في ٩ تموز سنة ١٨٦٠ بدأَت الثورة في ناحية باب البريد بقرب الجامع الاموي فثار اهل تلك الناحية بدعوى الاهانة التي لحقت بالمسلمين على اثر حكم الوالي على بعض السوقة منهم بالطواف في الاسواق وكنسها وهم مغلولون عقاباً لهم على ما ارادوهُ بالمسيحيين من الاهانة قبل ذلك برسم صورة الصليب على الطرق

وقد كنت انا في جملة اهل باب البريد ايضاً فرأيت جيراني قد ثاروا كافة واقفلوا حوانيتهم وحملوا سلاحهم غضباً لما لحق اولئك من الاهانة على زعمهم فاقفلت حانوتي وقد ثارت في رأسي خمرة الجهل وانا الى ذلك الحين لم اعلم سبب تلك الثورة فتبعت الجماهير وطفقنا ندخل البيوت ونقتل كل من تصل اليهِ يدنا من المسيحيين وكنت لا اتجاوز العشرين من العمر فاتيت اموراً لم يحللها الله ولا احد من الانبياء وما زلت في ذلك حتى اتيت بيتاً وقد تلطخت ثيابي بالدماء وانا لا افقه ما افعل لان الجهل اعمى بصيرتي فعالجت البـاب حتى كسرتهُ ودخلت البيت وانا في تلك الحالة من التهيج والقساوة والهيئة المخيفة والخنجر في يدي يقطر دماً فحالما وطئت الرخام المرصوف في تلك الدار خرج اليَّ شاب في شرخ شبابهِ وترامى على قدميَّ يقبلهما ويتضرَّع اليَّ ان اقتلهُ ولا ادخل بيتهُ فلم اصغَ الى قولهِ ولا رحمت دموعهُ بل رفستهُ برجلي وازددت رغبة في الدخول فقال ليس في البيت احد الا فتاة هي

خطيبة لي فاقتاني واكفف عن البيت لئلا يصيب الفتاة سوءٌ فما كان مني الا اني طعنته بخنجري فصاح صيحة الالم الشديد وقال « اودعك الله يا حبيبتي جعلت فداك » ثم نظرتُ واذا بفتاة كالبدر طلعة والخيزران قواماً محاولة الشعر حالكته قد خرجت من ذلك البيت وانقضت على ذلك الشاب ورمت بنفسها عليه وقد قطعت شعرها ونادت باعلى صوتها « حبيبي روحي فداك لا اصابك الله بسوء » فهممت ان امسكها وارفعها عنه فاصابت قبضتي شعرها واردت انهاضها فاذا هي ميتة لا حراك بها فشعرت من تلك اللحظة كأني صحوت من سكرة وعلمت اني قتلت نفسين بريئتين وكانت يدي لا تزال قابضة على شعر الفتاة فجذبتها اريد استخراجها فكان الشعر قد التصق بيدي بسبب الدم الذي كانت يداي ملوثة به فاقتلع بعض ذلك الشعر بيدي فوددت لو تنفتح الارض وتبتلعني فخرجت من ذلك الباب واذا بجماعة في لباس المغاربة شاكي السلاح يتقدمهم رجل جليل القدر في مثل لباسهم ولكن اكثر اتقاناً وعظمة فحالما وقع نظري عليه عرفت انه الامير عبد القادر الجزائري وان هؤلاء رجاله يطوف بهم المدينة لانقاذ النصارى من الذبح وعلمت بعد ذلك انه فرق نحو اربعمائة من رجاله في الاسواق مسلحين يحملون العائلات المسيحية الى بيته في العمارة وقاية لهم من القتل وقد خرج هو بنفسه ايضاً لمساعدة رجاله فاتفق انه وصل الى ذلك البيت وقد تحولت للخروج منه . فلما عاين القتيلين في ساحة الدار يتخبطان وقد اختلط دمها بالماء المنسكب من (الفسقية) على الرخام صاح بي قائلاً « يا اقسونك

يا جاهل » ثم ناداني باسمي وامر رجالهُ ان يدخلوا الدار فارتعدت فرائصي وكأني شعرت بشنيع فعلتي ولم اعد اعي ما اعمل فحملني حب النجاة ان افرَّ من وجه هؤلاء المغاربة فأدركني واحد منهم وهمَّ بالقبض عليَّ فابتدرتهُ بطعنة من خنجري اصابت صدرهُ فسقط وتحوّلت الى داخل البيت وانا لا ادري الى اين اذهب فسمعت الامير يقول « اقبضوا عليه او اقتلوهُ لانهُ مستوجب القتل » فأسرعت الى نافذة وثبت منها الى الطريق وطلبت الفرار وما زلت مسرعاً لا الوي على شيء بيدي الواحدة خنجر يقطر دماً وبالاخرى خصلة الشعر ملوّثة بالدماء وانا من الجهة الواحدة آسف على ما فرط مني ومن الجهة الاخرى خائف من انتقام ذلك الامير وقد علمت انهُ لا بد من ان ينتقم مني فطفقت فارًّا لا ادري الى اين انا ذاهب ولا من اين انا آت وصورة تلك الفتاة وذلك الشاب نصب عيني وقلبي يرتجف خوفاً من غائلة ما فعلت حتى سدل الليل نقابهُ فعرجت الى منفردٍ وجعلت انظر في امري نقلت في نفسي لأختبئنَّ في مكان حتى ارى ماذا تؤول اليه هذهِ الحادثة المشومة. فاختبأت بضعة ايام حتى علمت ان الحكومة السنية بعثت فواد باشا مندوباً خصوصياً يتحرّى الحقيقة ويقتل الجانين فايقنت ان الامير عبد القادر يترقب الظفر بي حتى يخبر لجنة البحث لتحكم عليَّ بالقتل وانا استحقهُ شرعاً وعرفاً فخرجت من دمشق الشام ولم أخبر احداً بخروجي وجئت الديار المصرية وانا لا ازال خائفاً من غائلة ما جنتهُ يدي وكنت قد حفظت تلك الخصلة من الشعر في صندوق لكي لا انسى ذنبي ولما

استتب لي المقام في القاهرة لم ارَ افضل من انتظامي في خدمة احدي القنصلاتات بأي صفة كانت اذ اكون هناك تحت حمايتها اذا اقتضت الحال فانتظمت في خدمة قنصلاتو انكلترا وما زلت اجدُّ واترقى حتى وصلت الى ما انا عليهِ وقد ابدلت اسمي عبد الرحمن بابراهيم اخفاءً لحقيقة طائفتي خوفاً من ان يحول اسمي دون بلوغ مرامي

وقد كنت عازماً على كتمان هذهِ الحكاية حتى يحكم الله فيها فاما ان يسافر الامير عبد القادر من دمشق او ان يموت او تأتي ساعتي وبما انكِ اردت معرفة هذا السرّ وقد الححت عليَّ في استطلاعه كتبت اليك هذا حتى اذا غرقت في البحر الذي نحن مسافرون فيهِ وقرأتِ هذا فتعلمين ان والدتي ووالدي لا يزالان في دمشق وقد علمت ان شقيقتي اقترفت برجل عظيم غريب الديار فأعلمي ولدنا بذلك ايضاً حتى يسير الى جدّيهِ فانهما يسرّان بمشاهدتهِ كثيرًا اذا كانا لا يزالان في قيد الحياة واما اسم عائلتي فهو بيت كذا في سوق كذا اما الصندوق فأحرقيهِ بجميع ما فيهِ والسلام »

الفصل السابع والثمانون

دمشق الشام

فلم تتم فدوى قراءة ذلك الكتاب حتى اختلج قلبها في صدرها وارتجفت ركبتاها وبردت اطرافها ونادت قائلة بخيت بخيت ما ظنك بكاتب هذا

اليس والد حبيبي شفيق فان اسمهُ ابراهيم في قنصلاتو انكلترا وولدهُ وحيد والا فما معنى اخفاء والدي هذهِ الورقة عني

فتبسم بخيت وقال بصوت منخفض ان لذلك سبباً مهماً

قالت وما هو

فأَخرج من يدهِ ورقة أُخرى وقال وهذا كتاب والدتك المرسل مع هذا فتناولتهُ وقرأَت فاذا فيهِ

«انت تعلم حكاية ضياع اخي اثناء حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ وقد استنتجت من قراءة هذهِ الورقة ان كاتبها هو اخي بعينهِ فبعثت بها اليك لارى رأْيك لعلك تعرف شيئاً عن الرجل واحب المجيء اليكم لأَرى والديَّ ونتفاوض في كيفية البحث عنهُ الخ»

فبهتت وقد أَخذ العجب منها مأْخذاً عظيماً ثم نادت قائلة « انهُ من ذوي قرابتي آه يا بخيت انهُ ابن خالي. آه لو عرفت ذلك قبل الآن» ثم صمتت مدة تتأَمل بهذا الاتفاق العجيب وتذكرت مصيبتها وقد عظمت في عينيها وازدادت في البكاء والنحيب

فقال لها بخيت هل انت واثقة بما تقولين

قالت اذكر قول والدتي مرَّة بأَن لها اخاً فُقد منذ حادثة دمشق وها انهُ والد حبيبي شفيق وهذا هو سبب محاولة والدي اخفاء ذلك عني لئلا يهيج اشجاني

فقال بخيت عليك بكتمان الامر كأَنك لم تعلمي شيئاً منهُ ومتى جاءت والدتك كاشفيها بالحكاية واستطلعي كنه الامر منها وها اني

عائد بالاوراق الى حيث كانت قال ذلك وخرج وعادت هي الى فراشها وقد تعاظمت هواجسها وتضاعف حبها لشفيق بعد ان عرفت بما بينهما من القرابة

وفي اليوم التالي بكَّرت للخروج الى الكروم وسار بخيت برفقتها فافتتحت حديث الامس فرفس الارض برجلهِ قائلاً اؤكد لك يا سيدتي ان الله سيطيب قلبك قريباً لان محبتكما طاهرة واساسها القرابة عن غير علم منكما فان هذهِ الحجارة تقضي باجتماعكما والله يفعل ما يشاء فأرى الآن ان تلحي على سيدي الباشا ليستقدم سيدتي الى هنا ومتى جاءت تذهبون جميعاً الى دمشق لمشاهدة جدَّيك ومن هناك نرى ماذا يتمّ

فلما عادت أَلحَّت على والدها بذلك فأَجابها لانهُ كان يراعي رأْيها كثيرًا حفظاً لرضاها على عزيز حسب ظنهِ وبعد مضي بضعة اشهر جاءت والدتها فاتخذت فدوى كل وسيلة حتى خاطبتها بامر تلك الوصية وافهمتها ان اخاها هو والد شفيق حبيبها فقالت والدتها نطلب الى الله ان يجمعنا بأَخي وعسى ان يعود شفيق من السودان حيًّا

فتنهدت فدوى وسكتت تنتظر الفرج من عند الله

وكان الشتاء قد جاء ولم تعد تطيب السكنى في لبنان لتراكم الثلوج وانهيال الامطار واشتداد البرد فقرَّ رأْيهم على السفر الى دمشق ليشاهدوا الاهل ويقضوا بقية فصل الشتاء هناك

فبعث الباشا الى بيروت يكتري عربة خصوصية من شركة طريق الشام فلما حضرت العربة ركب بها الباشا وامرأَتهُ وابنتهُ وركب بخيت

بجانب السائق تاركين سائر الخدم والامتعة في عاليه

اما عزيز فتواطأ مع الباشا على ان يتبعهم الى دمشق فسارت بهم العربة على تلك الربى في طريق كثيرة التعرج تارة يصعدون وطوراً ينحدرون حتى وصلوا البقاع العزيزية المشهورة بخصبها واتساعها في منتصف الطريق بين بيروت ودمشق

فانذهل الباشا وفدوى بنوع خاص لذلك المنظر البهج فان المشرف على تلك البقاع الخصبة يخيل لهُ انها بساط متسع منقسم اقساماً مربعة عديدة الالوان بين احمرقان واسمر واخضر وازرق وسنجابي وعنابي وابيض كاختلاف الزرع في النضج والتربة في الحراثة

فوقفت بهم العربة بالقرب من فندق في ذلك السهل نحو ساعة حتى استراحوا ثم عادوا يريدون دمشق فلم يدركوها الاَّ بعد الغروب فنزلوا في فندق مشرف على نهر بردى ونزل الباشا في الصباح التالي يفتش عن حمويهِ فاذا هما لا يزالان في بيتهما القديم فلما شاهدا الباشا لم يعرفاهُ لطول غيابهِ عنهما وهو ايضاً لم يعرفهما لما كان من تأثير الشيخوخة عليهما مع ما رافق حياتهما من الاحزان والاكدار ولما عرفاهُ وعرفهما همَّا اليهِ وقبلاهُ وقبل ايديهما وسألاهُ عن ابنتهما فقال هي هنا معي بخير وابنتي كذلك وانما جئت وحدي لكي اتحقق وجودكما في البيت فتقدما اليهِ ان يبعث اليها فيأتيا فذهب هو بنفسهِ وجاء بهم جميعاً ونزلوا في بيت عمهِ ولا تسل عن قلب ذينك الوالدين وما اظهراهُ من الاشتياق لابنتهما التي لم يرياها منذ ٢٥ سنة تقريباً وقد احبَّا فدوى بنوع

خاص لما كان في وجهها من اللطف والجمال مع ما هي فيهِ من الضعف

فمكث الباشا وسائر عائلتهِ في دمشق بقية ذلك الشتاء الى ربيع سنة ١٨٨٥ وكان عزيز قد جاء دمشق يترقب نيل مرامهِ وكان قد خامرهُ ريب في مواعيد الباشا لطول مدة الانتظار ولكنهُ لم يجترئ على مخاطبتهِ الأ برقة وحسن اساوب لئلا يغضبهُ اذ كان قد عرف ان يدهُ على جميع ممتلكاتهِ ولا تسل عن ندمهِ على كتابة تلك الورقة ولم يكن يظهر ذلك امام احد

ولما جاء الربيع اراد الباشا الرجوع الى مصر وألحّ على حمويهِ ان يذهبا معهُ اذ ليس لهما ارب في دمشق وكان قداطلعهما على تلك الورقة فقال اننا من الممكن ان نجتمع بولدكما في مصر اما الى هنا فلا اظنهُ يأتي فالافضل ان تسيرا معنا نقضي بقية هذه الحياة معاً في مصر فاستحسنا الرأي بل كان ذلك غاية مناهما تخلصاً من تذكر ولدهما في المدينة التي فقد فيها فباعا كل ما كان لهما من الامتعة والاثاث والاملاك وهاجرا دمشق وقد تجددت احزانهما بعد تلاوة تلك الورقة وبكيا من اجلها بكاء شديدًا

الفصل الثامن والثمانون

وادي القرن

ففي اوائل شهر نيسان (افريل) سنة ١٨٨٥ اكتروا عربتين ركب في احداهما فدوى وجدّاها وكانا قد احبّاها محبة عظيمة جداً ولم يعودوا

يفارقانها ساعة وفي الاخرى الباشا وامرأته وبخيت وجميعهم ملثمون بالكوفيات الحريرية الدمشقية وقد التفّ الرجال منهم بالعبي وقاية لهم من غبار الطريق واتباعاً لعادة المسافرين في تلك الجهات فبرحوا دمشق صباحاً على نية ان يصلوا البقاع في الاصيل ومن هناك يعرجون الى بعلبك فيصلونها في الغروب فيبيتون فيها ويقضون بها اليوم التالي لمشاهدة قلعتها الشهيرة ثم يواصلون السير في الغد الى بيروت وكان الباشا قد اخبر عزيزًا بذلك حتى يقتفي اثرهم

فسارت العربتان في الطريق المعدة للمسافرين بين دمشق وبيروت وما زالوا سائرين وعربة الباشا الى الامام والعربة الثانية الى الوراء مدة ثلاث ساعات وكانتا سائرتين بسرعة بأمر الباشا لئلا يداهمهم الليل في الطريق وفيها من الاماكن الخطرة التي تقطعها اللصوص ويتعرضون بها لابناء السبيل للنهب والقتل . وفيما هم سائرون حرنت خيل عربة فدوى وجعلت تتقهقر الى الوراء والطريق هناك على حافة تحتها هوّة عظيمة فخاف السائق ان تهوي بهم العربة الى ذلك الوادي فانذرهم بالخطر فتحوّلوا من العربة حالاً اما الخيل فلم تكن تزداد الاّ حرونًا حتى صدمت العربة صخرًا فتعطل بعض ادواتها فبعث السائق الى اقرب مركز للشركة فاتى ببعض الرجال لنجدته فحلوا الخيل واخذوا في تصليح العربة وكان الباشا قد عاد بعربته بعد ان عرف ما حل بالعربة الاخرى وابثوا ينتظرون تصليحها فلم يتم الا بعد الظهر بساعتين فركبوا وساروا يجدون السير خوفا من خطر الطريق اذا داهمهم الليل فيها

فبدلوا الخيل في محطة ميرساون وساروا قليلاً فاشرفوا على انحدار ينتهي بواد عميق بين جبلين والشمس قد قاربت الزوال وشاهدوا الى جانب الطريق قبل مدخل الوادي بنـاءً قديماً مهجوراً فعجبوا لهُ وقد هابهم سكون ذلك المكان وقفره ثم لحظوا في ذلك البناء اشخاصاً في لباس اهل تلك الناحية قد وقفوا امام البناء ينظرون الى العربتين وهما سائرتان حتى مرتا بهم ثم رآهم بخيت بعد ان بعدت العربتان يسيرون في اثرهما رويداً رويداً فأوجس خوفاً منهم ولم يخبر احداً لئلا يخافوا ولكنهُ اوعز الى السائقين ان يجدا في السوق ليبعدوا عن أُولئك . وما زالت العربتان سائرتين حتى دخلتا تلك الوادي فاذا هم بين جبلين شامخين شموخاً عظيماً حتى لا يرى المار من السماء الا جزءًا صغيراً جداً فقال احد السائقين يخاطب بخيتاً هذا هو المكان المعروف بوادي القرن المشهور بقاطعي الطرق وكان الخطر شديداً جداً في الزمن الماضي واما الآن فقد نظمت شركة العربات خفراً من الفرسان يجولون ذهاباً واياباً حماية لها وتهديداً للذين يقطنون هذا الجوار من التعدي والحكومة ايضاً قد نظمت نفراً من الجند لهذه الغاية وقد شاهدنا بعض هؤلاء في طريقنا منذ ساعة فقال الباشا نعم قد رأيناهم — وقد اثر ذلك الكلام في قلبهِ خوفاً شديداً لا سيما عند ما تذكر ان معظم رفاقهِ نساء وشيوخ لا يقوون على الدفاع فبهت الجميع لرهبة ذلك المكان المخيف مع ما سمعوهُ من حديث ذلك الوادي مما يتحدث بهِ الخاص والعام في سائر بلاد الشام

فسارت العربتان برهة والرهبة مستولية على الجميع وكان الفرس الذي تبدل في محطة ميرسلون حروناً فأجفل بغتة واخذ يسير القهقرى حتى دارت العربة وسقطت احدى عجلاتها في قناة على جانب الطريق ولم يعد طلوعها ممكناً الاّ رفعاً بالايدي وكان الباشا فيها فاستعاذ بالله ونزل بخيت لمساعدة السائق في اخراجها وما زالوا يعالجونها مدة حتى غابت الشمس واظلمت الدنيا وكان السائقان من الجهة الاخرى ينقمان على الساعة التي ركب فيها هؤلاء الركاب معهم وكان الباشا يسمع السبَّ باذنيه ويغض الطرف لما رأى من افتقارهِ الى ذينك السائقين اذا اقتضت الحال فاخذ يلاطفهما ويقدم لهما سكاير للتدخين وغير ذلك من انواع الملاطفة وهم لا يزدادون الا غضباً واما بخيت فكان قد درس طباع القوم وسمع كثيرًا من حوادث وادي القرن فاخذ يتظاهر امام السائقين بعدم الاكتراث تشجيعاً لهما ووقاية من تعديهما

ولم تخرج العربة من القناة الاّ بعد الغروب بساعة فتشاءم الجميع مما اتفق لهم في ذلك اليوم وكان البرد قد اشتد فبالغوا في التاثم حتى لم يعد يظهر من وجوههم الاّ العيون وتزملوا بالعبي تزملاً محكماً نساءً ورجالاً وكل منهم يحاذر ان يسمع صوتاً او يرى شبحاً لهول ذلك الوادي وشدة رهبتهِ . اما فدوى فكانت مع جدَّتها في عربة مقفلة وقلما علموا شيئاً مما كان يحاذرهُ الآخرون غير ان منظر ذلك الوادي كان كافياً لارهاب اشد الرجال

فانار السائقان مصابيح العربتين وهمَّا بالسوق وقد لعنا ذلك اليوم

وكان بخيت راكباً بجانب السائق في العربة الامامية · ولم تجر الخيل حتى سمعوا وقع اقدام وراءهم فالتفت بخيت فاذا بالرجال الذين خرجوا من ذلك البناء قد اسرعوا يريدون ادراك العربتين فاوعز الى السائقين ان يسرعا واذا بهؤلاء الرجال قد ادركوا الخيل وامسكوا باعنتها واوقفوها فصاح بهم بخيت وكان منظرهُ مخيفاً للغاية لانهُ كان شديد السواد محماق العينين ماثماً بالكوفية فاصبح منظرهُ في ذلك النور الضعيف كمنظر الجان فلما صاح بهم اجابهُ احدهم قائلاً « هاتوا ما عندكم وفوزوا بارواحكم » فاجابهُ بخيت بصوت جهوري وقلب لا يهاب الموت « ليس عندنا الَّا السيوف القاطعة والنار الدائمة واذا اعدت السؤال لا ينوبك الَّا الوبال انت وجميع هؤلاء الانذال » فقال الرجل « فوزوا بارواحكم ذلك خير لكم فانكم نفر قليلون فنذيقكم الهلاك بهذه السيوف » وجرد سيفهُ

فوثب بخيت من العربة وفي يده الريفوافر واطلق منهُ طلقاً قائلاً « اننا لانهاب سيوفكم وهذه نارنا تحرق ابدانكم فسيروا بانفسكم من هنا قبل ان يدرككم الهلاك » وكان بخيت يتكلم وقلبهُ واجس على اسياده ولا سيما فدوى · اما السائقان فلانهما مسؤولان عن العربتين امام اصحاب الشركة اضطرا الى مشاركة بخيت بالدفاع

اما اولئك اللصوص فكانوا قد علموا بنور المصابيح ان ليس في هاتين العربتين من الرجال الاشداء غير هذا العبد والسائقين فصفر احدهم بصفارة فخرج من جوانب الطريق نفرٌ من امثالهم بالسيوف والعصي فوقع الرعب في قلوب الجميع اما بخيت فاشتدت بهِ النخوة حتى اوصلتهُ

الى الجنون ونقدم الى كل من السائقين قائلاً « انكم اذا ساعدتمونا تنالان من سيدي الباشا مالاً كثيرًا وتنقذان انفسكما فهيّاً بنا يا رجال لبنان » فاتّقدت بهما نار الحمية واستل كل منهما (شاكريته) خنجره ونزلا يريدان ايهام هؤلاء اللصوص انهم عدة كثيرة

وكان هؤلاء قد همّوا الى العربتين فأطلق عليهم بخيت بعض الطلقات النارية فجرح اثنان منهم وبدلاً من ان يفرّوا جمهروا حتى بلغ عددهم اكثر من العشرة وأُصيب بخيت بضربة في كتفهِ فصاح من الالم ولكنهُ لم يكف عن الدفاع

واما العربتان فان خيلها اجفلت من اطلاق النار وسارت القهقرى وجعلت ترفس الارض بارجلها فأصبحت فدوى وجدّاها في خوف لا مزيد عليهِ وكذلك الباشا وامرأتهُ في العربة الثانية . وفيما الخصام قائم كان بعض هؤلاء اللصوص واقفين عند العربتين وقد أطفاوا مصابيحهما واخذوا يطلبون الى من فيها ان يسلموا ما لديهم فلم يمنع الباشا منهم شيئاً ووعدهم باكثر من ذلك اذا كفّوا عن اذاهم واما هم فلم يكن يرضيهم شيءٌ قط ثم جاء رفاقهم بعد ان تركوا بخيتاً مضرجاً بدماهُ بين حيّ وميت وقد فرّ السائقان

فنزل الباشا من عربتهِ ونزل ذلك الشيخ من العربة الثانية واخذا في استعطاف هؤلاء اللصوص واسترحامهم قائلين اننا نعطيكم كل ما تريدون وانما نريد منكم الكف عن اذانا لان بصحبتنا نساء فتقدم واحد منهم واشعل عودًا امام نافذة عربة فدوى فاذا فيها تلك العجوز وفدوى

الى جانبها في لباس السفر وفي وجهها من وراء اللثام جمال باهر فلما رأته بالغت في التلثم واخذت في البكاء والانتحاب مع جدتها فقال احد هؤلاء اللصوص لا تبكوا اننا نكف عن قتالكم اذا اعطيتمونا كل ما معكم وهذهِ الفتاة واشار الى فدوى فصاح الباشا وتضرع اليهم ان يستبدلوها بما شاؤوا فلم يقبلوا ثم امسكها احدهم بيدها وجذبها من العربة فسقطت على الارض فقامت الصيحة وتعاظم النواح والبكاء والاستغاثة وهؤلاء لا يبالون ولم يشغلهم شاغل عن جرّ فدوى على التراب يريدون حملها وقد همَّ بعضهم الى نهب العربتين

الفصل التاسع والثمانون

﴿ النجدة ﴾

وفيما هم في ذلك سمعوا صوت وقع خيول قادمة طراداً فظن الباشا انها نجدة لهؤلاء اللصوص واما هم فعلموا انها ليست لهم فخافوا واسرعوا الى نيل مرامهم فهمَّ بعضهم الى الباشا يفتشونهُ والبعض الآخر الى فدوى يريدون حملها والذهاب بها فصاحت « ويلاه اتركوني يا ناس وخافوا من الله » ولم تتم كلامها حتى وصلت الخيَّالة وهم ينادون « عنهم يا كلاب يا انذال » فعلم الباشا ان القادمين من الخفراء فاشتدّت عزائمهُ وكان قد سار الى ابنتهِ ليدافع عنها فلما وصلت الخيَّالة اطلقوا على اللصوص بعض الطلقات النارية فطلب هؤلاء الفرار ولما لم يبقَ احد منهم تقدم

الفرسان وعددهم خمسة الى العربتين فقامت فدوى الى عربتها فنظر اليهم الباشا فاذا هم ملثمون (بالكوفيات) وعليهم لباس العسكرية فتقدم اليهم شاكرًا وتوسل اليهم ان يرافقوهم الى البقاع او الى بعلبك وقال ان السائقين فرّا ونحن لا نعرف الطريق فضلاً عن الخطر فأَجابوا الطالب . فقال الباشا لبعضهم هلمّ معي نفتش عن خادمي حيث كانت الموقعة وساروا تحت جنح الظلام فاذا بنجيت يئن من الالم فسأَلوهُ عما بهِ فأَشار الى انهُ مصاب بجرح في كتفهِ وآخر في فخذهِ لا يستطيع النهوض فحملوهُ الى العربة وركب اثنان من هؤلاء الفرسان في محل السائقين وساقا العربتين وسار من بقي منهم راكباً حذاء العربتين

اما فدوى فكان قد سكن روعها واما قلبها فكان واجساً على بخيت وقد علمت انهُ جريح ولم يمض يسير حتى خرجوا من ذلك الوادي ووصلوا محطة الجديّدة فاذا بالسائقين فعنفهما الباشا على فرارهما فاعتذرا بانهما جاءا ليبلغا ما حصل لمأمور المحطة ليرسل من ينجدهم . ثم ركب كل منهما كرسيه بعد ان بدلا الخيل وانارا المصابيح وساقا العربتين وقد احاط الفرسان بهما وسار الجميع يريدون البقاع

ففي اثناء الطريق كان بمحاذاة عربة فدوى احد هؤلاء الفرسان وكان جدها الشيخ قد لحظ في محطة الجديدة على نور المصباح ان تحت عباءة ذلك الفارس لباساً ملكياً وليس عسكرياً كسائر رفقائهِ فلم يعتد بذلك فلما كان بازائهِ اراد الاستفهام منهُ عن بعض احوال تلك الجهات فادار شكيمة جوادهِ واشار الى احد رفاقهِ فجاء الى الشيخ وسأَلهُ عما يريدهُ

فتعجب الشيخ لذلك وكيف ان ذلك الفارس لم يكترث بسؤالهِ فلما جاءهُ الفارس الثاني وسأَلهُ عما يريد قال اريد منك ان تخبرني اولاً عن هذا الفارس رفيقك فاني سأَلتهُ عن بعض احوال هذهِ الجهات فلم يجبني والمنتظر منهُ ان يعرف ذلك جيدًا

فقال الفارس انهُ يا سيدي ليس خفيرًا ولا نحن خفراء

قال ومن هو اذًا ومن انتم

قال انهُ مسافر لقيناهُ في البقاع قادماً من بيروت وقاصدًا دمشق في عجلة وكان قد دنا الليل وهو لا يعرف الطريق ونحن جند لبناني ذاهبون في مهمة الى دمشق فطلب الينا مرافقتهُ فأَجبنا الطلب ويظهر انهُ كريم النفس جدًّا لانهُ حالما سمع استنجادكم هجم امام الجميع فتبعناهُ وقد عمل في نجاتكم عملاً لم نعملهُ نحن جميعنا ومع كثرة استعجالهِ في المسير الى دمشق لم يستنكف من مرافقتكم الى البقاع مع ان هذا الرجوع يؤَخر وصولهُ الى دمشق يوماً كاملاً على الاقل فاعجب الشيخ لهذهِ الشهامة وعوَّل انهُ عند ما يصلون الى البقاع يخبر صهره بذلك ليوفيه حقهُ من الشكر والثناء

وكانت فدوى جالسة بجانب جدّها تسمع حكاية الفارس فأَعجبتها تلك الشهامة وتذكرت حبيبها شفيقاً مثال الشهامة والمروءة فهاج بها الوجد واخذت دموعها تتساقط رغماً عنها ولم تكن تخشى ملاحظة جديها لان داخل العربة مظلم الاَّ اذا كلماها فانها لا تستطيع الجواب لاختناقها بالدموع

وفيما كان الشيخ يخاطب العسكري بذلك كان الباشا يخاطب عسكرياً آخر بازاء عربتهِ في احاديث مختلفة على سبيل التسلية ففهم منهُ الباشا مثلما فهم الشيخ فتعجب لشهامة ذلك الفارس ايضاً

وكان الفارس المحكي عنهُ سائقاً وراء العربة الخلفية التي هي عربة فدوى وهو في شاغل عن كل تلك الاحاديث بما يجول في خاطرهِ من الهواجس والتأملات تطلعاً الى دمشق التي يتوقع الوصول اليها بفروغ صبر ولم يحملهُ على تأخير وصولهِ اليها الا شهامتهُ

وما زالت العربتان جاريتين حتى سمع الباشا الفرسان يقولون قد وصلنا البقاع العزيزية واصبحنا على مسافة ٤ ساعات من بعلبك فقال الباشا اظن الافضل ان نبيت بقية هذا الليل في احدى القرى المجاورة لان حركة العربة قد اضرَّت بجراح الجريح ثم سأل عن اقرب قرية من الطريق فقيل لهُ ان هناك قرية على مسافة نصف ساعة فهمَّ ان يأمر السائق بالمسير اليها فاذا بخيت يئن وكان في عربة الباشا فسألهُ عن حالهِ فقال انهُ لم يعد يستطيع البقاء في العربة لحظة فأوقفوا العربتين فنزلت فدوى وهي ملثمة ودنت من والدها تسألهُ عن بخيت فطيب قلبها وبعث احد الفرسان يسأل عن اقرب بيت في ذلك الجوار فعاد حالاً واخبرهُ انهُ وجد بيتاً كبيراً على مقربة منهم فنزل الجميع وكانوا يشاهدون النور في البيت فترجل بعض الفرسان وحملوا بخيتاً على ايديهم وسار الجميع في الظلام يريدون ذلك البيت حتى اذا اقتربوا منهُ تقدمهم الفارس المجهول وهو لا يزال على جوادهِ وسأل عن اهل ذلك البيت فخرج

اليهِ رجل في لباس اسود لم يستطع تمييزهُ ولكنهُ هابهُ لاسترسال شعر رأسهِ على كتفيهِ وشعر لحيتهِ على صدرهِ وكان لباسهُ جبة سوداء في غاية البساطة فظنهُ راهباً فسأَلهُ الرجل عن غرضهِ فقال ان جريحاً معنا لم يعد يستطيع الركوب في العربة فجئنا بهِ اليكم فهل تريدون ان يبيت عندكم الليلة واجركم على الله . فبهت الرجل برهة كأَنهُ يفكر في امر طرقَ ذهنهُ ثم قال حسناً فليأْت ونادى قائلاً تعال يا احمد ساعد هؤلاء في نقل جريحهم الى هنا قال ذلك مشيرًا الى البيت فجاء رجل في مثل لباس ذلك الرجل واسرع الى موقف العربتين

اما ذلك الفارس فبعث يخبر الباشا ان لا بأْس من تقدمهم فتقدموا حاملين بخيتاً حتى دخلوا بهِ البيت واجلسوهُ على مقعد في احدى الغرف ودخل الجميع الا العسكر فانهم بقوا خارجاً

الفصل التسعون

﴿ أَغرب غرائب الإتفاق ﴾

فأَراد الباشا الخروج للثناء على هؤلاء الفرسان ولا سيما الفارس المجهول فشغلهُ بخيت بجرحهِ فكلَّف عمهُ الشيخ ان يخرج للقيام بذلك الواجب عنهُ بعد ان اشار الى فدوى وامها ان تحتجبا داخل احدى الغرف

فخرج عمُّهُ ونادى الفرسان ان يدخلوا فقيل لهُ انهم عادوا الى خيولهم يعدون لها علفاً فخرج اليهم وسأَل عن ذلك الفارس فجاء اليهِ

فأَمسك بيدهِ واراد ان يدخل بهِ البيت فرأَى امام ذلك البيت (مسطبة) عليها حصير فجلسا هناك وسهل البقاع امامها واسع فأَشعل كل منهما سيكارتهُ واخذا بأَطراف الحديث وكان الفارس ملتفًّا بالعباءَة ولا يزال اللثام على وجههِ

فأَخذ الشيخ يثني عليهِ قائلاً بلغني انكم اظهرتم شهامة قوية وبذلتم غاية جهدكم في انقاذنا فقد اصبح لكم فضل علينا فعسى ان نستطيع مكافأَتكم

فقال الفارس « اننا لم نفعل ذلك لمكافأَة وانما قد فعلناه لوجه الله فعسى انهُ سبحانهُ وتعالى » وتنهد ....

فقال الشيخ وقد رأَى في كلامهِ لغة مصرية يظهر ان حضرتكم قادمون من بلاد مصر قال نعم يا سيدي ونريد دمشق

قال الشيخ وهل لكم اهل هناك

قال ليس لي اهل فيها ولكن لي بعض الاصدقاء وقد جاءُوا اليها لقضاء بضعة اشهر

فقال الشيخ هل لك ان تخبرني عن هؤلاء الاصدقاء لاننا قادمون من دمشق في صباح هذا اليوم فلعلنا نعرف شيئًا عنهم والا فأَسأَلك الاغضاء عن جسارتي في هذا السؤَال

فقال الفارس وقد ازاح اللثام عن وجههِ تاركًا الكوفية على رأسهِ العفو يا سيدي ليس في سؤَالك ما يوجب الاعتذار ولكن اصدقائي المشار اليهم غرباء والاغلب انكم لا تعرفونهم لانهم من بلاد مصر

فقال ان صهري الذي رأَيتهُ الآن معنا قادم من مصر فلعلهُ يعرف

احدًا من اصدقائك قال ذلك ودخل يدعو صهره فجاء وهو لا يزال ماثماً وهمَّ توًّا الى ذلك الفارس وحيَّاهُ بكل لطف وبدأ بالاعتذار اليهِ على عدم مجيئهِ من بادئ الرأي لاشتغالهِ بتضميد جراح الجريح ثم اخذ يشكر همتهُ وغيرتهُ وهو مطرق خجلاً . فقال الشيخ ان حضرة الفارس قادم من مصر يريد دمشق لمشاهدة بعض اصدقائهِ من المصريين فقطع الباشا عليهِ كلامهُ قائلاً قد لحظت في كلام حضرتهِ عند ما خاطبتهُ الآن لغة مصرية ولكن من هم اصدقاء حضرتك قال هم عائلة مصرية يقال لها عائلة فلان باشا

ولم يتم كلامهُ حتى تقدم الباشا اليهِ وتأملهُ قائلاً ان الذي تطلبهُ هو هذا الداعي ومَن حضرتك

فأمعن الفارس بالباشا قليلاً ثم رمى بنفسهِ عليهِ صارخاً مرحباً بسيدي وعمّي وطفق يقبل يديهِ فبهت الباشا لذلك وادرك على ضعف النور هناك ان الشاب الذي يكلمهُ هو شفيق بعينهِ فوقع في حيرة بين الانذهال والاضطراب واليأس والرجاء ولكنهُ لم يستطع التوقف عن تقبيلهِ وضمهِ الى صدرهِ فأسرع شفيق في السؤال عن باقي العائلة وقد اراد السؤال عن فدوى خاصة فقال هي في خير وستراها قريباً

ثم اجلسهُ وهو يقول لهُ كيف انا سرنا كل هذهِ الطريق معاً ولم يعرف احدنا الآخر قال اني كنت في شاغل عن كل ذلك بتطلعي نحو دمشق حيث قيل لي انكم مقيمون وقد ساعد على ذلك مبالغتكم في التلثم فهمَّ الباشا ان يعرّفهُ بذلك الشيخ فسمع ضوضاء في حجرة السيدات

فتركهما مستأذناً وهما فيما علمت من اللهثة والاستغراب ودخل ليسأل عن سبب ذلك فرأى امراتهُ وامرأة عمهِ وصاحب المنزل اللابس اللباس الاسود المستطيل متعانقين يبكون ويقبلون بعضهم بعضاً فاندهش الباشا ايما اندهاش وسأل عن سبب ذلك فاذا بامرأة عمهِ قد أُغمي عليها وهي تقول « ووالداه وفلذة من كبداه أأنت حيٌّ بعد ولدي عبد الرحمن » فأسرعت امرأة صاحب المنزل لانها كانت اقدر الجميع على المشي وجاءت بالماء ورشت المغمى عليها حتى افاقت ففهم الباشا انهُ اخو امرأتهِ الذي كان مفقوداً فحقق النظر فيهِ فاذا هو ابراهيم والد شفيق فوقف مبغوتاً ولحيتهُ ترقص على صدرهِ من شدة التأثر لغرابة ذلك الاجتماع وتساقطت عبراتهُ ولم يعد يعلم ماذا يقول فظنوهُ مبغوتا من منظرهم فقالت لهُ امرأتهُ « هذا هو شقيقي الذي لم ارهُ منذ ٢٥ سنة فنشكر الله على وجودهِ » فاخذ الباشا يهنئهم بالسلامة وهو يفكر بذلك الاتفاق العجيب وحدثتهُ نفسهُ ان يخبرهم عن شفيق ولكنهُ خاف على الوالد والوالدة ان يموتا من شدة الفرح فصبر حتى كفوا عن البكاء اما ابراهيم وامرأتهُ فانهما ما زالا يشهقان من البكاء وقد شاركتهما في ذلك فدوى لانهم تذكروا فقيدهم العزيز وولدهم وحبيبهم شفيقاً فقال ابراهيم « آه آه من الدهر الذي قصم ظهري ونغص عيشي اما كان يحسن بهِ ان يتم عقد اجتماعنا ويكون فيهِ ولدي وحبيبي ومهجة كبدي ومنتهى املي شفيق ... آه من الزمان ... آه من الدهر آه يا لتعاسة حظي » واخذ يلطم وجههُ فاراد الباشا ان يخبرهُ بان شفيقاً في الجانب الآخر من المنزل فخاف عليهِ

من غائلة العواطف لئلا يصيبهُ سوءٌ فاخذ يخفف عنهُ قائلاً ان الله قادر ان يجمعكما بهِ فتأَسَّ الآن بأَخاك ووالدك وها اني ذاهب لادعو لك والدك وخرج فلقيهُ الشيخ قبل وصولهِ الى المسطبة وسأَلهُ عن سبب تلك الضوضاء فقصَّ عليهِ الخبر بأُسلوب لطيف بحيث لا يتأَثر فدخل ذلك الشيخ والقى نفسهُ على ولدهِ وقبلهُ حتى أُغمي عليهِ فرشُّوهُ بالماءِ حتى افاق وجلس الجميع يهنئون بعضهم بعضاً اما الباشا فخرج الى شفيق والتأَثر ظاهر على وجههِ فسأَلهُ شفيق عن سبب ذلك وكان قد اشفق على فدوى لئلاَّ تكون قد أُصيبت بسوءٍ فقال الباشا خيرًا يا ولدي ولكني اسأَلك ان تمهلني قليلاً لآتيك بالخبر اليقين فجلس شفيق كأَنهُ على جمر الغضا

ودخل الباشا الغرفة واغلق الباب وراءَهُ فاذا هناك الشيخان وولداها وكنتها وحفيدتها والجميع يندبون شفيقاً فوقف في وسطهم قائلاً من ينقصكم الآن حتى يتم عقد اجتماعكم فصاحوا بصوت واحد «شفيق شفيق»

وكان بخيت في غرفة قريبة من تلك فلما سمع كلمة «شفيق» هب من فراشهِ كأَنهُ ليس عليهِ بأْس وجاءَ ماشياً وقد نسي اوجاعهُ ودخل بلهفة قائلاً اين شفيق يا اسيادي وجاءَ من الجهة الاخرى الخادم احمد بمثل تلك اللهفة فقال الباشا وما الذي اقامك من فراشك يا بخيت قال والله يا سيدي ان شفيقاً ليقيمنّي من القبر وليس من الفراش فقط فأَين هو

فلما سمعت فدوى كلام بخيت علمت انهُ يتكلم بلسان حالها فتهيجت

عواطفها وازدادت في البكاء فقال بخيت قد سقط بيدي فهل سيدي شفيق ليس هنا

فقال الباشا ماذا تجعلون لي اذا جئتكم بهِ فحسبوهُ يمزح اما بخيت فقال وقد اقعدهُ التعب اني أُعطيك روحي يا سيدي وها هي في قبضة يدك فقال احمد لا بل انا اهب روحي فداءً لسيدي وحبيبي فزادت فدوى في البكاء ثم قال عبد الرحمن وهو يمسح دموعهُ وامرأَتهُ الى جانبهِ تندب وتنوح ارغب اليك يا سعادة الباشا ان لا تهيج اشجاننا اكثر من ذلك فقد كفانا ما قاسيناهُ وما لم نتخذ هذهِ العزلة الا من اجلهِ

فقال الباشا امهلوني بضع دقائق فأُخبركم الخبر اليقين قال ذلك وخرج فظنوهُ لا يزال مازحاً وانهُ انما خرج يريد شيئاً لنفسهِ فجلسوا يتحادثون ويتساءلون بعضهم عن بعض ويتأَسفون بصوت واحد على شفيق

اما الباشا فخرج الى حيث شفيق ينتظرهُ فوقف لهُ شفيق فأَقعدهُ وجلس الى جانبهِ فقال لهُ لقد وعدتني يا سيدي بمشاهدة العائلة ولا ازال في انتظار ذلك فهل هنَّ في شغل قال لا ولكن لي عندك سؤَالاً اسأَلك الاجابة عنهُ

فقال شفيق سل ما بدا لك

قال اتذكر اني سأَلتك عند ما قابلتك في مصر قبل سفرك الى السودان عن ابيك فلم تجبني جواباً صريحاً ولكنك قلت انك ستكتب اليهِ في لندرا ليكتب اليَّ فهو لم يكتب اليَّ بعد ولما سأَلتك عن وطنهِ ومذهبه لم تجبني جواباً قطعياً فهل علمت الآن اين هو وطن ابيك وما هو مذهبهُ

فتأوَّه شفيق واراد الاجابة فسبقتهُ العبرات ثم تنهد وقال آه يا سيدي لا تذكرني بمصائبي لاني لا اعلم اين مقرُّ والديَّ الآن وقد سأَلت عنها في مصر فقيل لي انها غادراها الى حيث لا يعلم احد وانما يرجحون انهما قصدا لبنان ليعتزلا عن الدنيا اما سعادتكم فعلمت انكم في بر الشام فلحقت بكم وما زلت اسأَل حتى علمت انكم في دمشق فسرت برفقة هؤلاء العساكر اللبنانيين حتى التقيت بكم كما علمت وقد كنت اظن اني بالتقائي بكم اعرف شيئاً عن والديَّ فهل لك ان تفيدني شيئاً تعرفهُ عنهما

قال الباشا لم يكن علمي عنهما اكثر من علمك انت حتى هذه الليلة بل هذه الساعة فقال بلهفة وهل عرفت عنهما شيئاً الآن · قال قد عرفت انهما على مسافة قريبة من هنا

فنهض شفيق عن الارض قائلاً قل بالله قل اين مقرها آه ووالداها واماه

قال هما يا ولدي في مكان قريب من هنا وفي الصباح ابعث معك بمن يهديك اليهما

فصاح شفيق كيف انتظر الى الغد فها اني اسير اليهما في هذه اللحظة — وارغب اليك يا سيدي ان تفيدني عن مكانهما الآن ولك الفضل عليَّ

فضحك الباشا قائلاً انهما في هذا البيت يا ولدي

فوثب شفيق عن الارض قائلاً أَفي هذا البيت والديّ افي حلم انا ام في يقظة ام انت تمزح

قال الباشا بل في يقظة ياولدي ولكن في اتفاق عجيب واحكى لهُ الحكاية فاراد شفيق الهجوم على الحجرة فمنعهُ الباشا قائلاً وقد كان يمكنني ان اخبرهم عنك ولكنني أشفقت عليهم من سلطان العواطف اذ قد يترتب على شدة الفرح اذا كان بغتياً ضرر جسيم فتعال ورائي وقف عند الباب وانا ادخل قبلك وانبههم الى مجيئك

الفصل الحادي والتسعون

لقاء يعجز القلم عن وصفه

فسار الباشا وشفيق في اثرهِ حتى وصلا باب الحجرة فدخل الباشا واغلق الباب وراءهُ والتفت الى الجميع متبسماً فاذا هم جلوس وعلى وجوههم امارات الانقباض فتقدم الى ابراهيم وامرأتهِ قائلًا «انزعا عنكما ثياب الحداد لان وقت فرحكما قد جاء بل هو وقت فرحنا جميعاً» فبهت الجميع ينتظرون ما وراء هذا الكلام فاذا بالباشا قد تحوّل نحو الباب ففتحهُ وخرج وعاد ممسكاً شفيقاً بيدهِ فلما دخل شفيق بهت الجميع وجعلوا ينظرون اليهِ وهم لا يدرون ما اذا كانوا في حلم او يقظة وهو ايضاً لم يكن اقل اندهالاً منهم فاستولى السكوت على جميع الحاضرين لحظةً لم يكن فيها قلبٌ غير مختلج ولا ركبتان غير مرتجفتين ولا عينان غير شاخصتين وكان اكثر الحاضرين اندهالاً ذانك الوالدان اللذان اختارا التنسك ولبس الحداد والابتعاد عن العالم بعد فراق ولدهما الوحيد الذي

قضيا العمر في تربيتهِ وتثقيفهِ اتستعظم الذهول او الدهشة اوالشخوص او الجنون منها عند التقائها بهِ في تلك البرية بطريق الاتفاق الغريب

واما تلك الفتاة التي قاست الاهوال العظام وهي غضة العود لطيفة المزاج ولم تكد تفتح عينيها حتى داهمها الحب بل الوجد فاخذ بمجامع قلبها ثم بعد عنها حبيبها الذي لم يكن لديها اعز منهُ في هذا العالم ناهيك عما داهمها من نكبات الزمان وكفى بذلك الخائن نقمة لها فكم حافظت على ودها وبالغت في تلك المحافظة على ضعف املها باللقاء فلا تلم هذا القلم العاجز اذا قصر في وصف حالتها عند ما عاينت حبيبها امامها في مثل ذلك الاتفاق العجيب بعد ان انقذها مرة ثالثة من الموت وكانت قد يئست من حياتهِ ·

اما ذلك الشاب الذي ربي في مهد الدلال وعلق قلبهُ الحب عن صغر فقادهُ حب العلا وارضاء سائلة ابيهِ الى تجشم الاسفار الطوال واحتمال الاخطار في اقصى بلاد السودان اتستعظم منهُ اذا دخل تلك الغرفة التي اجتمع فيها حبيبتهُ ووالداهُ اللذان هاجرا الدنيا يأساً من حياتهِ واختارا التنسك على الرفاهة حتى لا يكون بينهما وبينهُ تفاضل في الحياة اتستعظم منهُ الانذهال والدهشة والوقوف لحظة لا يفرق فيها بين اليقظة والمنام

فبعد انذهالهِ لحظة عرف والديهِ وهمَّ اليهما ورمى بنفسهِ عليهما وطفق يقبل ايديهما واما هما فعكفا عليهِ يقبلانهِ ويذرفان دموع الفرح حتى كاد يغمى عليهما وهما يناديان بصوت يخالطهُ البكاء «ولداه شفيق ولداه

وقطعة من كبداه أأنت حيٌّ بعد» ولا سيما تلك الوالدة التي عانقت ولدها واخذت تقبلهُ وتذرف الدموع وتنادي «ولدي حبيبي مهجة كبدي نحمد الله على سلامتك يا ولداه»

اما فدوى فكانت اشدَّ الجميع تأثراً لما حال بينها وبين اظهار عواطفها من الحياء على انها نسيت نفسها واخذت تنادي «شفيق شفيق هل انت حيٌّ .. آه يا مهجة فؤادي أفي حلمٍ انا ام في يقظة»

اما هو فلم يكن يدري من يخاطب ولا الى من ينظر ولم تكن تسمع في تلك الغرفة الاّ شهيقاً وبكاءً يمازجهُ السرور والابتهاج

اما بخيت فاخذ يقبل الارض ويفتح يديهِ نحو السماء قائلاً «نشكر الله تعالى على هذهِ المنَّة فاذا متُّ انا الآن اموت قرير العين طيب القلب» وتقدم الى يدي شفيق وقبلهما ولم يعد يدري ماذا يقبل فيه أيديهِ ام كتفيهِ ام صدرهُ ام ظهرهُ او وجههُ واما احمد فهمَّ الى يديهِ واخذ يقبلهما ظهراً وبطناً وهو يقول الحمد لله على السلامة يا سيدي الحمد لله على السلامة

ثم نهض الشيخ الكبير وتقدم الى حفيده وقبلهُ بدموع الفرح وكذلك امرأتهُ وامرأة الباشا وكانوا قد اشتغلوا في بادئ الرأي بملاحظة عواطف الوالدين ثم انتصب الشيخ واقفاً وقد امتلأت عيناهُ بدموع الفرح وقال هلمَّ بنا يا اولادي ان نسجد ونشكر الله تعالى على هذهِ المنة العظيمة التي وهبنا اياها وكيف انهُ جمع شتاتنا من اقاصي العالم» فشاركهُ الجميع في ذلك وبعد الصلاة جلسوا يقصون اقاصيصهم وكانت حكاية شفيق

اغرب الحكايات وما زالوا كذلك الى الصباح فاتفقوا جميعاً على المسير الى بعابك يقضون فيها ذلك النهار ويشاهدون قلعتها الشهيرة العجيبة البناء ثم يسافرون معاً الى بيروت ثم الى مصر

وبدل ابراهيم وامرأته ثيابهما السوداء بثياب بيضاء وهندم ابراهيم شعره وانقشعت العبوسة عن وجهه

اما الباشا فما برح كل ذلك الليل يفكر في امر عزيز وما يترتب على مجيئه في الغد وبعد طول الافتكار قرَّر في ذهنه ان عزيزاً يستحق كل قبيح لانهُ خائن ذميم ومهما اصابهُ فلا اسف عليهِ ولم يعد يهمهُ شيءٌ منهُ لانهُ اصبح المالك لكل املاكهِ بمقتضى صك مسجل لا يغيرهُ شيءٌ

وفي الصباح خرج شفيق الى العسكر الذين كانوا معهُ وانقدهم اجورهم وأثنى على همتهم ثم ركب مع سائر العائلة في العربتين وساروا قاصدين بعابك فوصلوها في الضحى فنزلوا في فندق هناك ثم تجولوا لمشاهدة آثارها وقضوا بقية ذلك النهار في الجولان من مكان الى آخر يسرحون الطرف بمناظر تلك السهول الخصبة التي قد كساها الربيع حلة خضراء وما زالوا الى المساء فعادوا مارّين بحجر الحبلى الهائل الذي يقتضي لحملهِ ستة آلاف رجل في يد كل منهم مخل والحجر المشار اليهِ منحوت معدٌّ للبناء وفي القلعة كثير من مثل هذا الحجر يعجب الناظر لعظمها ولا يفهم كيف استطاعوا نقلها

اما بخيت فانهُ بقي راقدًا في سريرهِ وقاية لجراحهِ فسمع في اصيل

ذلك النهار صوت رجل يعرفهُ فتحققهُ فاذا هو صوت عزيز فخفق قلبه خفوق الفرح فود لو انهُ يأْتي اليهِ لكي يخبرهُ بمجيء شفيق والتقاء سائر العائله بخير ليرى ماذا يظهر منهُ

فدخل عزيز حجرة بخيت وهو لا يدري وحالما وقع نظرهُ عليهِ تعجب من رقادهِ في منتصف النهار فتقدم اليهِ وسأَلهُ عن سبب ذلك فأَخبرهُ انهُ أُصيب بجرح من اللصوص الذين سطوا عليهم في وادي القرن

فبغت عزيز وقال وكيف نجوتم منهم وهل اصاب فدوى سوء

فضحك بخيت وقال نعم اننا وصلنا الى اشد الخطر وقد نجونا بهمة ذلك البطل الصنديد والشهم المجيد

قال عزيز وقد خفق قلبهُ ومن هو هذا البطل

قال بخيت اقول لك من هو قال قل قال لا أقول حتى تسأَلني ذلك بالحاح فاغتاظ عزيز وصرخ قائلاً قل بالله قل قال هو سيدي شفيق فوثب عزيز من كرسيهِ وقد امتقع لونهُ وارتعدت فرائصهُ وقال أَحقيق ذلك يا بخيت

قال نعم وحياة شفيق اني لم اقل الاَّ الصحيح ومع ذلك تمهل ريثما ترى جميع العائلة آتية معاً وفيها والدا شفيق واخبرك شيئاً آخر اظنهُ لا يسرُّك وهو ان شفيقاً ابن خال فدوى اي ان امها واباه اخوان

فاسودت الدنيا في عيني عزيز وتحير بين ان يصدق كلام بخيت او يكذبه بالنظر لغرابتهِ فلبث ينتظر عود الباشا ليرى صدق ذلك رأْي العين فدخل غرفة تشرف على الشارع وجلس الى النافذة ينتظر عودهم

الفصل الثاني والتسعون

﴿ على الباغي تدور الدوائر ﴾

فلما كان الغروب رأى جمهورًا كبيرًا قادماً فحقق نظره فاذا بشفيق الى جانب فدوى يتحادثان وقد حمل كل منهما طاقة من الازهار يتبادلان منها الاقمار وهما في غاية السرور والباشا ماش الى جانب شفيق فرحاً فتحقق لديهِ ان فدوى قد خرجت من يدهِ ولم يعد يمكنهُ الحصول عليها . ثم تذكر الصك الذي اعطاه للباشا فاشتعل جسمهُ واحس كأَنك تصب عليهِ ماء تارة غالياً وطورًا باردًا ثم سمع وقع اقدامهم على السلم فلم يعد يتمالك نفسه عن الارتعاش فذهب الى سريره وهو ينتفض من البرد والقشعريرة ثم عقب ذلك حمى شديدة اخذت تتعاظم حتى بلغت بمدة ساعتين درجة ٤١° س فبادر صاحب الفندق الى استدعاء الاطباء الموجودين في بعلبك فعقدوا مشورة طبية فاذا هو في حالة الخطر الشديد يهذي بكلامه غائباً عن الصواب

فشاع الخبر في الفندق وكان الباشا وعائلته قد عرفوا بمجيء عزيز من بخيت وهذا لم يكن لديه يوم اكثر سعادة من ذلك اليوم فلما سمعوا بمرضهِ تراكضوا لمشاهدته فلم يأْذن لهم الاطباء بالدخول بدعوى ان المريض في حالة لا تسمح لاحد بالدخول عليه فلما علم شفيق بذلك تكدر لما المَّ بذلك الشاب في ديار الغربة لانهُ خشي ان تكون تلك الضربة قاضية واما احمد وبخيت فكانا مسرورين بذلك لانهما اتفقا

على كره ذلك الشاب والانتقام منهُ لما عرفا من دسائسهِ وخيانتهِ واما الباشا فبهت صامتاً يراجع في ذاكرتهِ حكاية الصك وما قاساه ذلك الشاب من الاسفار والذل طمعاً بنيل ابنتهِ وكيف انهُ استولى على كل مالهِ وكيف كانت نهاية امرهِ من الفشل الذي اورث لهُ هذا الداء الشديد

واما شفيق فكان أَشد الجميع أسفاً عليهِ لانهُ علم ان سبب مرضه انما هو الفشل وخيبة الامل فلم يستطع طعاماً في ذلك المساء قط وقضى الجميع معظم ذلك الليل في حديث عزيز ومرضه وفيما هم في ذلك اذ جاءهم خادم الفندق يقول ان العليل يودُّ مقابلتهم غير مبال بوصية الطبيب فاسرع شفيق والباشا الى غرفتهِ وحالما دخلا وقع نظرهما عليه وهو متوسد في فراشهِ وقد علا وجههُ الاحمرار من اشتداد الحمى عليهِ

أَما هو فلما سمع وقع خطواتهما حول وجههُ نحوهما وحالما رآهما امتلأَت عيناه بالدموع ولم يكن يستطيع الحركة فاشار اليهما بأَهداب عينيه فاقتربا منهُ باكيين ووقفا بازاء سريره صامتين لئلا يزعجاه بالكلام وكان الطبيب في الغرفة ساهرًا من اجلهِ فاشار عزيز اليهِ ان يخرج قليلاً فخرج ولم يبق في الغرفة غيره والباشا وشفيق فأَومأَ اليهما وقد ضاق تنفسهُ من اشتداد الحمي ان يجلسا فاخذ كل منهما كرسياً وجلسا امام السرير ينظران اليهِ نظرة الاسف ولا سيما شفيق فانهُ نسي كل سيئاتهِ وكاد ينفطر قلبهُ شفقة عليهِ

وبعد بضع دقائق اعاد عزيز نظره اليهما وكان يريد التكلم ولا يستطيعه فسأله شفيق هل يحتاج الى شيء فاشار اليه بيده ان ينتظر ريثما يهدأ روعه فيخاطبه فسكت ثم مد عزيز يده الى شفيق فمد شفيق يده اليه وامسكه فاحس بارتجاف شديد ومد يده الاخرى فأمسكه شفيق باليد الاخرى فتوكأ عزيز على يدي شفيق يريد الجلوس فلم يستطع فوقف الباشا واسند ظهره واجلساه وجعلا الوسائد وراء ظهره فجلس وما زال قابضاً على يدي شفيق ثم جذبه اليه حتى دنا منه فضمه الى صدره وجعل يقبله ويبكي بكاء الطفل والدموع تتساقط على خديه كالمطر ولم يكن شفيق اقل بكاء منه وقد ادرك انه يريد استغفاره على ما فرط منه بحقه فقال له طب نفساً يا عزيزي اني واثق برجوعك وانك لم تفعل ما فعلته الا غالطاً

فتكلم عزيز عند ذلك وقال «اني مستوجب لاكثر من الموت لان السماء قد سخطت عليَّ لجنايتي ودناءتي وكأن الله لم يرد ان تدنس يدك بقتلي فقتلني بالمرض فأتقدم اليك ان تشفق على دموعي وضعفي وتصفح عن شقاوتي فاني لا استحق اقل من القتل وعما قليل افارق هذه الدنيا فلم اشأ مفارقتها قبل ان استغفرك ايها الشهم الكريم لاني قد اخطأت اليك واذنبت ذنباً لا يغتفر وكم اردت بك سوءا وانت لم تجازني الا بالصفح فها ان الله قد انتقم لك انتقاماً عادلاً»

فلم يعد شفيق يتمالك عن البكاء ولكنه همَّ الى عزيز وقبله مراراً وقال له ان الله يغفر الذنوب يا عزيزي وكل شيء بقضاء منه سبحانه

وتعالى فها اني صافح عنك واطلب الى الله تعالى ان ينقذك من هذا الداء وينهضك من هذا الفراش

فصاح عزيز وقد انهكهُ العياء «لا لا اني لا استحق الحياة ولم يعد يحلو لي المقام في هذهِ الدنيا لاني دنستها بشروري وارتكبت فيها الخيانة والغدر ..... اجل اني خائن غادر اليَّ يا موت فقد كرهت حياتي الرديئة المدنسة بالشرور» ثم التفت الى الباشا قائلاً «وانت ايها الشيخ الجليل اصفح عن شروري واسأَل ذاك الملاك الارضي ان تعفو عني لما سبَّبتُ لها من الشقاء بخيانتي فكم نغَّصت عيشها وحاولت اذيتها وهي ثابتة على وداد من لا استحق ان التم حذاءَهُ آه لو اراها فأُقبل نعالها واستغفرها قبل موتي لاني اشعر بثقل آثامي نحوها ونحو حبيبها هذا... آه اني اشعر باثقال اعظم مما احتمل وها اني ارى الابالسة قادمة لاختطاف روحي الشقية لتلقيها الى السعير»

فقال الباشا «شفاك الله يا ولداه ولا اراك مكروهاً فاذا كنت مشعرًا بخطإِك فيرفع الله هذهِ الشدة عنك لانهُ يقبل التائبين شفاك الله بجاه خاتمة الانبياء وسيد المرسلين»

الفصل الثالث والتسعون

العفو عند المقدرة من شيَم الكرام

فقال عزيز « ان ذنوبي اكثر من ان تغتفر والموت احب اليَّ من الحياة ولم تعد عيناي تستحق النظر الى خيال تلك الفتاة الطاهرة العفيفة الودودة الخالية من كل عيب ولا الى هذا الشهم الفاضل الشريف الكريم الاخلاق .... لا لا بل الموت خير لي » قال ذلك والقى بنفسهِ الى السرير وغاب عن الصواب فأسرع شفيق الى الطبيب فدخل وامر بالثلج على رأسهِ فجاؤا بهِ وجسَّ نبضهُ فأوعز باشتداد الخطر فاشتدَّ بلبال شفيق والباشا كثيرًا ولم يعد يمكنهما براح الغرفة فطلب اليهما الطبيب ان يخرجا قليلاً ففعلا فاذا بفدوى وسائر العائلة بانتظارهما في حجرتهم فدخلا باكيين فسألوهما عن عزيز فأخبراهم بما دار بينهم فشقُّوا عليهِ كثيرًا . ومضى ذلك الليل ولم يناموا الا يسيرًا وبكَّر شفيق في الصباح التالي الى غرفة عزيز فقيل لهُ انهُ راقد وقد كلّله العرق فاستبشر بزوال الحمى وعاد فأخبر العائلة بما كان . اما فدوى فكانت تعجب لشهامة حبيبها وكرم اخلاقهِ وودَّت شفاءَ عزيز اكراماً لعواطفهِ لانها رأَتهُ آسفا كثيرًا على موتهِ

ولما كان الضحى جاءَهم خادم الفندق ان يسيروا الى غرفة عزيز فاذا هو في السرير وقد صفا لون بشرتهِ فدخل شفيق والباشا فقال لهما أَلا يأْذن لي سيدي بنظرة ازودها قبل الممات من تلك العذراء الطاهرة ولو من وراء اللثام لعلّها اذا رأَت حالتي ترثي لي وتعفو عن ذلّتي فان الله يستجيب دعاء الطاهرين

فبعث الباشا الى فدوى فحضرت ملثمة وحضر معها والدتها وجداها فلما وقع نظرهُ عليها بكى ونادى بأعلى صوتهِ «اليك أتوسل ايها الملاك الارضي ان تصفحي عن ذاتي وتعفي عن ذنبي انا الخائن الغادر الكاذب وها اني سأُفارق هذا العالم المدنَّس بشروري قريباً فأطلب الى الله بهذا اللسان الدنس وهذا القلب الشقي ان يتمَّ اقترانك بهذا الشهم الذي يليق بكِ وان يحفظكما سعيدين راتعين في الرغد والهناء لكي تنسيا ما كابدتماهُ بسببي من المتاعب والعذاب» قال ذلك واخذ يشهق في البكاء حتى كاد يشرق بدموعه اما فدوى فلم تجب ببنت شفة ولكنها تأثرت من تلك العبارات كثيرًا حتى بكت وصفحت عما تحماته بسببهِ

فقال الباشا انك يا ولدي لقد فطرت قلوبنا برقيق كلامك وصرنا نودّ شفاءك من كل قلوبنا وانا واثق ان ولدي شفيقاً لا يريد لك الاَّ الخير فنطلب الى الله ان يشفيك فتكون لنا كما يجب ان يكون التائب

فهمَّ شفيق الى عزيز وقبلهُ قائلاً ان الله قادر ان يشفيك وانا أُعاهدك ان لا أُعاملك الاَّ معاملة الأخ اذ قد نسيت كل ما جنيتهُ وما هي الاَّ هفوات يرتكبها بنو الانسان لضعفهم جلَّ من لا يغلط

وفيما هم في الحديث جاء الطبيب وفحصهُ ثم تبسم فاستبشر الجميع بزوال الخطر وشكروا الله ثم قال لهم الطبيب ان العليل يحتاج الى الرقاد الآن فاذا رقد ساعة ينهض معافًى ان شاء الله

فخرجوا من الغرفة فرحين وعادوهُ بعد الغداء فاذا هو جالس في الفراش وعلى وجههِ امارات الصحَّة وقد زالت عنهُ الحمَّى تماماً وما زال

يتقدَّم نحو الصحَّة يوماً بعد يوم حتى مضت ثلاثة ايام وتعافى نوعاً

فزارهُ شفيق وهنَّأَهُ بالسلامة فقال عزيز اني لا أستطيع النظر الى وجهك حتى تؤكد لي صفحك عني فقبَّلهُ وأَقسم لهُ بالشرف انهُ قد صفح عنهُ وأَخاص لهُ فقبَّلهُ عزيز ونادى الباشا فحضر فقبل يدهُ قائلاً اني اكون سعيدًا اذا قبلتموني خادماً في ركابكم فقال الباشا العفو يا ولدي فقال شفيق يا عزيزي انك ستكون معنا أَخاً وصديقاً يغفر الله لك وقد علمت بأَمر الصك الذي كتبتهُ لعمي فهذا لا حاجة لنا بهِ وها اني انقدم الى سعادة الباشا ان يتكرم بارجاعهِ اليك لتعيش بهِ فانهُ مالك وانت اولى بهِ واما نحن فاننا مكتفون بحول الله تعالى

فصاح عزيز قائلاً « كلاً كلاً اني لا استحق غرشاً واحدًا من ذلك المال وحسبي اني بقيت حياً بعد كثرة شقاوتي فانا لا آخذ من ذلك المال غرشاً واحدًا بل هو حق شرعي لمن يستحقه »

فتبسم شفيق واخذ الصك من يد الباشا ودفعهُ الى عزيز فلم يرضَ استلامهُ والحَّ عليه ان يبقيه معهُ وانهُ قد تنازل عن اموالهِ كلها لهُ لا يريد منها اكثر من سد الرمق فابى شفيق ذلك ولما لم يقبل عزيز ان يستلم الصك همَّ اليهِ شفيق ومزقهُ بين يديهِ ارباً ارباً

واعجبت جميع الحضور بتلك الشهامة ولم يكن ذلك الاَّ ليزيدهُ احتراماً في عيونهم ولا سيا عزيز الذي اصبح اسيرًا لهُ طوع ما يريد ثم قال سواء اردتم ام لم تريدوا فلا اقبل بمفارقتكم بعد الآن واعد نفسي خادماً لكم

فقال الباشا اذا اردت البقاء معنا فتكون ولدًا لنا

وقال شفيق انت اخي بعهد الله والله غفار الذنوب

اما بخيت فعاد بعد شفاء عزيز الى حب الانتقام منهُ اذ تذكر سابق خياناتهِ وقد اغتاظ لما رأى شفيقاً يمزق الصك ولكنهُ سحر بشهامتهِ ونظر الى عزيز قائلاً انظر يا عزيز انك والله لا تستوجب بحسب شريعتي اقل من القتل والصلب ولكن شهامة هذا البطل قد عفت عنك ولو قال لنا اعبدوهُ لعبدناك لان امرهُ مطاع والامر لهُ ولسيدي الباشا ولكنني لا انسى اعمالك وذلك الكتاب الذي بعثت بهِ بل تلك الكتب التي سببت الشقاء لسيدتي ولكن ...

فابتدرهُ احمد الخادم وقال اتذكر يوم رافقتهُ الى الاسكندرية و ...

فاسكتهُ شفيق قائلاً كفى ما قلتماه واعلما ان من يريد الاذى لاخي عزيز فقد ارادهُ لي ولا اقول اكثر من ذلك فنادى الاثنان معاً انهُ سيدنا ومولانا والامر امرهُ بعد امرك

ومكث الجميع في بعلبك يوماً آخر ثم ساروا الى بيروت ومنها الى مصر ولما دخلوا المدينة نزلوا بيت الباشا وكانوا قد اعدُّوا فيهِ سائر وسائل الزينة

ففي ليلة وصولهم قالت سعدى لابراهيم أتذكر كلامي لك في لندرا عن زواج شفيق لاحدى غنيَّات مصر فلم ترضَ . قال نعم . قالت هي فدوى التي كنت أعنيها فها قد تزوَّجها فقال الم اقل لكِ اني لا أُزوجهُ الَّا بواحدة من أَقاربي فها انهُ لم يتزوَّج الَّا ابنة عمَّتهِ فسبحان مدبّر الأُمور وموفّق الحوادث

واحتفل الباشا احتفالاً شائقاً بزفاف ابنتهِ على شفيق دعى اليهِ عددًا غفيرًا من اعيان القاهرة الغرباء والوطنيين

وعاشت هذهِ العائلة بعد ذلك بالرَّغد والهناء الى ان يقضي الله بما يشاء

مؤلفات

جرجي زيدان

مؤلف هذا الكتاب

« تطلب من المؤلف بمطبعة التأليف بالفجالة بمصر ومن نقولا »
« افندي دياب بشارع القبط باسكندرية ومن الخواجه مخائيل »
« سمعان بمكتبة الاميركان في طنطا ومن سائر المكاتب في مصر وسوريا »

(١) تاريخ مصر الحديث

هو تأليف حديث في جزئين كبيرين يبحث في تاريخ مصر منذ الفتوح الاسلامي (سنة ١٨ للهجرة) الى اليوم بما فيهِ الحوادث العرابية والسودانية وبتقدم كل ذلك فذلكة في تاريخ مصر القديم . وفي الكتاب زهاء مائة رسم متقن يزينها رسمان للخديوي السابق احدهما ماخوذ عن الفوتوغرافيا رسم المغفور لهُ محمد علي باشا واسماعيل باشا وبونابرت وغيرهم ومعظم النقود الاسلامية وفي ذيل الكتاب جدول عامٌ لاسماء الذين تولوا مصر من الفتوح الاسلامي الى الآن . وفي خاتمتهِ فهرس ابجدي عام لكل ما ورد فيهِ من المواضيع المهمة وللكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات . وعدد صفحاتهِ نحو ثمانمائة صفحة

اما ثمنهُ فاربعون غرشاً مصرياً او عشرة فرنكات ونصف واجرة ارسالهِ بالبوسطة خمسة غروش مصرية فمن يرسل ٤٥ غرشاً مصريا او احد عشر فرنكاً ونصفاً او بقيمتها طوابع بوسطة يرسل لهُ الكتاب اما اجرة تجليد الكتاب مجلداً واحداً متقناً فخمسة غروش مصرية فمن اراد الكتاب مجلداً فليرسل ٥٠ غرشاً صاغاً

تاريخ الماسونية العام

تاريخ وضع في اللغة العربية للجمعية الماسونية يبحث أولاً عن نشأتها ثم عن تاريخها القديم من نشأتها سنة ٧١٥ ق م الى تحولها من عملية الى رمزية سنة ١٧١٧ ثم عن تاريخها الحديث من هذا التاريخ الى اليوم ويتخلل ذلك تاريخها في تركيا وسوريا وفلسطين ومصر والمحافل الموجودة فيها الآن وشروقها وفي ذيل الكتاب ذكر لوائح القوانين والشرائع الماسونية واهم مؤتمراتها وبعد ذلك اسماء الاخوة الذين اشتهروا بالعلم والفضل وبالمراكز السامية منذ أول التاريخ المسيحي وفي ختامه جدول لتاريخ ظهور الماسونية الرمزية في كل من ممالك العالم وعدد صفحاته ٢٥٦ صفحة

وثمنه عشرون غرشاً صاغاً او خمسة فرنكات وربع واجرة ارساله في البوسطة غرشان او نصف فرنك

التاريخ العام (٣)

الجزء الاول

يتضمن مختصر تاريخ ممالك اسيا وافريقيا القديمة والحديثة بعد ذكر مقدمات جغرافية عمومية وحكاية الخليقة والطوفان وتفرق الانسان

وفي الكتاب كثير من الرسوم لزيادة الايضاح ٠ وعدد صفحاته ٢١٦ صفحة وفيها من الرسوم ٢٥ رسماً وثمنه ثمانية غروش صاغ واما للمدارس فجعل المؤلف فيه استاطاً مهماً يختلف باختلاف عدد النسخ المطلوبة واجرة ارسال النسخة الواحدة بالبوسطة غرش مصري

مختصر جغرافية مصر (٤)

هو مختصر موضوع على اسلوب مناسب للتدريس في المدارس الابتدائية المصرية على نوع خاص ووجه مناسبته يظهر مما يأتي

اولاً يتضمن المبادي الجغرافية العامة ثم كلام عام في قارات الارض
ثانيًا جغرافية مصر على نوع خاص بما فيهِ اقسامها الطبيعية والادارية والمديريات والمحافظات وما تقسم اليهِ المديريات من المراكز بالتفصيل وتاريخ كلٍّ منها واحوالهِ بقدر ما يقتضيهِ المقام ولا سيما محافظة مصر القاهرة لانها عاصمة الديار المصرية وعدد صفحاته ٧٢ صفحة

وثمن النسخة ثلاثة غروش وللمدارس اسقاط يختلف باختلاف مقدار النسخ المطلوبة واجرة ارسال النسخة الواحدة بالبوسطة عشرون بارة

(٥) الفلسفة اللغوية

كتاب يتضمن بحثًا تحليليًّا لالفاظ اللغة العربية بردّها الى اصولٍ بسيطة ثنائية المقطع تحاكي اصواتًا طبيعية وقد جاء المؤلف بامثال وشواهد متعددة من سائر اللغات الشرقية ومن غيرها وهذا البحث حديث الظهور في اللغة العربية ولا سيما على مثال ما نحاهُ المؤلف في هذا الكتاب البالغ عدد صفحاتهُ ١٠٦ صفحات

ثمنهُ عشرة غروش مصرية او فرنكان ونصف واجرة ارساله بالبوسطة غرش واحد

(٦) رواية المملوك الشارد

رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح وافٍ عن اوصاف الامير بشير الشهابي الكبير والمغفور لهُ محمد علي باشا وولدهُ المرحوم ابراهيم باشا مع ذكر احوال برّي مصر والشام واخلاق اهليهما اثناء المدة المشار اليها • ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في مصر والشام والمورة والسودان مع الاشارة الى الحملة الفرنساوية وانسحابها

والمحور الذي تدور عليهِ الحكاية المملوك الشارد وهو المملوك الذي نجا من مذبحة المماليك في القلعة والرواية تشوّق الى القراءة لتناسق حوادثها ولا يبدأ

قاريء بمطالعتها الآ اضطر الى اتمامها بالرغم عنه وعدد صفحاتها نحو مائتي صفحة ثمنها ثمانية غروش مصرية او فرنكان واجرة ارسالها بالبوسطة ستون بارة

(٧) رواية اسير المتمهدي

هي رواية تاريخية غرامية تندرج فيها الحوادث المصرية الاخيرة (العرابية والسودانية) مع حادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق الشام

وفيها رسمان وثمن النسخة عشرة غروش مصرية او فرنكان ونصف واجرة ارسالها بالبوسطة غرشان او نصف فرنك

(٨) الردُّ الرنّان

هو ردٌّ على انتقاد كتبه بعضهم على تاريخ مصر الحديث فيه تفنيد لما نسبه المنتقد لذلك الكتاب من الاغلاط وثمنه غرش واحد واجرة ارساله في البوسطة عشرون بارة

(٩) خارطة مصر

هي خارطة تتضمن اربع خارطات الواحدة عن مصر السفلى والثانية عن مصر العليا والثالثة عن مصر القديمة في ايام الفراعنة والرابعة خارطة مصر القاهرة ثمنها اربعة غروش مصرية . واما مع اجغرافية فثمنها غرشان واجرة البوسطة عشرون بارة